منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر

وَصْف إفريقيَا

للحسن بن مُحمد الوزان الفاسي

المعروف بليون الإفريقي

الجزء الثاني

ترجمه عن الفرنسية

محمد حجي

دكتور دولة من جامعة السربون

محمد الأخضر

دكتور دولة من جامعة السربون

الطبعة الثانية



وصف افريقيا
الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع الحقوق محفوظة

طبعة ثانية 1983

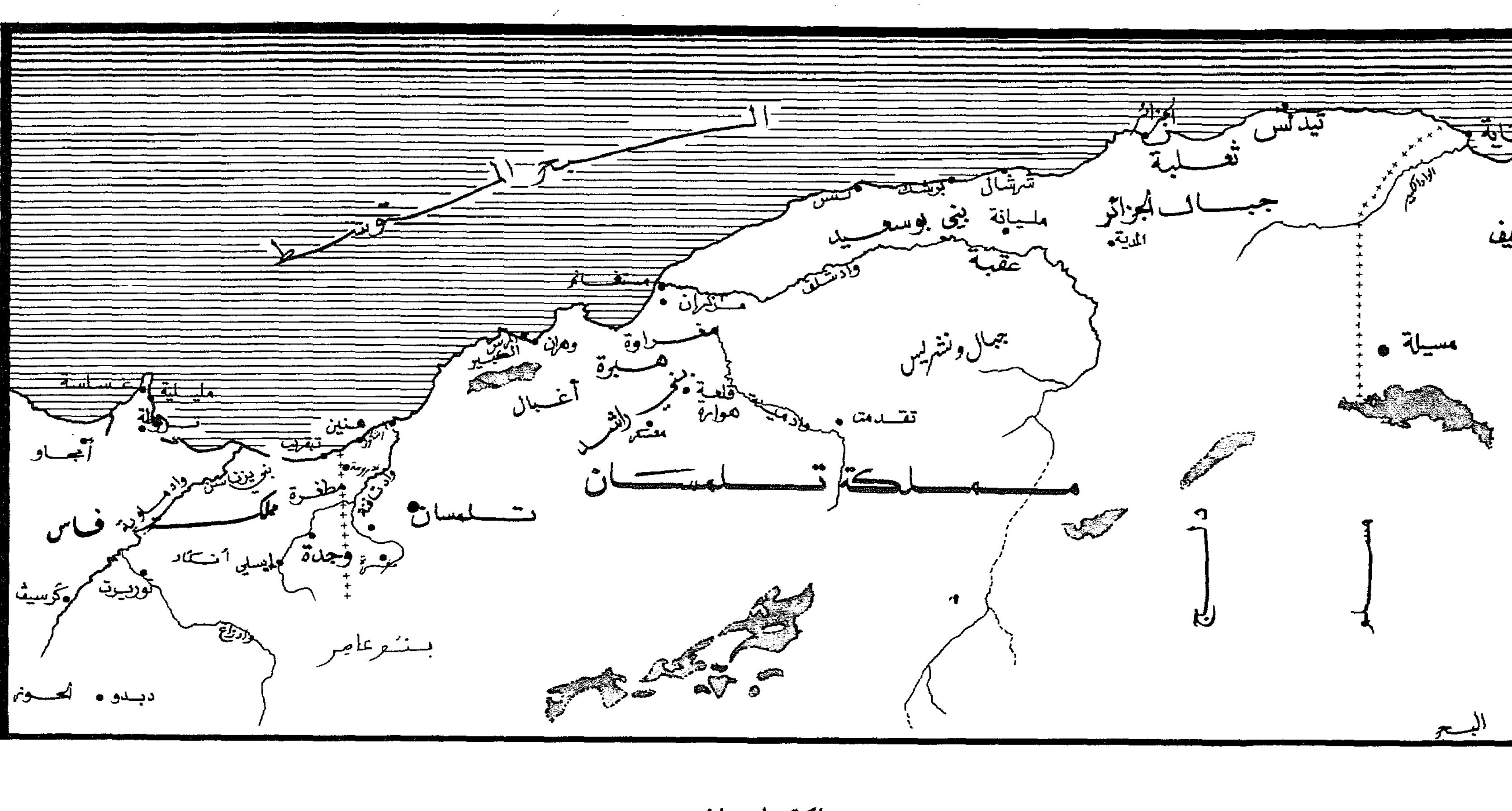
دار الغرب الإسلامي

ص. ب: 5787 - 113

بيروت - لبنان

القسم الرابع

مملكة تلمسان



مملكة تلمسان

مملكة تلمسان

يحد مملكة تلمسان واد زا ونهر ملوية غرباً، والواد الكبير (الصّمّام) وصحراء نوميديا جنوباً. وكانت هذه المملكـة تحمل في القـديم اسم قيصرية، عندما كانت خاضعة لسيطرة الرومان. ثم آلت إلى ملوكها الأقدمين ــ وهم بنو عبـد الواد المنتمون إلى مغراوة ــ بعد أن أجلي الرومان عن إفريقيا. وقد احتفظوا بالملك مدة ثلاثمائة سنة، إلى أن انتزعه منهم أمير ذو شأن كبير يسمى يغمرا سن بن زيـان وورثه عنـه أحفاده. بحيث إن هؤلاء الملوك بدلوا اسمهم ودعوا بني زيان ــ أي أولاد زيان ــ لأن زيان هذا كان والداً ليغمرا سن[1].

---

(1) يبدو أن القبائل المقيمة بناحية تلمسان كانت خاضعة ــ إبان الفتح العربي في أوائل القرن السابع م ــ لفرع من بني يفرن، إحدى قبائل زناتة الرئيسية، وكانوا رعاة رُحَّلاً. كما كان يحتل تلك الناحية إلى الشرق فرع هام من أعظم شعوب زناتة وهم مغراوة. وكان بنو عبد الواد إذ ذاك ــ وهم ينتسبون إلى بني واسين الذين يعدون من زناتة ــ يخيمون بالزاب والأوراس. ومن المحتمل أن يكون بنو عبد الواد من جملة الجيوش التي قادها عقبة بن نافع في زحفه نحو الغرب عام 62هـ/682م، وأن يكونوا أبلوا بلاء حسناً. أما بنو يفرن، فقد انهارت سلطتهم لدى الفتح الفاطمي في القرن العاشر م، لصالح مغراوة الذين لم يفقدوا الملك بتلمسان إلا عند سقوط هذه المدينة في أيدي المرابطين عام 472هـ/1079م. وفي ذلك العهد تقريباً، استقرَّ بنو عبد الواد جنوبيّ وهران الحالي، بعد أن طردهم العرب بنو هلال من زاب قسنطينة. ولم يظهروا على مسرح الأحداث بناحية تلمسان إلا في منتصف القرن الثالث عشر م. كمقاومين أولاً =

وقد استقر الملك في بني زيان ثلاثمائة سنة، غير أنهم اضطهدوا من قبل ملوك فاس، ـ أي بني مرين ـ الذين احتلوا مملكة تلمسان نحو عشر مرات، حسبما جاء في التاريخ. وكان مصير ملوك بني زيان حينئذ إما القتل أو الأسر أو الفرار إلى المفازات عند جيرانهم الأعراب، وتعرضوا أحياناً أخرى إلى الطرد من قبل ملوك تونس[2] إلا أنهم كانوا يسترجعون ملكهم كل مرة، واستطاعوا أن يتمتعوا في أمن وسلام قُرابة مائة وثلاثين عاماً، دون أن يتعرضوا إلى أذى أي عاهل غريب، ما خلا أبا فارس، ملك تونس، وابنه عثمان الذي أخضع تلمسان إلى تونس فترة من الزمان طالت إلى موته[3].

تمتد مملكة تلمسان على مسافة ثلاثمائة وثمانين ميلاً من الشرق إلى الغرب[4]، لكنها تضيق جداً من الشمال إلى الجنوب، إذ لا تتعدى المسافة خمسة وعشرين ميلاً في بعض النقط، من البحر المتوسط إلى تخوم صحراء نوميديا. ذلك هو السبب الذي من أجله لم تفتأ هذه المملكة تتضرر من تعسفات الأعراب القاطنين بالجزء المجاور للصحراء. وكان ملوك تلمسان دائماً مضطرين إلى أن يهدئوهم بأداء إتاوات جسيمة وتقديم الهدايا لهم،

= ثم كحلفاء لعبد المومن الموحدي. وأخيرا فإن أميرهم يغمراسن بن زيان الدي اشتهر بالشجاعة والاقدام، اتخذ عام 633هـ /1236م. شعار الملكية تحت سلطة الخليفة الموحدي بمراكش، وذلك للوقوف في وجه بني مرين الذين أخضعوا شمال المغرب إلى نفوذهم، وهم أيضاً من زناتة بني واسين.

(2) يعني الحفصيين.

(3) احتل أبو فارس عبد العزيز الحفصي ملك تونس تلمسان في شهر ماي 1424، مكتفياً بخضوع بني زيان لسلطته. وقد وصل حفيده أبو عمرو عثمان إلى أسوار تلمسان عام 866هـ /1462م. ثم عام 870هـ / 1466م. ليوطد الأمن فيها، ومات عام 893هـ / 1488م.

(4) صحح المعلقون في الترجمة الفرنسية المسافة بأنها 580 ميلاً وقدروها ب 930 كيلومتر. وهذا التقدير كغيره عندهم لا يساير ما حددناه للميل في التنبيه المثبت في ص 24 من الجزء الأول، ولا ما اتفق عليه حديثاً من أن الميل هو 1.852 ميتر.

لكن لم يستطيعوا قط إرضاءهم جميعاً، وقلما توجد في البلاد سبل آمنة، ومع ذلك فالسلع تروج بكثرة في مملكة تلمسان لقربها من نوميديا، ولأنها تشكل مرحلة في الطريق المؤدية إلى بلاد السودان.

ولهذه المملكة ميناءان مشهوران: ميناء وهران، وميناء المرسى الكبير، وكان يختلف إليهما كثيراً عدد وافر من تجار جنوة والبندقية حيث يتعاطون تجارة نافقة عن طريق المقايضة؛ غير أن هذين الميناءين سقطا في يدي الملك الكاثوليكي فرناندو[5] فكان ذلك خسارة عظمى لمملكة تلمسان، حتى إن الشعب طرد الملك أبا حمو وعوَّضه بأحد أعمامه وأعمام أبيه أبي عبد الله، وهو المدعو أبا زيان. فأخرج من السجن ورُفع على العرش، لكن ذلك لم يدم طويلاً، حيث إن (عروج) بربروس التركي طمح إلى الملك فقتل أبا زيان غيلة ونصب نفسه ملكاً. ولما طرد الشعب أبا حمو توجه فوراً إلى وهران وقطع البحر إلى اسبانيا قاصداً جلالة الامبراطور شارل كارلوس متضرعاً إليه أن ينجده ويعينه على أهل تلمسان والتركي بربروس. فأظهر الامبراطور الكبير رحمة وشفقة مثلما أظهرها أسلافه، بحيث إنه لبى دعوة الملك وأرسل معه جيشاً قوياً هائلاً استطاع أبو حمو بواسطته أن يرجع إلى مملكته ويقتل بربروس وعدداً من أتباعه[6].

---

(5) ذكر المعلقون في الترجمة الفرنسية أن احتلال المرسى الكبير تم سنة 1506، وهو خلاف الواقع إذ كان احتلال المرسى الكبير يوم الخميس 24 جمادى الثانية عام 911/23 أكتوبر 1505. أما وهران فقد سقطت يوم الجمعة 28 محرم عام 915-18 ماي 1509.
انظر أحمد توفيق المدني، **حرب الثلاثمائة سنة**، ص 102 و 110.

(6) وقع اضطراب هنا عند المؤلف الحسن الوزان بسبب تشابه أسماء الملوك الزيانيين المتأخرين واضطراب أحوالهم، بحيث إن معظمهم تولى الملك أكثر من مرة بعد أن عزل أو سجن. وقد حاول المعلقون في الترجمة الفرنسية أن يصححوا ذلك، إلا أننا آثرنا الرجوع إلى المصادر الجزائرية، وفيها: أن الملوك المتعاقبين على عرش تلمسان في عهد الاضطراب الاسباني التركي هم: =

وبعد هذه الأحداث أرضى أبو حمو جنود الاسبان، وتمسك رغبة منه في السلـم بالعهود التي قطعها على نفسه مع الامبراطور، مؤدياً له سنوياً الاتاوة المحددة[7] وظل ملتزماً بذلك طوال حياته. ولما مات[8] آل الملك إلى أخيه عبد الله، فامتنع هذا الأخير من طاعة الامبراطور والامتثال إلى شروط العهد الذي أمضاه أخوه، وذلك ثقة منه في مساندة سليمـان أمبراطور الأتراك، لكن هذا لم يمدده إلا بالقليل من العون. وما زال عبد الله حياً في الوقت الراهن عاملاً على توطيد حكمه.

ويُكوِّن معظم مملكة تلمسان أقاليم جافة قاحلة، لا سيما في جزئها الجنوبي، لكن السهول القريبة من الساحل منتجة جداً نظراً لخصبها. والجهة المجاورة لتلمسان كلها سهل مع بعض المفازات. حقاً إنه توجد غرباً عدة جبال قرب الشاطىء، وكذلك في إقليم تَنَس وفوق بلاد الجزائر عدد لا يحصى من الجبال غير أنها كلها منتجة.

ولا يوجد بهذه المملكة إلا القليل من المدن والقصور، غير أن الأماكن زاهرة والبقعة خصبة، كما سنبينه لكم بالنسبة لكل منها على الخصوص.

= **تاريخ التولية**

ـ أبو حمو موسى (الثالث) 909هـ/ 1503

ـ أبو زيان أحمد (الثاني) 1517/923

ـ أبو محمد عبد الله (الثاني) 1518/924

ـ أبو عبد الله محمد (السابع) 1524/930

انظر تفاصيل الأحداث المشار إليها في صلب الكتاب عند عبد الرحمان الجيلالي، **تاريخ الجزائر العام**، 2:204و221 وما بعدها + 270.

(7) وكانت قيمتها 12.000 مثقال من الذهب و12 فرساً و6 صقور إناث.

(8) في **تاريخ الجزائر العام** (2:223) أن السلطان أبا حمو قاتل عروج التركي مات في نفس السنة 1518/924.

صحراء أَنْكَادْ(9)

تبتدىء مملكة تلمسان غرباً في سهل قفر وعر يابس لا ماء فيه ولا شجر، وتمتد على مسافة نحو ثمانين ميلاً طولاً وما يقرب من خمسين ميلاً عرضاً، ويعيش فيها عدد كثير من الغزلان والوعول والنعام. وهي مأوى لعصابة لصوص من الأعراب على استعداد دائم للفتك بالمارين من هناك، حيث الطريق المؤدية من فاس إلى تلمسان. وقلما ينجو التجار من شرهم، لا سيما في فصل الشتاء، لأن الأعراب المستأجرين للحفاظ على الأمن في البلاد يكونون قد رحلوا عنها آنذاك إلى نوميديا، ويبقى منهم الغير المستأجرين وحدهم ليتعيشوا من اللصوصية. ويقضي أيضاً الشتاء في هذا القفر عدد كبير من الرعاء، لكن السباع تفترس أو تعطب كمية وافرة من الغنم وحتى الناس إن استطاعت.

قصر تمزيزدكْت(10)

هو قصر واقع في الحدّ بين هذا القفر وبلاد تلمسان، شيد قديماً على صخرة. وكان ملوك تلمسان يجعلونه في حالة تأهب دفاعي لحراسة

---

(9) من المعلوم أنه لم تكن هناك في عصر المؤلف حدود محدودة بين المملكات أو الأقاليم، وإنما هو تقدير وتخمين، ولا سيما بين المملكات التي تختلف دولها كما هو الحال بين مملكات فاس وتلمسان وبجاية وتونس. فهناك وراء ملوية شرقاً وشمالاً مدن وقرى وصحارى مغربية مثل وجدة وإيسلي وأنكاد وفكّيكْ وبني يزناسن الخ، لذلك فإننا سنكتفي بهذه الاشارة العابرة ولن نعود للتعليق في هذا الموضوع استقبالاً.

(10) ما يزال برابر القبائل بالجزائر يطلقون اسم تمزيزدكت ــ ومعناه المصفاة في لغتهم ــ على تِكْلَت، وهي عبارة عن أنقاض المستعمرة الرومانية القديمة تبسكتو قرب بجاية.. وقد أعطي هذا الاسم لتكلت عام 1326 م. عندما شيدت قلعة تذكر بقلعة قديمة غرباً كانت قد دمرت ولم تسفر الأبحاث لاكتشاف موقع هذه الأخيرة عن أية نتيجة. ويفترض أن يكون في قمة تل المحصر المتحكم في ممر تفنة المستعمل الآن للسكة الحديدية الرابطة بين فاس وتلمسان تماماً كما تتحكم تكلت في ممر الصّمّام بواسطة السكة الحديدية المؤدية من بجاية إلى بني منصور وربما أخطأ البعض فظن أن الأطلال التي تتوج هذا التل رومانية.

أماكن للمرور لجنود ملك فاس. ويسيل في سفحه نهرُ التافنة، وتحيط به أراضٍ جيدة كانت تزرع فيها حاجيات السكان. وما دام هذا القصر خاضعاً لحكم ملك تلمسان فإنه كان موضع صيانة تامة. أما الآن، وقد سقط في أيدي الأعراب، فإنه أصبح شبه إصطبل، لا يدخرون فيه سوى قمحهم وبراذع جمالهم. وقد هرب السكان من جراء تعسفاتهم.

قصر إِيسْلِي

هو قصر قديم[11] شيده الأفارقة في سهل يحاذي القفر السابق، وتحيط به بعض الأراضي التي يزرع فيها الشعير والدخن. وكان في القديم كثير السكان محاطاً بأسوار متينة دمرت أثناء الحروب، فأمسى خالياً بعض الوقت، ثم سكنه من جديد رجال يعيشون على طريقة الزهاد المنقطعين، ويتمتعون باحترام كبير من ملك تلمسان ومن الأعراب، وهم يقدمون الطعام والشراب في غالب الأحيان مجاناً وبسماحة إلى كل مَنْ مرَّ من هناك، ولا يشتمل القصر إلا على أكواخ سيئة ذات جدران من الطين وسقوف من القش، ويمر بقربه جدول ماء يسقي المزروعات، إذ لا ينبت أي شيء في هذه البلاد دون سقي لشدة الجفاف.

مدينة وَجْدَة

وجدة مدينة قديمة بناها الأفارقة في سهل فسيح جداً، على بعد نحو 40 ميلاً جنوب البحر المتوسط، وعلى نفس البعد تقريباً من تلمسان[12]

(11) لم يبق حاملاً اسم إيسلي غير النهر، وربما كان موقع مدينة إيسلي المندثرة عند الأنقاض المعروفة الآن باسم قصر العاجة في زكارة جنوب غربي مدينة وجدة على بعد نحو 18 كلم منها. واشتهرت في كتب التاريخ معركتان باسم إيسلي، أولاهما بين يعقوب بن عبد الحق المريني ويغمراسن بن زيان صاحب تلمسان سنة 670هـ. والثانية بين المغاربة والفرنسيين سنة 1260هـ/1844، انظر **الاستقصا**، 3:32-33، و9:49-54.

(12) أسس مدينة وجدة زيري بن عطية المغراوي عام 384هـ/994م ونقل كرسي إمارته من فاس إليها. انظر **الاستقصا**، 1:195.

محاذية غرباً مفازة أنكَاد. وأراضيها الزراعية كلها غزيرة الانتاج، تحيط بها عدة حدائق غرست فيها على الخصوص الكروم وأشجار التين، ويخترقها جدول يشرب السكان من مائه، ويستعملونه لاغراض أخرى. وكانت أسوارها في القديم متينة عالية جداً، ودورها ودكاكينها متقنة البناء، وسكانها أثرياء ومتحضرين وشجعاناً، لكنها نهبت ودمرت أثناء الحروب المتوالية بين ملوك فاس وملوك تلمسان، حيث كانت منحازة لهؤلاء[13]. وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، أخذت وجدة تعمر بالسكان وشيدت فيها من جديد دور كثيرة[14]، إلا أنها لم تسترجع حالتها الأولى. وليس فيها اليوم أكثر من خمسمائة دار آهلة. وسكانها فقراء لأنهم يؤدون الخراج إلى ملك تلمسان وإلى الأعراب المجاورين لهم بمفازة أنكاد. ويرتدون لباساً قصيراً خشناً شبيهاً بلباس الفلاحين، ويربون عدداً من الحمير الجميلة الكبيرة القامة التي تنتج لهم بغالاً جميلة عالية تباع في تلمسان بأغلى الأثمان، ويتكلمون باللغة الافريقية القديمة، وقليل منهم يحسن العربية الدارجة التي يتحدث بها أهل المدن.

مدينة نَدْرومَة

أسس هذه المدينة الرومان قديماً عندما كانوا يحكمون المنطقة، وبنوها على بقعة واسعة في سهل، بعيدة بنحو ميلين من الجبل واثني عشر ميلاً من البحر المتوسط، ويمر قربها نهر قليل الأهمية.

يقول مؤرخونا إن الرومان اختاروا لها نفس الموقع ونفس التصميم

---

(13) دمرت وجدة في شهر رجب 670هـ / فبراير 1272 على يد السلطان المريني يعقوب المنصور.

(14) وذلك سنة 696هـ /1297م. على يد السلطان المريني يوسف بن يعقوب.

لمدينة روما، وإن اسمها مشتق من كلمة «نِدّ» في لغة الأفارقة التي لها نفس المدلول في كلمة سيميليس (Similis) اللاتينية (مَثِيل)[15].

ما تزال أسوار ندرومة كاملة، لكن دورها دمرت، ثم أعيد بناؤها بكيفية غير لائقة تماماً، وبقيت في ضواحي المدينة بعض أنقاض بناءات قديمة[16] والبادية منتجة إلى أقصى حد: فتشاهد حول ندرومة بساتين عديدة وأراض مغروسة بأشجار الخروب التي يأكل السكان ثمارها بكثرة، سواء في المدن أو في باقي المنطقة، كما يتغذون بالعسل الموجود بها بوفرة. وندرومة اليوم مزدهرة لكثرة الصناع فيها، وينتجون على الخصوص أقمشة القطن لأنه ينبت بكثرة في الناحية.

يمكن أن يعتبر السكان أنفسهم تقريباً أحراراً، لكونهم تحت حماية جيرانهم الجبليين[17]: فالملك لا يستطيع أن يحصل على أي خراج من هذه المدينة لأن العمال الذين يوفدهم إليها إنما يقبلهم السكان إذا رضوا عنهم، وإلا رفضوهم وردوهم على أعقابهم. ومع ذلك فإنهم يرسلون أحياناً إلى الملك هدية بسيطة ليتمكنوا من إدخال سلعهم إلى تلمسان.

مدينة تَبَحْرِيتْ

مدينة صغيرة بناها الأفارقة على ساحل البحر المتوسط في رأس صخرة بعيدة بنحو اثني عشر ميلاً عن ندرومة[18]، ويقربها جبال عالية

---

(15) لم يعثر على أي أثر روماني بندرومة، ولا يذكر موقعها أدنى تذكير بروما، بل الاسم الذي تحمله هو اسم قبيلة كومية القديمة القاطنة في الناحية. وقد استعمل المؤلف هنا لغة الأفارقة قاصداً بها اللغة العربية.

(16) وقد اضمحلت في أيامنا هذه.

(17) يعني قبيلة مطغرة.

(18) اضمحلت تبحريت، لكن بقي اسمها على بعد نحو 30 كلم شمال غرب ندرومة. ومن المحتمل أن المدينة كانت مشيدة على رأس قلعة تشرف على البحر بارتفاع 125 متراً.

وعرة[19]، لكنها كثيرة السكان. وأهل تبحريت نساجون إلا القليل منهم، ولهم عدة ممتلكات مغروسة بأشجار الخروب، وينتجون العسل بكثرة، غير أنهم يعيشون في خوف دائم من هجوم النصارى عليهم ليلاً، ولذلك يقيمون حرساً يقظاً في كل ليلة، لأن فقرهم لا يسمح لهم بأن يستأجروا جنوداً. والأراضي المجاورة حجرية هزيلة لا ينبت فيها سوى القليل من الشعير والدخن، ويرتدي السكان لباساً مزرياً وهم خشنون لا تربية لهم.

مدينة هُنَيْن

هنين مدينة صغيرة قديمة بناها الأفارقة، وهي أنيقة صينة للغاية. لها ميناء صغير محروس ببرجين، كل واحد منهما في جهة. وتحيط بها أسوار عالية متينة، لا سيما من جهة البحر. وتأتي إلى هذا الميناء سنوياً سفن شراعية من البندقية تحقق أرباحاً جسيمة مع تجار تلمسان، إذ لا يفصل بين هذه المدينة وهنين سوى أربعة عشر ميلاً[20]. ولما احتل المسيحيون وهران لم يعد البنادقة يقصدونها لكونها مليئة بالجنود الاسبان، فطلب منهم أهل تلمسان أن يأتوا إلى هنين. وكان سكان هنين في القديم نبلاء شرفاء يعملون كلهم تقريباً في القطن والمنسوجات. ودورهم في غاية الجمال والزخرفة، لكل دار بئر من الماء العذب، وفناء مغروس بكرم معروش، أرضها مبلطة بالزليج الملون، وسطوح الحجرات مزينة بنفس الزليج، والجدران مكسوة كلها بالفسيفساء الفنية. لكن عندما بلغ السكان خبر احتلال وهران تركوا جميعاً المدينة فأصبحت خاوية على عروشها، إلا ما كان من ملك تلمسان الذي يرسل إليها أمير قصر يقيم بالقلعة مع المشاة لا لغرض إلا ليخبر الملك بوصول السفن التجارية.

وتنتج الممتلكات المجاورة لهنين حتى الآن كميات وافرة من الثمار،

---

(19) جبل زندل لا يتعدى ارتفاعه 613 متراً.

(20) بل 34 ميلاً.

كالكرز والمشمش والتفاح والاجاص والخوخ وما لا يحصى من التين والزيتون. لكن لا يوجد من يقطفها في البساتين الواقعة على ضفة النهر القريب من المدينة حيث أقيمت الطاحونات. ولما مررت من هناك تألمت جداً للحالة البائسة التي صارت إليها المدينة. كنت مع أحد كتاب ملك تلمسان جاء لاستلام ضرائب من سفينة جنوية حملت من البضائع ما يمُوِّن تلمسان لمدة خمس سنوات. وبلغت قيمة الرسوم التي قبضها الملك خمسة عشر ألف مثقال ذهباً مسكوكاً أرانيها الكاتب.

أَرْشْكُولْ

أرشكول مدينة كبيرة قديمة بناها الأفارقة على صخرة يحيط بها البحر من كل جانب، ما عدا الجنوب حيث يوجد طريق ينزل من الصخر إلى اليابسة. وهي واقعة على بعد نحو أربعة عشر[21] ميلاً من تلمسان. كانت مدينة في غاية العمران والحضارة، دار إمارة إدريس[22] عم إدريس مؤسس مدينة فاس فبايعه الشعب واحتفظ أبناؤه بالحكم فيها مدة مائة سنة، إلى أن جاء أحد ملوك القيروان وخلفائها فدمر المدينة، وبقيت خالية من السكان زهاء مائة وعشرين عاماً. إلى أن أعاد بناءها قوم جاؤوا من مملكة الأندلس مع جيش المنصور (بن أبي عامر) حاجب ملك قرطبة. وقد أصلحها المنصور لما عسى أن يستفيد منها إذا أرسل جنوده إلى إفريقيا، لكن قبائل صنهاجة ومغراوة بعد أن مات المنصور وابنه المظفر، طردوا جميع جنود الأندلس أو قتلوهم ثم خربت المدينة مرات أخرى كما حدث في عام 410 للهجرة[23].

---

(21) بل 34 ميلاً.

(22) بل سليمان بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

(23) كانت أرشكول في القرن الثالث هـ/ القرن التاسع م. أهمَّ مدن الساحل بين نكور وتنس، في حين لم تكن وهران قد رأت النور بعد. وكانت واقعة في أحد منعرجات وادي تفنة، ربما قرب أنقاض سيكّة المعروفة اليوم باسم تكمبريت والتي كانت إحدى =

تلمسان المدينة الكبرى

تلمسان مدينة كبيرة، وهي عاصمة المملكة. لم يذكر التاريخ مؤسسها[24] وكل ما يقال انها كانت مدينة صغيرة بدأت تمتد إثر تخريب أرشكول، وخصوصاً بعد طرد جنود المنصور (بن أبي عامر) من المنطقة. وقد توسعت أيام بني عبد الواد حتى أصبح فيها ستة عشر ألف كانون على عهد الملك أبي تاشفين[25] وبلغت حقاً درجة عالية من الازدهار.

لكن تلمسان تضررت كثيراً من جراء الحصار المضروب عليها من طرف (أبي يعقوب) يوسف ثاني ملوك بني مرين، الذي بنى مدينة أخرى

= حواضر المملكة الكبيرة لبربر مسيسيل. ولم يكن يستطيع الوصول إليها سوى السفن الصغيرة، وكان ميناؤها في أحد جوينات الجزيرة المعروفة اليوم باسم رشكون. وهناك التقى عرضاً، عام 206ق.م. قائد جيش الرومان بوبلوس سيبيون مع خصمه القائد القرطاجني أسدروبال، وأقاما معاً ضيفين عند الملك سيفاكس (سوفاك). وبعد أن أسس إدريس بن عبد الله بقليل أول إمارة علوية مغربية في وليلي أواخر القرن الثامن م. استقر أخوه سليمان بتلمسان «فملكها كلها وأذعنت له زناتة وسائر قبائل البربر هناك، وورث ملكه ابنه محمد بن سليمان على سننه، ثم افترق بنوه على ثغور المغرب الأوسط... وكانت أرشكول لعيسى بن محمد بن سليمان ثم لابنه عيسى المكنى أبا العيش»، وبقي أحفاد سليمان يتوارثون إمارة أرشكول وغيرها من ثغور وحواضر المغرب الأوسط إلى أواسط القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، حيث تغلب عليهم عملاء الفاطميين والمروانيين من المغراويين وبني يفرن، مثلما حدث لابناء عمومتهم الأدارسة ملوك المغرب الأقصى. انظر ابن خلدون **تاريخ العبر**، 4:34-36.

(24) تلمسان صيغة جمع بالبربرية لكلمة تلمسي التي تعني المكان الذي يستقر فيه الماء. وذكر المعلقون في الترجمة الفرنسية أن تلمسان كانت تدعى أيام الرومان «بوماريا» أي الحدائق. وعند أحمد توفيق المدني في كتاب **الجزائر** (ص 201-205) أن أصل تلمسان قريتان «أدغادير» التي أسسها المولى إدريس الأكبر على أنقاض معسكر روماني «وتاقرارت» التي أسسها ملك مراكش يوسف بن تاشفين، ثم انضمت القريتان فأصبحتا تلمسان.

(25) أبو تاشفين عبد الرحمان تولى الملك من عام 718/1318 إلى أن قتل عام 737/1337

شرق مدينة تلمسان، ودام الحصار سبع سنوات[26] واستفحل الغلاء إلى أن بلغ ثمن كيل (روجيو) من القمح ثلاثين مثقالاً، و«سكورزو» من الملح ثلاثة مثاقيل، ورطل اللحم ربع مثقال، فلم يطق السكان تحمل مثل هذه المجاعة واشتكوا إلى الملك، فأجابهم بأنه قابل أن يطعمهم لحمه لو كان يكفي لاعالتهم جميعاً، إذيعده بخساً بالنسبة لولائهم. فأحضر خمسة أو ستة من أعيان الشعب وأرسلهم إلى مطبخه ليشاهدوا غداءه لذلك اليوم، فكان عبارة عن مزيج من لحم حصان وحبوب شعير كاملة، وورق ليمون وأشجار أخرى ليزداد حجمه.

وهكذا علم الشعب أن ضيق عيش الملك أقوى من ضيق عيش أي مواطن. وأحضر الملك أبناءه واخوته وأحفاده وخاطبهم بكلمات مؤثرة، ثم ختم بقوله إنه مستعد أن يموت شجاعاً أمام العدو بدلاً من أن يستمر في حياة دنيئة بائسة كهذه، فما على من يأنس من نفسه مثل الشجاعة التي يأنسُها هو إلا أن يتبعه غداً، فعبر الكل عن موافقته، إلا أنه، لحسن الحظ، قتل يوسفَ المريني أحدُ خصيانه في حالة جنون، وذلك في نفس الصباح الذي تقرر فيه ذلك الخروج. فتَّ الخبر في عضد المحاصرين، وعندما انتشر في تلمسان زاد السكان جرأة وقوة وعزيمة، فخرجوا مع الملك من المدينة وأحرزوا على انتصار لم يكن من قبل في الحسبان، وقتلوا عدداً كبيراً من عدوهم الذي فر شذر مذر، وغنموا أقواتاً وكمية وافرة من الماشية اضطر العدو إلى تركها. وهكذا تحولت مجاعة الأمس إلى رخاء عظيم، حتى إن كيل «السكورسو» من القمح الذي كان يساوي صباحاً ثلاثة مثاقيل

---

(26) نزل أبويعقوب في جيوشه لحصار تلمسان يوم ثاني شعبان عام 5/698 ماي 1299 وأقام في حصارها مائة شهر.

ولما دخلت سنة 1302/702 اختط قصراً لسكناه ومسجداً للصلاة، وأمر الناس بالبناء حول ذلك، فبنوا الدور والقصور إلخ، وسمى هذه المدينة المنصورة. انظر وصفها وتفاصيل حصار تلمسان عند أحمد الناصري، **الاستقصا**، 3:79-80.

انخفض زوالاً إلى «بيوتشيين»[27]، ورغم ذلك فقد تألم كثيراً كل واحد من طول الحصار الذي فُرِضَ عليه.

وبعد مرور أربعين عاماً، جاء أبو الحسن، رابع الملوك المرينيين بمدينة فاس، فشيد مدينة على ميلين غربي تلمسان وحاصر تلمسان بجيش كثير، ودام الحصار ثلاثين شهراً، وكانت الهجومات تحدث يومياً ويقام كل ليلة معقل يُؤَمِّنُ زحف المقاتلين حتى أسفل الأسوار. ودخل ملك فاس إلى تلمسان عنوة ونهبها، ثم حمل ملكها أسيراً إلى فاس فضرب عنقه وأمر برمي جثته في مزبلة المدينة[28]. غير أنه أصلح ما أصيب به أهل تلمسان، وتوجه إلى مملكة تونس بعد أن ترك ابنه أبا عنان خليفة له على مملكة تلمسان فكانت هذه ثانية كارثة حاقت بمدينة تلمسان[29].

ولما ضعفت شوكة بني مرين، تكاثر سكان تلمسان من جديد، حتى بلغ عدد دورها المسكونة ثلاثة عشر ألف دار.

وجميع الصنائع والتجارات بتلمسان موزعة على مختلف الساحات والأزقة ــ كما ذكرنا ذلك بالنسبة لفاس ــ لكن دور تلمسان أقل قيمة بكثير من دور فاس. وتوجد بتلمسان مساجد عديدة جميلة صينة، لها أئمة وخطباء، وخمس مدارس حسنة، جيدة البناء مزدانة بالفسيفساء وغيرها من الأعمال الفنية، شيد بعضها ملوك تلمسان وبعضها ملوك فاس. وبها

---

(27) بيوتشي (Baiocchi) عملة إيطالية قيمتها نحو 7 سنتيمات ذهب.

(28) خرج أبو الحسن من فاس في أواسط عام 735 هـ يجر الشوك والمدر لحصار تلمسان، فأحيامعالم المنصورة التي اختطها عمه يوسف، فكان أبو الحسن يصبح المقاتلة كل يوم ويطوف على البلد من جميع جهاته للتفقد، واتصل حصار تلمسان ثلاث سنوات إلى أن اقتحمها عنوة أبو الحسن في 27 رمضان 737 هـ ــ 29 أبريل 1337 م. وأسر أبو تاشفين وقتل في الحين انظر الاستقصا، 3:123-126.

(29) أراد فعلاً أبو الحسن بعد فتح تلمسان، أن يقوم بزيارة لصهره أبي يحيى الحفصي ملك تونس، مخترقاً الأقاليم التي خضعت لسلطته لكنه أصيب بمرض في معسكره بسهل متيجة فاضطر إلى الرجوع إلى فاس.

كذلك عدة حمامات متفاوتة القيمة لكنها ناقصة الماء بالنسبة لحمامات فاس، وفيها فنادق على النمط الافريقي، منها اثنان لمقام تجار جنوة والبندقية، وحارة تضم نحو خمسمائة دار لليهود، كلهم تقريباً أغنياء، يضعون على رأسهم عمامات صفراء، لكنهم لم يبقوا أغنياء إلّا فترة من الزمان، إذ نهبت أموالهم بعد موت الملك أبي عبد الله عام 923 هـ، فأصبحوا اليوم يكادون يتكففون الناس.

وفي المدينة عدة سقايات، لكن العيون توجد خارج المدينة، بحيث إن العدو يمكنه أن يقطع الماء عنها بدون صعوبة. والأسوار في غاية الارتفاع والقوة، فتحت فيها خمسة أبواب واسعة جداً، مصاريعها مصفحة بالحديد، وقد أقيمت في جوفها حجيرات يقيم فيها موظفون وحراس ومكاسون. والقصر الملكي الواقع جنوب المدينة محاط بأسوار مرتفعة إلى حد كبير، على شكل قلعة، ويضم قصوراً أخرى صغيرة ببساتينها وسقاياتها، وكلها مبنية بكامل العناية وبأسلوب فني رائع. للقصر الملكي بابان، يفضي أحدهما إلى البادية تجاه الجبل، والآخر إلى قلب المدينة حيث يقيم رئيس الحرس. وفي خارج تلمسان ممتلكات هائلة فيها دور جميلة للغاية ينعم المدنيون بسكناها في الصيف، حيث الكروم المعروشة الممتازة تنتج أعناباً من كل لون، طيبة المذاق جداً، وأنواع الكرز الكثيرة التي لم أر لها مثيلاً في جهة أخرى، والتين الشديد الحلاوة، وهو أسود غليظ طويل جداً، يجفف ليؤكل في الشتاء والخوخ والجوز واللوز والبطيخ والخيار وغيرها من الفواكه المختلفة. وعلى بعد نحو ثلاثة أميال شرق المدينة ترى عدة أرحية لطحن القمح على نهر يدعى سفسف، وترى أخرى قرب المدينة على منحدرات رأس القلعة إلى جهة الجنوب.

ولنرجع إلى المدينة، حيث يوجد بها قضاة ومحامون وعدد كبير من العدول يتدخلون في الدعاوي، وكثير من الطلبة والأساتذة في مختلف

المواد، سواء في الشريعة أو العلوم الطبيعية، وتتكفل المدارس الخمس بمعاشهم بكيفية منتظمة.

وينقسم جميع أهل تلمسان إلى أربع طبقات: الصناع والتجار والطلبة والجنود. فالتجار أناس منصفون مخلصون جداً وأمناء في تجارتهم، يحرصون على أن تكون مدينتهم مزودة بالمؤن على أحسن وجه. أهم أسفارهم التجارية هو الذي يقومون به إلى بلاد السودان، وهم وافرو الغنى أملاكاً ونقوداً. والصناع أناس أقوياء يعيشون في هناء ومتعة، ويحبون التمتع بالحياة. أما جنود الملك فكلهم أناس ممتازون يتقاضون أجرة ملائمة للغاية إلى حد أَن أقلهم رتبة ينال شهرياً ثلاثة مثاقيل بسكتهم، تعادل ثلاث «دوكات» ونصف «دوكة» ايطالية؛ وهذه الأجرة للرجل وللفرس، كأن كل جندي افريقي مفروض أن يكون فارساً محارباً. والطلبة أفقر الناس لِأنهّم يعيشون عيشة بئيسة في مدارسهم، لكن عندما يرتقون إلى درجة فقهاء يعين كل واحد منهم أستاذاً أو عدلاً أو إماماً. ويرتدي التجار الحضريون لباساً جميلاً يكون أحسن أحياناً من لباس أهل فاس، لأنهم حقاً أكثر أناقة وسخاء، وكذلك الصناع، إِلّا أنهم يرتدون لباساً قصيراً، والقليل منهم يتعمم، ويكتفون بوضع قلنسوة بدون ثنايا على رأسهم، وينتعلون نعالاً تعلو حتى نصف الساق. وأسوأ لباس هو الذي يتخذه الجنود، إذ يضعون على ظهرهم قميصاً واسعاً عريض الكمين يغطونه بكساء كبير جداً من قماش القطن يلتفون فيه شتاء وصيفاً. حقاً إنهم يرتدون في الشتاء سترة من الجلد مصنوعة على نمط ذلك القميص من الكتان غير محشوة، ويضع العسكريون الأرقى درجة فوق القميص كساء آخر من الجوخ، وفوقه معطف على نمط المعاطف التي كانت تستعمل قديماً في ايطاليا للأسفار، يغطون به رأسهم عند نزول المطر. ويلبس الطلبة ثياباً مناسبة لوضعيتهم: فالجبلي يلبس لباس أهل الجبل، والأعـرابي لباس الأعراب. أما الأساتذة والقضاة والأئمة وغيرهم من الموظفين فلباسهم أحسن.

عادات حاشية الملك ومصالحها

يتّبع ملك تلمسان مراسم شديدة، فلا يظهر إلاّ للعظماء ولكبار الشخصيات من رجال حاشيته، ولا يستقبل إلاَّ هؤلاء وحدهم. وهم الذين ينجزون القضايا حسب النظام المقرر. وفي هذا البلاط مناصب ومهام عديدة، فالشخصية الأولى هو نائب الملك المزوار الذي يحدد الأجور حسب قدر كل واحد واستحقاقه، ويرأس الجيوش ويقودها أحياناً ضد العدو فتخضع له مثلما تخضع للملك.

والشخصية الثانية هو كبير الكتاب الذي يحرر الرسائل والأجوبة باسم الملك.

والشخصية الثالثة هو أمين بيت المال الذي يقبض مبلغ المداخيل الملكية ويحفظها.

والشخصية الرابعة هو صاحب النفقات الذي يوقع الحوالات على بيت المال حتى يتمكن موظفو القصر الملكي من مجابهة حاجيات القصر والاصطبلات.

والشخصية الخامسة هو قائد الباب المكلف بحراسة القصر والملك عندما يستقبل الناس.

وهناك وظائف أخرى أقل أهمية، مثل قائد الاصطبلات، وقائد السيافين، والحاجب الأعظم الذي لا عمل له إلاّ عندما يستقبل الملك أحداً. ويخدم الملك داخل القصر جاريات مسيحيات وعدد كبير من الخصيان الساهرين على الحريم.

ولباس الملك جميل لائق، والجواد الذي يركبه رائع مسروج بفخامة. واذا امتطى الملك صهوة جواده لم يكن هناك عادةً كبير احتفال لأنه لا يملك سوى ألف فارس. لكن في وقت الحرب عندما يزحف ضد العدو فإنه

يجمع الأعراب والفلاحين من مختلف القبائل ويؤجرهم مدة العمليات العسكرية. ولا يصحب معه عندما يتجول في البلاد، كبير موكب ولا معدات فخمة لإقامة المعسكر، وانما يلبس ويقيم كمجرد قائد، ولا ينفق إلّا القليل بالرغم من العدد الكثير من الجنود في حرسه.

ويسك الملك نقوداً من الذهب الرديء كالدنانير التي تسمى في ايطاليا بسلاتشي[30] غير أن القطعة الواحدة منها تساوي ديناراً وربعاً ايطالياً لكونها كبيرة جداً. ويسك أيضاً نقوداً فضية غير خالصة، وأخرى نحاسية متفاوتة القيمة والنوع.

تنتج البلاد قليلاً، ولا يسكنها إلّا القليل من الناس، لكن لما كانت تشكل مرحلة بين أوربا وبلاد السود فإن الملك يستفيد أموالاً كثيرة من دخول البضائع وخروجها، لا سيما منذ أن احتل المسيحيون وهران. وفي ذلك العهد ارتأى الملك أن يفرض ضرائب ورسوماً تجارية على تلمسان، وكانت معفاة منها أيام الملوك السابقين، الشيء الذي أثار كراهة السكان له. ولما أَصَرَّ ابنُه الذي خلفه على الإبقاء على هذه الضرائب طردوه من تلمسان، وباء بالخذلان. واضطر لاسترجاع ملكه إلى التذلّل للامبراطور شارل الذي أعاده ــ كما ذكرنا ــ إلى عرشه. وكانت هذه المملكة تحقق مردوداً يبلغ ثلاثمائة ألف وحتى أربعمائة ألف دينار طوال العديد من السنين عندما كانت وهران تابعة لها، لكن نحو نصف هذا المبلغ كان ينفق على الأعراب وحراس المملكة، والباقي لأجور الجند والقادة وكبار موظفي الحاشية. وكان الملك هو أيضاً ينفق على قصره وعلى ما يتطلبه تمثيله، لأنه كان كريماً مضيافاً إلى حد كبير. وقد أقمت بحاشيته شهوراً أثناء إقاماتي

(30) أي الخفيفة.

المختلفة بتلمسان، وأترك جانباً عدة تفاصيل متعلقة بعادات هذه الحاشية ومراسمها، لأنها شبيهة بما وصفته في حاشية فاس، حتى لا يملّ القارئ من طول الوصف.

مدينة العُبَّاد

العُبَّاد[31] مدينة صغيرة شبه ربض، تقع في الجبل على بُعد نحو ميل جنوب تلمسان. وهي كثيرة الازدهار وافرة السكان والصناع، ومعظمهم من الصباغين، وبها دفن ولي كبير، ذو صيت شهير، يوجد ضريحه في مسجد يصل الزائر إليه بعد نزول سلّم من عدة درجات، ويعظم أهل تلمسان والبلاد المجاورة لها هذا الولي كثيراً ويستغيثون به ويتصدقون عنده كثيراً لوجه الله، ويسمى سيدي مدين[32]. وهناك أيضاً مدرسة جميلة جداً، وفندق لايواء الغرباء أَسَّسهما بعض ملوك فاس من بني مرين، حسبما يقرأ ذلك في الرخامتين المنقوش عليهما أسماؤهم.

تَفِسْرَة

مدينة صغيرة تقع في سهل على بعد نحو خمسة عشر ميلاً من تلمسان، فيها حدادون كثيرون لأنه توجد بقربها عدة مناجم للحديد، والأراضي المجاورة لها جيدة لزراعة القمح. وأهل تفسرة قليلو المجاملة، إذ لا يشتغلون بغير خدمة الحديد ونقله إلى تلمسان.

---

(31) يطلق عليها اليوم إسم دفينها الشيخ «أبي مدين».

(32) أبو مدين شعيب بن الحسن الغوث، ولد بأشبيلية، وعاش في فاس، ثم انتقل إلى بجاية فتلمسان حيث توفي عام 1198/594.

تِسَّلَة

تِسَّلَة مدينة عريقة في القدم، بناها الأفارقة في سهل كبير يمتد على مسافة نحو عشرين ميلاً[33] وينبت قمحاً جيداً جميل اللون غليظ الحب، يمكنه وحده أن يزود تلمسان بما تحتاجه من حبوب. ويعيش أهل تسلة تحت الخيام، لأن المدينة خربت، لكن ما زال السهل يحمل اسمها، ويؤدون هم أيضاً خراجاً مرتفعاً إلى الملك.

(33) هو سهل سيدي بلعباس. لكن يبدو أن قرية تسلة الحالية الواقعة شمال شرق سيدي بلعباس في سفح جبل تسلة ليست في موقع المدينة القديمة، وآثار الرومان متعددة في المنطقة.

إقليم بني راشد

يمتد هذا الإقليم على طول نحو خمسين ميلاً من الشرق إلى الغرب، وعلى عرض يقرب من خمسة وعشرين ميلاً، جهته الواقعة جنوباً كلها سهول، والواقعة شمالاً كلها تقريباً مرتفعات، لكن أراضيهما معاً صالحة للزراعة. وينقسم السكان كذلك قسمين، فأهل هذه المرتفعات يسكنون دوراً لائقة جداً مبنية بجدران، ويزرعون الحقول والكروم، ويشتغلون بسائر ضروريات المعيشة؛ وسكان السهول، وهم أشرف بكثير، يقيمون في البادية ويعيشون تحت الخيام معتنين بماشيتهم، ولهم عدد وافر من الجمال والخيل، وهم أثرياء جداً يؤدون بعض الإتاوات إلى ملك تلمسان.

لأهل المرتفعات قرى عديدة، أهمها اثنتان:

الأولى تدعى قلعة هَوَّارة[34] وتشتمل على نحو أربعين داراً للصناع والتجار، وهي مبنية على شكل قلعة في منحدر جبل بين الشعاب.

وتسمى الثانية الُمَعَسْكَر، وبها يقيم خليفة الملك مع فرسانه، يُعقد فيها سوق كل يوم خميس يباع فيه عدد وافر من الماشية والحبوب والزيت والعسل، وكثير من منسوجات البلاد وأشياء أخرى أقل قيمة، كالحبال

(34) هي قلعة بني راشد في أيامنا هذه الواقعة على بعد 20 كلم جنوب محطة السكة الحديدية لهلّيل.

والسروج والأعنة وحاجيات الخيل. ولما كنت في هذه الناحية اتفق أن ذهبت إلى هذا السوق لشراء بعض ضروريات السفر الذي كنت أقوم به إذ ذاك إلى تونس. وصلت إليه ممتطياً فرسي وأول ما اشتريته حبال خيام. وبعد أن فرغت من شرائي وضعت رجلي اليسرى على عنق الفرس حتى أستطيع تعداد مالي على ركبتي وأطلقت العنان والتفت لأؤدي ثمن ما اشتريت، ثم استقمت ووضعت الرجل في الركاب. لكنني لم أجد العنان عندما أردت إمساكه، فنظرت هنا وهناك ثم ناديت الخادم ليقود مطيتي إلى المنزل، واذا بسيافين من خدام الملك أتيا وقالا لي: يا سيدي، لقد سَرَقَ عنانَك بغّالان للخليفة لم يدريا أنك ضيفنا، فرأيناه وأخذناه منهما بالقوة فانظر هل سرقا لك شيئاً آخر! وبعد ذلك اشتريت كل ما كنت محتاجاً إليه وعدت إلى المنزل، وقد حكيت هذه القصة لنائب الملك أثناء تناولنا الغداء، فقهقه ضاحكاً وقال: لا تستغرب إذا ما قلت لك إننا نعاني كثيراً لنجد أناساً يعملون كبغالين، لأنها مهنة وضيعة وشاقة، بالإضافة إلى الأجرة التافهة التي ندفعها لهم والتي لا تكفيهم قطعاً. فسواء ربحوا كثيراً أو قليلاً جداً، وسواء استأجرتهم أنا أو استأجرهم غيري، فانهم يسرقون دائماً، لأن كافة البغالين ببلادنا تعودوا على ذلك منذ طفولتهم. فنتركهم يسرقون وتعساً لمن لا يحترس منهم!

يقدم هذا الإقليم لملك تلمسان زهاء خمسة وعشرين ألف مثقال، ويمده بنفس العدد من المقاتلين بين راجلين وراكبين.

مدينة البطحاء

كانت البطحاء مدينة كبيرة متحضرة جداً وآهلة بالسكان، بناها الأفارقة في عصر قريب(35) في سهل فسيح ينبت فيه القمح بكثرة، وكانت

(35) كانت البطحاء قائمة عام 1119/513 عندما نزل بها محمد بن تومرت في طريق عودته من المشرق، واستضافه أحد كرمائها هو وطائفة من أتباعه، ومنهم عبد المؤمن بن علي. وأقام ابن تومرت وصحبه في البطحاء ثلاثة أيام قبل أن يتابعوا سفرهم إلى فاس =

تحقق لملك تلمسان دخلاً يقدر بعشرين ألف مثقال، لكنها خربت أثناء الحروب التي استعرت بين ملوك تلمسان وبعض أقاربهم من سكان جبل ونشريس[36] ولما كان هؤلاء معززين من طرف ملك فاس فإنهم احتلوا رقعة كبيرة من مدينة تلمسان ودمروا البلدان التي لم يتمكنوا من أخذها وأحرقوها ونتج عن ذلك أنه لا يرى اليوم من البطحاء سوى أسس جدران. ويجري قرب موقعها القديم نهر صغير[37] قليل الأهمية كانت على ضفافه بساتين وحقول في غاية الخصب.

وظل السهل خالياً تماماً من السكان إلى أن جاء أحد النساك على طريقة أهل البلاد، فأقام به مع عدد من أتباعه الذين يرون فيه ولياً صالحاً. فأمر هذا الرجل بحرث الأراضي، وتكاثر بقره وخيله وغنمه إلى حد أن أصبح هو نفسه لا يعرف عدد رؤوس تلك الماشية، إذ لا يؤدي هو ولا ذووه أية إتاوة للملك ولا للأعراب، لأنه كما قلت يعد من الأولياء. وقد أخبرني كثير من أتباعه أن عشر أراضيه يصل إلى 8.000 كيل (رودجي) من القمح في السنة، وان له زهاء خمسمائة من الخيل ذكوراً وإناثاً، وعشرة

= فمراكش. ولما آل ملك الموحدين إلى عبد المومن وسع البطحاء وعمرها عند عودته من غزو افريقية. ويجهل الآن موقع البطحاء، لكن أغلب الظن أنها كانت تقع على الطريق الكبرى المؤدية من تلمسان إلى عاصمة الجزائر على الضفة اليسرى لواد مني قرب إغِيلْ إزَّان (ربوة الذئاب) التي أخذ منها اسم مدينة غليزان المشيدة في سفح هذه الربوة. وهناك قرب الطريق والسكة الحديدية آثار كانت تعتبر رومانية، لكنها قد تكون من أطلال البطحاء.

(36) كان بنو توجين الزناتيون يحتلون مرتفعات ونشريس والجبل حتى المدينة، وبعد أن وقفوا بجانب بني عبد الواد عند قيام دولة الموحدين، قلبوا لهم ظهر المجن وأصبحوا خصوماً لهم، بل وحلفاء لبني مرين ملوك المغرب. وربما كان خراب البطحاء في أوائل القرن الهجري الثامن / 14م بعد استيلاء أبي الحسن المريني على مملكة تلمسان، وانقراض الدولة الأولى لبني زيان. وظل مع ذلك اسم البطحاء يذكر إلى أواخر هذا القرن. انظر أحمد الناصري، **الاستقصا**، 94:2، و124:3 وما بعدها.

(37) هو واد مينى.

آلاف من الغنم، وألفين من البقر، وانه يتوصل سنوياً من مختلف الجهات بمبلغ يتراوح بين أربعة آلاف وخمسة آلاف مثقال نذوراً وصدقات من أناس مختلفين، لأنَّ صيته انتشر في آسيا وافريقيا بأكملها. وتزايد عدد مريديه إلى حد أن الذين يعيشون منهم معه يبلغ عددهم حوالي خمسمائة مريد، وبذلك أخذ يتقاطر عليه جمهور غفير من الناس، يطعمهم جميعاً، ولكنهم يساعدونه في أشغال الزاوية. وينتشر أتباعه في العالم الإسلامي كله، لا يفرض عليهم أية فريضة غير الصلوات العادية، لكنه يعلمهم بعض أسماء الله الحسنى ويوصيهم بذكرها في أورادهم عدة مرات في اليوم، وإذا ما تم تعليمهم عادوا إلى مواطنهم. يملك هذا الشيخ مائة خيمة، بعضها مخصص لإيواء الغرباء، وبعضها لرعاته، والبعض الآخر لعائلته. ولهذا الناسك الطيب الفقيه أربع زوجات وعدة إماء أنجبن له أولاداً ذكوراً وإناثاً، يرتدون جميعاً لباساً أنيقاً جداً. وقد تزوج الأبناء وأنجبوا كذلك أطفالاً، فأصبح بيت الشيخ وبيوت أبنائه تضمّ أكثر من مائة وخمسين نسمة يعولهم جميعاً.

يعظم الأعراب هذا الرجل ويقدرونه إلى حد أن الملك أصبح يخشاه، ورغبت في التعرف عليه فأقمت عنده ثلاثة أيام كاملة، كنت أخلو به كل ليلة وأتناول معه طعام العشاء في حجرة خاصة. ومن الأشياء التي أطلعني عليها بعض الكتب الخاصة بالسحر والكيمياء، محاولاً أن يبرهن لي على أن السحر علم لدرجة أني جعلت أتهمه بأنه ساحر، وذلك لأني رأيت الناس يبالغون في تقديسه وتعظيمه دون أن يفعل أو يقول أو يخترع شيئاً آخر غير ما وصفته من دعاء الله بأسمائه الحسنى[38].

---

(38) ذكر مارمول أن اسم هذا الشيخ سيدي سينا، وأن أراضيه كانت تسمى سهول سينا، وأن المجرى الأسفل لواد مينى كان يسمى واد سينا. ولم يبق اليوم أثر لهذا الشيخ ولا لطريقته.

مدينة وهران

وهران مدينة كبيرة فيها ستة آلاف كانون، بناها الأفارقة الأقدمون(39) على شاطىء البحر المتوسط، بعيدة بنحو مائة وأربعين ميلاً من تلمسان. وبها من البنايات والمؤسسات ما تتميز به كل مدينة متحضرة، من مساجد ومدارس وملاجىء وحمامات وفنادق، محاطة بأسوار عالية جميلة. يقع جزء من المدينة في السهل، والجزء الآخر في جبل شديد الارتفاع، وكان معظم سكانها من الصناع والحاكة، ويعيش الكثير من أهلها من مدخولهم، لكنها لم يسد فيها الرخاء، إذ لم يكن يؤكل فيها سوى خبز الشعير. ومهما يكن من أمر فان أهلها ظرفاء كرماء يحبون الغرباء.

كانت وهران مهبط التجار القطلونيين والجنويين، وما زالت بها الآن دار تسمى دار الجنويين لأنهم كانوا يقيمون بها. وكان الوهرانيون دائماً أعداء لملك تلمسان، لم يقبلوا قط أي والٍ من ولاته، ما عدا أميناً للمال وقابضاً يستلم مداخيل الميناء. وكانوا ينتخبون رئيس مجلس ينظر في القضايا المدنية والجنائية، كما كان التجار فيما مضى يجهزون على الدوام سفناً شراعية وأخرى مسلحة يمارسون بها القرصنة، ويجتاحون سواحل قطلونية وجزر يابسة ومنورقة وميورقة، حتى أصبحت المدينة تزخر بالأسرى المسيحيين.

وقد أرسل فرناند ملك اسبانيا أسطولاً كبيراً إلى وهران لمحاربة أهلها وتخليص المسيحيين من مصيبة عظيمة تتكرر بدون انقطاع. فانهزم الأسطول بسبب أخطاء في العمل. ثم أعاد الملك الكرة بعد شهور، فجمع بمساعدة بعض الأساقفة وكردينال اسبانيا(40) اسطولاً أهمّ من الأول،

(39) كانت وهران قرية بربرية ضعيفة اسمها إيفري، أي الكهف، ثم وسعها الأندلسيون عام 902. انظر أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص 245 وما بعدها.

(40) هو فرنسيسكو خيمينيس.

تمكن في يوم واحد من الاستيلاء على المدينة، لأن السكان خرجوا يقاتلون بغير نظام وتركوا المدينة خالية، فعلم الاسبان بذلك وأرسلوا قسماً من جنودهم إلى الجانب الآخر من وهران، فلم يجدوا من خصومهم غير النساء وقد صعدن على الأسوار، فدخلوا المدينة بسهولة، بينما كانت المعركة على أشدها في الخارج، ثم غادروها فجأة وركبوا ظهور عدوهم. ولما أخذ المغاربة يتراجعون نحو المدينة لصدّ العدو عنها، أبصروا الرايات المسيحية ترفرف على الأسوار، ووقعوا بين الفريقين الاسبانيين، فضيقوا عليهم الخناق حتى لم ينج منهم إلاّ القليل.

وهكذا استولى الاسبانيون على وهران عام 916 للهجرة[41].

المرسى الكبير

مدينة صغيرة أسسها في عصرنا ملوك تلمسان على ساحل البحر المتوسط، بعيدة ببضعة أميال عن وهران. ومعناها الميناء الكبير، لأن هناك ميناء ما أظن أن في الدنيا أكبر منه، يمكن أن ترسو فيه بسهولة مئات المراكب والسفن الحربية، في مأمن من كل عاصفة وإعصار. وكان من عادة سفن البندقية أن تلجأ إلى المرسى الكبير عند اكفهرار الجو، وترسل بضائعها في قوارب إلى وهران، وإذا كان الجو صحواً قصدت ساحل وهران مباشرة. وقد استولى الاسبان عنوة على المرسى الكبير قبل سقوط وهران ببضعة أشهر[42].

---

(41) كان احتلال الاسبانيين لوهران يوم الجمعة 28 محرم 8/915 ماي 1509 بخيانة يهودي من المهاجرين الأندلسيين. لا كما ذكر الوزان. انظر أحمد توفيق المدني **حرب الثلاثمائة سنة**، ص 110 وما بعدها.

(42) احتُل المرسى الكبير بقيادة الدون دييڭودي قرطبة يوم 24 جمادى الأولى عام 911 هـ 23 أكتوبر 1505. انظر **حرب الثلاثمائة سنة**، ص 96-102.

مَزَغْران

مدينة صغيرة بناها الأفارقة على شاطىء البحر المتوسط، قريباً من مصب نهر الشلف في البحر(43) وهي كثيرة السكان مصونة، لكنها متعرضة كثيراً لتعسفات الأعراب، وليس لواليها إلّا قليل سلطة في الداخل، وأقل من ذلك في خارج المدينة.

مَسْتْغَانَم

مدينة بناها الأفارقة على ساحل البحر المتوسط، على بعد نحو ثلاثة أميال شرقي المدينة السابقة في الضفة الأخرى(44) وكان لها في القديم حضارة كبيرة وسكان كثيرون، لكن الأعراب يكثرون من مضايقتها منذ أن بدأت سلطة ملوك تلمسان تضعف، حتى إنها فقدت ثلثي أهلها في وقتنا الحاضر، ومع ذلك فإنها ما تزال تضم قرابة ألف وخمسمائة كانون. وفيها مسجد في غاية الحسن وصناع كثيرون ينسجون الأقمشة، ودورها جميلة، وسقاياتها عديدة، يخترقها جدول ماء(45) يحرك الطاحونات. وفي خارجها عدة بساتين جميلة، لكن معظمها مهجور. وجميع الأراضي المحيطة بها جيدة للفلاحة وخصبة. لها ميناء صغير كثيراً ما تقصده السفن الأوربية، لكن أصحابها لا يحققون أرباحاً مهمة لشدة فقر السكان.

بْرِيشْك

بريشك مدينة قديمة بناها الرومان على ساحل البحر المتوسط، بعيدة عن المدينة السابقة بعدة أميال(46) يسكنها أناس كثيرون خشنون، ويشتغل

---

(43) الواقع أن مزكران توجد على بعد كيلومترين شرق الساحل، و18 كلم جنوب مصب شلف.

(44) بل على بعد 4 كلم شمال مزكران، و14 كلم جنوب مصب الشلف.

(45) هو جدول العين الصفراء.

(46) لم يبق لبريشك أثر، وهدم سورها زلزال عام 1531. وكان عدد سكانها حتى 1533 يبلغ السبعمائة.

معظمهم بحياكة الأقمشة. إنهم أخفاء وأقوياء كالأسود، اعتاد كل واحد منهم أن يرسم بالوشم صليباً أسود على خديه ويديه في كفه تحت الأصابع، ويحتفظ بهذه العادة جميع الجبليين بـالجزائـر العاصمـة وبجايـة. يقول المؤرخون الأفارقة إن عدداً لا يحصى من البلدان والشواطئ والجبال كانت خاضعة للقوط[47] وإنَّ كثيراً من المغاربة تنصروا، وقد أمر ملوك القوط ألا يجبى أي خراج من المتنصِّرين، فكانوا كلهم إبان أداء الخراج يدَّعون أنهم مسيحيون. ولما كان القوط يجهلون لغة البلاد وعاداتها، ولا يتمكنون من التمييز بين المتنصرين ومدعي التنصر فإنهم أمروا المسيحيين بالوشم بهـذه الصلبان. وعندما فقد القوط نفوذهم، عاد الكل إلى الدين الإسلامي، غير أن هذه العادة بقيت عبر العصور دون أن يدرك الكثير سببها. ومن عادات الموريطانيين، سواء منهم السادة والسوقـة، وشم صليب على خدهم برأس سكين، على نحو ما يفعله بعض الأشخاص بأوربـا.

تكثر الخيرات في بريشك لا سيما التين، وتنتج البادية الجميلة من حـولها كثيـراً من الكتان والشعـير، وأهـل بـريشـك حلفـاء الجبليـين المجاورين[48] وأصدقاؤهم، وبذلك تمكنت المدينة من الدفاع عن نفسها طوال مائة سنة والتحرر من كل خراج، إلى أن جاء التركي بربروس فأثقل كاهلها بالإتاوات.

ينقل كثير من أهل بريشك التين والكتان بحراً إلى الجزائر العاصمة وبجاية وتونس، ويستفيدون من ذلك ربحاً حسناً.

ومـا زال في المدينـة كثير من آثـار عمارات الـرومان وأبنيتهم، وبأنقاضها بنيت الأسوار[49].

---

(47) يعني الوندال.

(48) هم زاتيمة فرع من فروع زناتة.

(49) لم يبق إلّا هذه الآثار التي أتلفها البحر كثيراً.

مدينة شَرْشَال

هي مدينة كبيرة جداً وأزلية، شيَّدهـا الرومان كذلك على ساحل البحر المتوسط[50] وكانت دائرتها في القديم تكاد تبلغ ثمانية أميال، وهو طول سورها الشاهق المبني بأحجار ضخمة منحوتة. ويظهر منها قرب البحر مسجد كبير عال جداً ما زال محرابه قائمًا إلى الآن، وكله مكسو بالمرمر من الداخل. وكان هناك فيما مضى من الزمن قلعة عظيمة قائمة على صخرة يراقب منها البحر على مسافة بعيدة. ويحيط بهذه المدينة أراض فلاحية جميلة جيدة، وكان جزء منها كثير السكان أيام المسلمين، رغم ما تعرضت له من تخريب شديد على يد القوط (الوندال)، وذلك طوال مدة تقرب من خمسمائة عام، ثم هجرت أثناء الحروب القائمـة بين ملوك تلمسان وملوك تونس، وبقيت خالية من السكان زهاء ثلاثمائة سنة حتى سقوط غرناطة في أيدي المسيحيين، فقصدها الغرناطيون إذ ذاك وأعادوا بناء عدد مهم من دورها، وجددوا القلعة ووزعوا الأراضي بينهم، ثم صنعوا كثيراً من السفن للملاحة، واشتغلوا بصناعة الحرير، إذ وجدوا هنالـك كمية لا تحصى من أشجار التوت الأبيض والأسود. فعاشوا في رخاء دائم حتى أصبحوا يسكنون في مائتـين وألف بيت، ولم يخضعوا إلّا لبربروس الذي لم يؤدُّوا له مع ذلك خراجاً سنوياً أكثر من ثلاثمائة مثقال.

مَلْيَانَة

مدينة كبيرة جداً وقديمة، بناها الرومان وأطلقوا عليها اسم ماكْنانة، لكن العرب حرّفوا هذا الاسم[51].

---

(50) أصلها مدينة فينيقية كانت تسمى أيول، ثم استقر الملك المغربي يوبا الثاني فوسّعها وزخرفها ودعاها القيصرية، وقد خربها الوندال ثم أحياها العرب المسلمون، خاصة المهاجرون الأندلسيون. انظر: أحمد توفيق المدني، ص 22.

(51) ذكر أحمد توفيق المدني في كتاب الجزائر، ص 240 أن مليانة من تأسيس الملك الصنهاجي بلقين بن مناد في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي.

تقع هذه المدينة في قنةجبل[52] على بعد نحو أربعين ميلاً من البحر، اي عن شرشال. وهذا الجبل مليء بالعيون ومكسوّ بأشجار الجوز، حتى إن الجوز هنالك لا يشترى ولا يقتطف. والمدينة محاطة بأسوار عالية عتيقة، والصخرة تشرف من جهة على شعب سحيق[53] ومن جهة أخرى على منحدر يبدأ من أعلى الجبل ويُذكّر بمدينة نارني القريبة من روما. ولمليانة دور متقنة الصنع، في داخلها كلها سقايات جميلة. يكاد يكون سكانها كلهم صناعاً، نساجين أو خراطين، ويصنع هؤلاء أواني من خشب في غاية الحسن، ويشتغل كثير من السكان كذلك بالفلاحة.

وقد عاشوا كلهم أحراراً حتى جاء بربروس فأخضعهم وفرض عليهم الضرائب.

تَنَس

مدينة أزلية بناها الأفارقة في منحدر جبل على مسافة قريبة من البحر المتوسط[54] يحيط بها سور، وسكانها أقوام فِظاظ غِلاظ. وقد كانت دائماً خاضعة لملك تلمسان، لكن الملك محمداً جدّ الملك الحالي[55] خلّف ثلاثة أبناء، أكبرهم عبد الله، وثانيهم أبو زيان، وثالثهم يحيى. فآل الحكم إلى الأول بعد وفاة أبيه، وتآمر الآخران مع بعض الشخصيات من تلمسان على اغتياله، لكن المؤامرة افتضحت فألقي القبض على أبي زيان وزجّ به في

---

(52) بل في سفح جبل زكار الغربي على ارتفاع 720 متر عن سطح البحر، بينما يبلغ ارتفاع هذا الجبل 1579 متر.

(53) يعني شعب شلف، وفي كتاب **الجزائر**: تشرف على سهول الشلف الواسعة.

(54) أصلها مستودع تجاري قرطاجني قديم، أقام الرومان مكانه مدينة (كارطيناس) ـ كارط تنس ـ ومنها جاء الاسم المتداول حتى اليوم تنس.

(55) يقصد محمداً السابع المعروف بالثابتي نسبة إلى جده أبي ثابت محمد الخامس. وقد تولى الملك عام 902 هـ/1496 إلى أن توفي عام 1503/909.

انظر: عبد الرحمان الجيلالي، **تاريخ الجزائر العام** 195:2وما بعدها.

السجن، إلا أنه أطلق سراحه بعدما طرد أبو حمو، واسترجع ملكه إلى أن قتله بربروس، كما أسلفنا ذلك. وفرَّ الأخ الثالث إلى فاس محتمياً بملكها[56] فطلبه أهل تَنَس وبايعوه ملكاً، ودام ملكه عدة سنوات. وترك المملكة بعد وفاته إلى ابنه الشاب الذي طرده أيضاً بربروس، واضطر إلى التوجه إلى اسبانيا عند جلالة الامبراطور القيصر شارل الذي لم يكن حينئذ سوى ملك اسبانيا. فوعده بالمساعدة، إلّا أنه ماطله، فتنصّر هذا الأمير هو وأخوه الأصغر، وأقاما باسبانيا يتقاضيان معاشاً مهمًا من الامبراطور. وآلت تَنَس الى أحد الأخوين التركيين بربروس (خير الدين). لا أثر للظَّرف في هذه المدينة. وأما إقليمها فينتج الكثير من القمح والعسل، ولا ينتج مما سواهما إلا القليل.

مَازُونَة

مدينة أزلية بناها الرومان ـ حسب قول بعضهم ـ على بعد نحو أربعين ميلاً من البحر. تمتد على مساحة شاسعة وتحيط بها أسوار متينة، لكن دورها قبيحة فقيرة، وفيها جامع وبعض مساجد أخرى[57]. لقد كانت مدينة متحضرة جداً في القديم، لكنها كثيراً ما تعرّضت للتخريب من قبل ملوك تونس تارة ومن قبل الثوار تارة أخرى، وبالتالي من الأعراب، حتى أصبحت اليوم قليلة السكان، وهم إما نسّاجون أو فلاحون، وجميعهم تقريباً فقراء، لأنَّ الأعراب يثقلون كواهلهم بالاتاوات. والأراضي المزروعة جيدة تعطي غلة حسنة.

ويشاهد بقرب المدينة أماكن خربة مما كان بناه الرومان. لا تحمل أي اسم معروف لدينا، لكن يدل على أصلها الروماني العدد الوافر من الكتابات المنقوشة على قطع الرخام، ولم يذكرها قط مؤرخونا الأفارقة.

---

(56) هو محمد الوطاسي المعروف بالبرتغالي.

(57) في كتاب الجزائر ص236 أنها تقع عند ضفة وادي وايزان اليسرى، وترتفع فوق ثلاث ربوات هرمية الشكل، تعْلوها قبب المساجد وثلاثة مآذن.

الجزائر

معناها الجزر، سميت بذلك لأنها مجاورة لجزر ميورقة ومنورقة واليابسة[58] لكن الاسبانيين يسمونها أَلجِي. والمدينة قديمة من بناء قبيلة إفريقية تدعى مِزْغِنَّة، فأطلق عليها القدماء هذا الاسم[59].

وهي كبيرة جداً تضم نحو أربعة آلاف كانون، أسوارها رائعة ومتينة جداً، مبنية بالحجر الضخم. فيها دور جميلة وأسواق منسقة كما يجب، لكل حرفة مكانها الخاص. وفيها كذلك عدد كثير من الفنادق والحمّامات. ويشاهد من جملة بناءاتها، جامع ممتاز في غاية الكبر على شاطىء البحر. أمامه ساحة جميلة جداً اتخذت على سور المدينة ذاته الذي تتلاطم عند أسفله أمواج البحر. ويحيط بالجزائر عدد من البساتين والأراضي المغروسة بأشجار الفواكه.

ويمر قرب المدينة من الجهة الشرقية، نهر نصبت عليه طاحونات. ويزوّد السكان بالماء للشرب ولأغراض أخرى.

في الضواحي سهول جميلة جداً، لا سيما سهل المتيجة الذي يبلغ طوله حوالي خمسة وأربعين ميلاً وعرضه ستة وثلاثين ميلاً، حيث ينبت القمح الجيد بكثرة.

---

(58) تأويل غير صحيح، بل سميت باسم جزر صخرية كانت أمام مركز الجزائر حيث كانت تقيم قبيلة بربرية تدعى بني مزغنة، فسمي المكان جزائر بني مزغنة، ثم تنوسي اسم القبيلة وبقيت جزائر.

انظر: تفصيل ذلك وتاريخ هذه المدينة وآثارها عند أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص 206 وما بعدها.

(59) كانت المدينة الرومانية تسمى أيكوسيوم.

كانت الجزائر خاضعة لتلمسان مدّة طويلة، لكنها استسلمت لملك بجاية القائم حديثاً[60] لقربها من مملكته، فانحاز أهل الجزائر إلى ملك بجاية لما أوجسوا منه خِيفَة، ولعدم قدرة ملك تلمسان على إنجادهم، فبايعوه وأدّوا إليه الخراج، لكنهم بقوا تقريباً متحررين. وبعد ذلك سلَّحوا سفناً وتحولوا إلى قراصنة، فصاروا يغيرون على جزر يابسة وميورقة ومنورقة، وحتى شواطىء اسبانيا. لذلك أرسل الملك الكاثوليكي فردناند أسطولاً عظيماً لحصار الجزائر، فشيّدوا قلعة جميلة كبيرة في جزيرة صغيرة مقابلة تماماً للمدينة وقريبة منها[61] بحيث كانت قذائف المدفعية تصل إلى اليابسة بل وتمر فوقها من سور إلى سور، فاضطر أهل الجزائر إلى إيفاد سفارة إلى اسبانيا تطلب هدنة عشر سنوات مقابل بعض الخراج. فقبل الملك ذلك وعاشوا في السلم بضعة أشهر.

ثم جاء بربروس فحاصر بجاية[62] وإحدى القلعتين اللتين بناهما الاسبان، بعد أن استولى على الأخرى. لكنه لم يصل إلى نتيجة، لأن القبائل الجبلية التي هبّت لنصرته ذهبت بدون استئذانه لزرع الحقول، وتبعها أيضاً عدد كبير من الجنود الأتراك[63] فاضطر بربروس إلى الفرار، وقبل أن ينصرف أحرق بيده اثنتي عشرة سفينة ضخمة كانت راسية في

---

(60) بعد موت أبي فارس عبد العزيز (عزوز) الحفصي يوم عيد الأضحى من عام 28/837 غشت 1433 اختلّت دولة الحفصيين، وأخذ الولاة من رجال الأسرة المالكة يثورون على أقربائهم الملوك. فكان من ذلك ثورة أبي الحسن بن أبي فارس الحفصي والي بجاية ضد السلطان أبي عمرو عثمان، وإعلانه قيام مملكة بجاية منفصلة عن مملكة تونس، ورغم مقتل أبي الحسن فإن إمارة بجاية ظلّت شبه مستقلة فترة غير قصيرة من الزمن.

(61) كلف الكونت بيير نفارو، الرئيس الأكبر للأسطول الأسباني، سنة 1510، قائد أسطول البحر المتوسط، دييكو دي فيرا، بتشييد برج البينيون بالجزائر.

(62) في رجب 921 غشت 1515.

(63) هطلت في منتصف شتنبر أمطار غزيرة، تضرّر منها القبليون كثيراً فغادروا صفوف الجيش ليشتغلوا بحرث أراضيهم.

النهر، على بعد ثلاثة أميال من بجاية. ثم التجأ مع أربعين من خواصه الأتراك إلى قصر جيجل الواقع على بعد ستين ميلاً من بجاية، ومكث به فترة من الزمان هلك خلالها الملك الكاثوليكي[64]، وأراد أهل الجزائر أن يفسخوا الهدنة ويتخلصوا من الخراج الذي كانوا يؤدونه لاسبانيا، فأرسلوا إلى بربروس ليكون قائداً لهم. نظراً لقيمته العسكرية العظيمة وكفايته في محاربة المسيحيين. وكان الخلاف قائمًا بين بربروس وأحد المتسلطين على إمارة الجزائر، فقتله غيلة في أحد الحمامات. وكان هذا المتآمر زعيم الأعراب القاطنين بسهل المتيجة، واسمه سليم التومي من قبيلة ثعلبة التي هي فرع من معقل، استولى على الحكم بالجزائر عندما احتل الاسبانيون بجاية[65] واستقر فيها عدة سنوات، إلى أن أتى بربروس فقتله، ونودي به ملكاً فضرب السكة وأذعن له جميع السكان بالطاعة وأرسلوا إليه الخراج. ذلكم كان أصل قوة بربروس وعظمته.

حضرت جل هذه الأحداث، إذ كنت على سفر من فاس إلى تونس، ونزلت ضيفاً عند السفير الذي بعث به إلى اسبانيا وعاد حاملاً معه زهاء ثلاثة آلاف مخطوط عربي اشتراها من شاطبة، إحدى مدن مملكة بلنسية. خرجت من الجزائر قاصداً بجاية فوجدت بربروس محاصراً قلعتها، ومكثت عنده لأشاهد نهاية هذه المعركة، إلى أن هرب والتجأ إلى جيجل، فانصرفت بدوري قاصداً قسنطينة في طريقي إلى تونس. وقيل لي إن بربروس قُتل في ذلك الوقت بتلمسان، وبويع أحد إخوته المسمى خيرالدين أميراً على الجزائر، وما زال يحكمها حتى الآن[66].

---

(64) هو فردناند الخامس، وهلك في 23 يناير 1516.

(65) في 25 رمضان عام 5/915 يناير 1510.

(66) المشهور حسب الرواية العربية أن عرّوج عندما احتل تلمسان، استنجد ملكها أبو حمو الزياني بالاسبانيين فأعانوه وحاصروا تلمسان في جمادى الأولى عام 924 / ماي 1518، فاضطر عروج إلى الانسحاب منصرفاً إلى ناحية وادي الملح، وهناك اعترضه كمين اسباني فقاتلهم حتى استشهد، فحزوا رأسه وأخذوه إلى اسبانيا. =

لقد عزم الامبراطور كارلوس الخامس مرتين ـ حسب ما قيل لي ـ على الاستيلاء على الجزائر، وأرسل في سنتين مختلفتين أسطولاً للإغارة على المدينة، فهزم الأول وغرق معظمه في المرسى، واستطاع الأسطول الثاني أن ينزل الجنود إلى البر، فخاضوا الحرب ثلاثة أيام بدون انقطاع، إلا أنهم غلبوا فقتل بعضهم، وأسر البعض الآخر فأصبحوا عبيداً لبربروس، ولم ينج منهم إلا القليل. وكان ذلك عام 922 هـ(67).

تَقْدِمْتْ

مدينة قديمة جداً أسسها الرومان ـ حسب قول بعضهم ـ وأطلق عليها الأفارقة هذا الاسم الذي معناه عتيقة. يبلغ طول محيطها عشرة أميال، كما يلاحظ ذلك من تتبع أسس أسوارها. وما زال بها أنقاض معبدين كبيرين كانت تعبد فيهما الأصنام. ولما فتحها المسلمون عادت مدينة متحضرّة جداً تضمّ عدداً وافراً من العلماء والشعراء، إذ كان الأمير عليها

= أما أخوه خير الدين فقد نودي به على أثر ذلك أميراً على الجزائر، فأخذ البيعة للخليفة العثماني، وضرب السكة باسمه، وأصبحت الجزائر بذلك ولاية عثمانية، ولو أن المتأخرين من الملوك الزيانيين ظلوا يتأرجحون بين الأتراك والاسبان إلى أن قضى على آخرهم الحسن بن عبد الله عام 1555/963 فخلص الأمر للأتراك حينئذ.

(67) خبر الحملتين البحريتين صحيح في أصله، إلا أن الحملة الأولى كانت بإيعاز من الكردينال خيمنس وبقيادة دييكو دي فيرا، في أواخر شعبان 922/ شتنبر 1516 (35 سفينة تحمل ثمانية آلاف مقاتل، مجهزة بالأسلحة المختلفة) فنزلوا إلى الساحل ولقيهم المسلمون في حرب ضارية بقيادة عروج، فكانت للعدو هزيمة شنعاء وغرق معظم الأسطول. أما الحملة الثانية فكانت في شعبان 925 / غشت 1519بقيادة نائب ملك الصقليتين هكودي منكاد، والقائد الاسباني كونزالفو مارينو دي ربيرا (40سفينة تحمل خمسة آلاف من أشد المقاتلين المجهزين بأحدث الأسلحة).

فنزل الاسبانيون كذلك إلى البر، فحاربهم المسلمون بقيادة خيرالدين، ومات كذلك وأسر من الاسبانيين عدد كثير، وغرقت أو أحرقت معظم سفنهم. انظر تفاصيل ذلك كله عند أحمد توفيق المدني، حرب **الثلاثمائة سنة**، ص 179-210.

أحد أعمام إدريس مؤسس مدينة فاس، واستمرت إمارة الأدارسة فيها زهاء مائة وخمسين عاماً، ثم خربت تَقْدِمَت أثناء الحروب التي شنّها عليها خليفة القيروان الشيعي عام 365 هـ، حتى لم يعد الزائر يشاهد بها الآن سوى آثار الأسس، كما لاحظت ذلك بنفسي[68].

المَدْيَة

المدية مدينة بناها الأفارقة في تخوم نوميديا، على بعد نحو ثمانين ميلاً من البحر المتوسط[69]، وتقع في سهل خصيب جداً، تحيط بها جداول ماء كثيرة وبساتين. سكانها أثرياء لأنهم يتّجرون مع نوميديا. ويرتدون لباساً أنيقاً ويسكنون دوراً جميلة. إلّا أن الأعراب يثقلون كواهلهم بالإتاوات، ولا يستطيع ملك تلمسان أن يدافع عنهم ولا أن يسيطر عليهم. لبعدهم عن هذه المدينة بنحو 200 ميل[70].

كانت المدية تابعة لأمير تَنَس، ثم خضعت لبربروس (عروج) ولأخيه (خير الدين). وقد أقمت نحو الشهرين في مرح ونشاط كبيرين، وأُكرمت أكثر من قبل أميرها، لأن الغريب إذا مرَّ بالمدية يكاد سكانها يحبسونه بالقوة، طالبين منه بتوسل وابتهال أن يفصل في قضاياهم، ويحرر عقودهم ويفتيهم في نوازلهم. وقد حصلت في هذين الشهرين على عشرات المثاقيل،

---

(68) تقدمت (أو تاقدمت) تقع على بعد تسع كيلو مترات من مدينة تيارت الحالية التي اشتهرت في ثورة الأمير عبد القادر، حيث اتخذها مخزناً عاماً لذخيرته وسلاحه وأقواته إلى أن اضطر لإخلائها أواسط عام 1841/1257. وليست تقدمت هي مدينة تهرت الرستمية الشهيرة، وما تزال أنقاضها ماثلة للعيان بالقرب من تيارت وتَقْدِمَت.
انظر: أحمد توفيق المدني، **كتاب الجزائر**، ص 205-206.

(69) لا تبعد المدينة عن عاصمة الجزائر إلا بنحو 56 ميلاً، وهي قديمة كان الرومان يسمونها «لامبديا» باسم قبيلة لمدية الصنهاجية، فخربت وجدد بناءها الملك بلقين بن زيري. انظر: **المصدر السابق**، ص 236-237.

(70) بل بأكثر من 300 ميل.

بضائع ونقوداً وماشية، حتى هممت أن استقر بهذه المدينة لولا اضطراري إلى مغادرتها بسبب المهمة التي كلفني بها مولاي.

تَمَنْدْ فُوسْتْ

مدينة عتيقة بناها الرومان على شاطىء البحر المتوسط، على بعد نحو اثني عشر ميلاً من الجزائر(71)، لها ميناء حسن يستعمله الجزائريون، إذ ليس لهم غير مجرد شاطىء رملي. وقد خرّب القوط (الوندال) هذه المدينة، وأعيد بناء أسوار الجزائر كلها تقريباً بالحجر المأخوذ من تمند فوست.

دَلِّس

تدلّيس (دَلِّس) مدينة عتيقة بناها الأفارقة على بعد نحو تسعة وثلاثين ميلاً(72) من شاطىء البحر المتوسط. تحيط بها أسوار قديمة متينة، وجل سكانها صباغون لوجود عدد من العيون والجداول بها. وهؤلاء السكان ذوو بشاشة ومرح، يحسنون تقريباً كلهم العزف على العـود والقيثار. يملكون أراضي زراعية كثيرة تنتج القمح بوفرة، ويرتدون لباساً حسناً كلباس الحضريين الجزائريين. وقد تعودوا جميعاً اصطياد السمك بالشباك، فيحصلون على كمية وافرة منه لا تباع ولا تشترى، وإنما يهدونه لمن يرغب فيه. وتتبع دلس دائمًا عاصمة الجزائر في كل شيء، حكومة وإمارة.

* * *

(71) يعني الخرائب الرومانية لمستعمرة روسكونيي، شرق شاطىء عاصمة الجزائر على بعد 27 كلم منها.

(72) بل أكثر من 50 ميلاً.

جبال مملكة تلمسان

جبل بني يَزْنَاسَنْ

يقع هذا الجبل على بعد نحو خمسين ميلاً غربيّ تلمسان، ويتاخم من جهة قفر كَرْطْ، وقفر أَنْكَادْ من جهة أخرى، ممتداً على طول خمسة وعشرين ميلاً، وعلى عرض نحو خمسة عشر ميلاً. وهو شديد الوعورة والارتفاع، صعب المسالك، تكسوه غابات كثيرة تنتج كمية وافرة من الخروب الذي يعتبر الغذاء الرئيسي للسكان، إذ ليس لهم سوى القليل من الشعير. ويضم هذا الجبل مداشر عديدة يسكنها قوم ذوو بأس شديد.

وفي أعلى الجبل قلعة حصينة يقيم بها أمراء البلاد، ولو أنهم غالباً ما يتحاربون بينهم تنافساً على الحكم. وكانت لي مع هؤلاء الأمراء علاقات طيبة لما تعرّفت عليهم في بلاط فاس، وأظهروا لي عناية كبيرة.

ويعطي هذا الجبل ما يقرب من عشرة آلاف محارب.

جبل مْطَغْرَة

هذا الجبل شاهق جداً شديد البرودة، لكنه كثير السكان. يقع على بعد نحو ستة أميال من نَدْرُومَة. وسكانه أشداء، لكنهم فقراء، إذ لا ينبت في جبلهم حب غير الشعير، لكن فيه أيضاً كثير من الخرّوب. وأهل

ندرومة متحالفون مع هؤلاء الجبليين، يؤازر بعضهم بعضاً ضد ملك تلمسان.

جبل وَهْاصَة

يجاور هذا الجبل المرتفع مدينة هنين، وتسكنه قبيلة عاتية، لكنها ريفية، وكثيراً ما حاربت أهل هنين حتى خربت مدينتهم. ينبت فيه قليل من القمح، وكثير من الخروب.

جبل أَغْبَالْ

يسكن جبل أغبال أناس أنذال خاضعون لحكومة مدينة وهران. وكلهم فلاحون وحطابون، يحملون حطبهم إلى وهران. وكانوا في عيشة راضية يوم كانت المدينة بأيدي المسلمين، لكن عندما احتلها النصارى أصيب الجبليون بفقر مدقع، ولحقهم أذى كثير من هؤلاء المحتلين.

جبل بني وَرْنِيدْ

يقع هذا الجبل على بعد نحو ثلاثة أميال من تلمسان، وهو كثير السكان، ينتج كمية وافرة من الفواكه، لا سيما التين والكرز. وأهله فحامون وحطابون وفلاحون، بحيث إن دخل هذا الجبل اثنا عشر ألف مثقال في السنة، حسب ما أخبرني به كاتب ملك تلمسان.

جبل مَغْرَاوَة

يمتد هذا الجبل هو الآخر على طول نحو أربعين ميلاً محاذياً شاطىء البحر المتوسط، قريباً من مدينة مستغانم المذكورة آنفاً. سكانه نبلاء

أشداء، يملكون أراضي جيدة، بالإضافة إلى أنهم على جانب عظيم من المجاملة والكرم[73].

جبل بني بُوسْعِيد

يجاور هذا الجبل مدينة تَنَس، ويقطنه سكان كثيرون فِظاظ غِلاظ القلوب، لكنهم مقدامون، يملكون كمية وافرة من العسل والشعير والماعز، ويحملون الشمع والجلود إلى شاطىء تَنَس ليبيعوها إلى التجار الاوروبيين، وكانوا يؤدون إتاوة ضئيلة إلى ملك تَنَس لما كانت تلك البلاد خاضعة لأقربائه.

جبل وَنْشَرِيسْ

هذا الجبل شاهق تسكنه قبيلة نبيلة[74] حاربت ملوك تلمسان عدة مرات ودامت هذه الحروب أكثر من ستين عاماً بسبب مساندة ملوك فاس. هذا الجبل جيد التربة كثير العيون، وفي قمته الشديدة الوعورة كمية وافرة من معدن التوتيا (الزنك)، ويبلغ عدد المقاتلين فيه نحو عشرين ألفاً، منهم ألفان وخمسمائة فارس. وهؤلاء الجبليون هم الذين ساعدوا الأمير يحيى عندما عمل على تنصيب نفسه، لكن عندما استبدلت دولة تنس أميرها، أخذ فرسان هذا الجبل يشنون الغارات على البلاد.

---

(73) لا يذكر اليوم بهذه القبيلة الكبيرة إلا رأس مغراوة الواقع على مسافة 104 كلم شرق مستغانم و56 كلم غرب تنس ويبدو أن مغراوة زناتة ـ بالبربرية إمْغَرَان الكبار ـ هم الذين نعتهم هيرودوت باسم مكلبيس في ضواحي جزيرة جربة، وبلين باسم مكريبي، وبطليموس باسم مَكْرِييس.

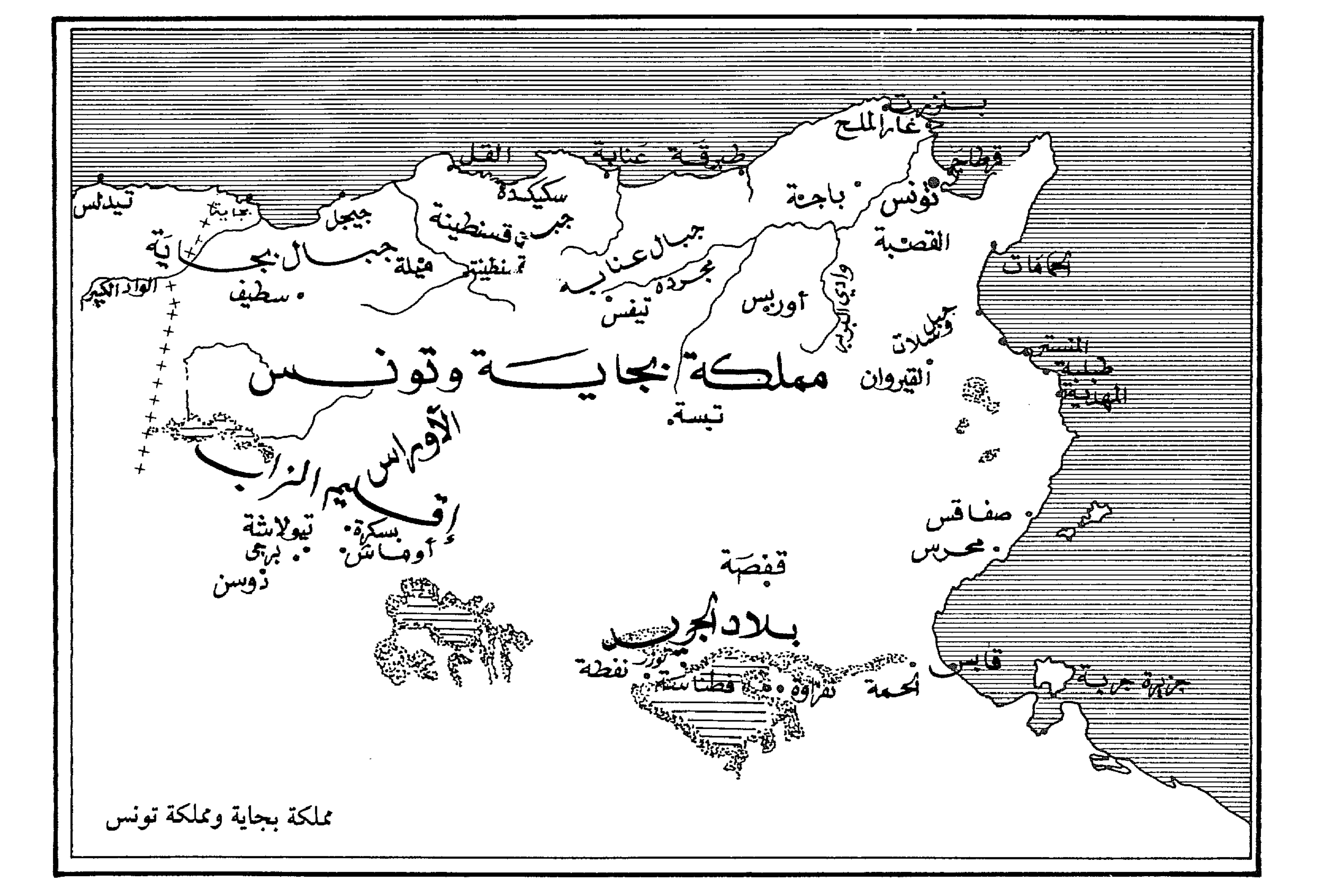
(74) هم بنو توجين الزناتيون.

جبال دولة الجزائر

يوجد في شرق سهل الجزائر وجنوبه عدد لا يحصى من الجبال، تسكنها قبائل شديدة البأس، متحررة من كل إتاوة، وافرة الغنى، واسعة الكرم. يملكون أراضي جيدة للزراعة، وكمية عظيمة من الماشية والخيل. وكثيراً ما تحارب هذه القبائل بعضها بعضاً، حتى لا يستطيع أحد، سواء كان من أبناء المنطقة أو غريباً عنها، أن يمر فيها بسلام ما لم يكن مصحوباً بأحد الأولياء ويقيم هؤلاء الجبليون فيما بينهم معارض وأسواقاً لا يوجد فيها غير البهائم والحبوب والصوف، وقليل من الأقمشة المجلوبة من المدن المجاورة.

القسم الخامس

مملكة بجاية
ومملكة تونس



مملكة بجاية ومملكة تونس

مملكة بجاية
ومملكة تونس

لما قسّمتُ في بداية هذا الكتاب بلاد البربر إلى ممالك، ظننتُ أن من الواجب أن أعدّ من بينها دولة بجاية؛ ثم دقّقتُ النظر في المسألة فوجدتُ أن بجاية لم تكن حاضرة ملك إلا منذ قليل حتى أيامنا الأخيرة، وأن حكومتها تابعة لا محالة لملك تونس؛ لكن ملوك تلمسان احتلّوها وبسطوا نفوذهم عليها مدة طويلة، إلى أن شعر أبو فارس ملك تونس بقوة شوكته، فأجلب عليها بِخَيله ورجله ومَلَكَها وأخضع مِلِك تلمسان إلى سلطته. وترك أبو فارس أحد أبنائه حاكمًا أميراً على بجاية، لا لتأمين المدينة أكثر فقط، ولكن أيضاً لتفادي الخصومات المحتمل وقوعها بين أبنائه بعد وفاته. فأعطى أحدهم بجاية ــ كما قلت ــ وهو عبد العزيز، وأعطى آخر مملكة تونس، وهو عثمان الذي بقي في الحكم أربعين عاماً؛ أما الثالث المدعو عمّار فآل إليه أمر بلاد الجريد، وثار على أخيه عثمان ملك تونس، فطارده هذا الأخير حتى استولى عليه في مدينة صفاقس. واختار الثائر نفسه طريقة عقابه بفقء عينيه وحمله إلى تونس، حيث عاش أعمى سنوات عديدة. وبقي أمير بجاية مطيعاً دائمًا لأخيه، واستمرت السلطة الملكية طويلاً في أسرة أمير بجاية إلى أن انتزعها منهم الملك فردناند بقوة السلاح، والمقدرة الجريئة لبيير نافارو[1].

(1) احتل الاسبانيون بجاية عدة مرات وخرّبوها، ثم استرجعها منهم باشا الجزائر صالح رايس عام 962/1.555.

مدينة بِـجَايَة الكبيرة

بجاية[2] مدينة عتيقة بناها الرومان ـ على ما يراه بعضهم ـ في منحدر جبل شاهق على ساحل البحر المتـوسط. تحيط بها أسوار عالية متينة، وتناهز كوانينها ثمانية آلاف، أقصد في القسم المسكون منها، إذ لو امتلأت دوراً لفاق عدد كوانينها أربعة وعشرين ألفاً. وتمتد عرضاً على خاصرة الجبل في مسافة لا يمكن تصوّرها. ودورها كلها جميلة، وفيها جوامع كافية، ومدارس يكثر فيها الطلبة وأساتذة الفقه والعلوم، بالإضافة إلى زوايا المتصوّفة وحمامات، وفنادق ومارستانات، وكلها صروح مشيّدة حسنة البناء. وأسواقها كذلك جميلة منسّقة أحسن تنسيق. إلا أن المدينة كلها عقبات، بحيث أن المـاشي لا يستطيع أن يخطو خطوات دون أن يصعد أو ينزل.

توجد قرب الجبل قلعة كبيرة متينة الجدران مزخرفة بالفسيفساء والجص المجزع والخشب المنقوش المزدان بألوان اللازرود العجيبة، حتى إن هذه الأعمال الغنية تساوي أكثر من قيمة البناء نفسه. وكان أهل بجاية على قدر عظيم من الغنى، يسلّحون العديد من السفن الحربية المختلفة ويرسلونها لغزو شواطئ اسبانيا، ومن ثم كان سقوط المدينة وإرسال الكونت بيير نافارو لاحتلالها. يعيش السكـان في فقر، لأن الأراضي الزراعية غير خصبة لا تستطيع أن تنتج حبوباً، لكنهم مغمورون بالثمار، إذ يحيط بالمدينة عدد لا يحصى من الحدائق العامرة بالأشجار،لاسيما من جهة الباب المؤدّي إلى ناحية الشرق.

---

(2) بجاية أسسها الفينيقيون وسمّوها صلدة، ثم احتلها الرومان ودعوها صلداي، وخرّبها بعد ذلك الوندال والبربر، إلى أن جدّدها الناصر الحمادي عام 468/1076 ودعاها الناصرية، ثم سمّيت بجاية باسم قبيلة بربرية تقطن حولها، وقد ورثت بجاية حضارة قلعة بني حماد واتّسع عمرانها بعد أن أصبحت عاصمة سلطنتهم، واستمرت أهميتها طوال حكم الموحدين فالحفصيين إلى أن احتلّها الأسبان وخرّبوها.
انظر أحمد توفيق المدني، **كتاب الجزائر**، ص 196 - 197.

والبلاد كلها جبال وعرة مكسوّة بغابات تنتشر فيها القرود والفهود. والبجائيون أناس طيّبون ميّالون إلى المرح والموسيقى والرقص، لاسيما منهم الأمراء الذين لم يشهروا الحرب قط على أحد. وقد ظهر جبنهُم جلياً إلى حد أنهم عندما جاءهم الكونت بيير نافارو ببعض سفن النقل[3] فرّوا جميعاً إلى الجبل، وعلى رأسهم الملك، حاملين معهم كل ما يملكون دون أن يمتشقوا حساماً. وأخذ الكونت بيير المدينة ونهبها، ثم شيّد بسرعة قلعة قرب البحر في موضع ملائم من الشاطىء، كما حصّن قلعة قديمة مجاورة للبحر بجانب دار الصناعة[4].

وحاول بربروس التركي بعد ست سنوات استرجاع بجاية من أيدي النصارى. فنزل أمام المدينة بألف من الجنود الأتراك، وهجم على القلعة القديمة، فأخذها وحصّنها. ثم وافته قبائل الجبال المجاورة برمّتها لإعانته على أخذ القلعة الأخرى الواقعة قرب الشاطىء. ولكن قتل مائة تركي من أكبر الشجعان ومائة جبلي في أول الهجوم، الأمر الذي جعل الجنود يرفضون استئناف القتال، واضطر بربروس إلى الالتجاء إلى قصر جيجل ـ كما ذُكر آنفاً[5]ـ.

قصر جِيجَل

هو قصر قديم بناه الأفارقة على صخرة عالية بشاطئ البحر، بعيد عن بجاية بنحو سبعين ميلاً، وفيه ما يقرب من خمسمائة كانون، ودوره في

---

(3) 14 سفينة تحمل 8000 مقاتل!

(4) سقطت بجاية في أيدي الاسبانيين أكثر من مرة، والاحتلال المشار إليه هنا كان يوم السبت 25 رمضان عام 915/5 يناير 1510.

(5) في كتاب الجزائر (ص216) أن جيجل من تأسيس القرطاجنيين الذين كانوا يدعونها ايجلجيلي، وأن بربروس لما جاء لإنقاذ السواحل الإفريقية من قرصان الاسبان اتخذ مدينة جيجل عاصمة له ومركزاً لأعماله. وتقع جيجل حالياً في شبه جزيرة منخفضة منبسطة بعيدة عن بجاية بنحو 96 كلم.

غاية الحسن، ورجاله أشدّاء كرماء أوفياء، وكلهم فلاحون، لكن أراضيهم وعرة لا تصلح إلا للشعير والكتان والقنّب الذي ينبت هنا بكثرة. ويكثر أيضاً في جيجل الجوز والتين، ويحُمّلان إلى تونس في سفن صغيرة. وقد حافظ هذا القصر دائماً على حريته، بالرغم على ملوك بجاية وملوك تونس، لأنه يستحيل حصاره؛ إلا أن أهله خضعوا من تلقاء أنفسهم إلى بربروس[6] الذي لم يفرض عليهم سوى زكاة عشر الحبوب والثمار، مما هو حلال معمول به، ولم يترك نائباً عنه في القصر سوى مندوب واحد.

مدينة مْسِيلَة

مدينة عتيقة بناها الرومان في تخوم صحراء نوميديا داخل الأراضي، على بعد نحو مائة وأربعين ميلاً من بجاية[7]. الأسوار المحيطة بها جميلة، بخلاف الدُور فإنها قبيحة. والسكان كلهم صنّاع أو فلاحون، يرتدون لباساً رديئاً لفقرهم بسبب جيرانهم الأعراب الذين يسلبونهم مداخيلهم، وملك بجاية الذي أثقل كاهلهم بالضرائب. وقد اندهشتُ للفقر السائد بمسيلة عند مروري بها، فلم أجد الشعير لفَرَسي ولليلة واحدة إلا بمشقّة. ولو أقمت بها ليلة أخرى لما تمكّنت من الحصول على مثل ذلك لكثرة البؤس والفاقة السائدين في المدينة.

سْطِيفْ

مدينة بناها الرومان[8] على بعد ستين ميلاً جنوب بجاية، بعد قطع كل الجبال، في سهل جميل جداً. وهي محاطة بأسوار مبنية بحجر جميل ضخم مكعّب، وكانت في العصور الغابرة متحضّرة جداً كثيرة السكان،

---

(6) استرجع بربروس جيجل من يد محتلّيها الجنويين بمساعدة الأمير ابن القاضي عام 920/1514.

(7) مسيلة الحالية مؤسسة على بعد 7 كلم من أطلال المدينة الرومانية زابي المدعوة اليوم بيشيلڤة. وتبعد مسيلة عن بجاية بـ190 كلم.

(8) اسمها الروماني سيتيفيس.

لكنها انحطّت منذ الفتح الإسلامي، وخصوصاً عند مجيء الأعراب الذين حطّموا جزءاً من أسوارها. ولم يبق منها سوى مائة دار مسكونة، لكن موقعها الفسيح ما زال قائمًا كما شاهدتُ ذلك عند سفري من فاس إلى تونس.

نكَّـــاوَسْ

مدينة تتاخم نوميديا، بناها الرومان على بعد نحو مائة وثمانين ميلاً من البحر المتوسط، وثمانين ميلاً من مسيلة[9]، تحيط بها أسوار متينة عتيقة، ويجري قربها نهر ينبت على ضفافه شجر التين والجوز. وتين البلاد شهير بأنه أجود تين في مملكة تونس، يحمل إلى قسنطينة البعيدة من هنا بثمانين ميلاً[10]. وتوجد حول نكّاوس سهول تصلح كلها لزراعة القمح، والسكان أغنياء أمناء كرماء، لباسهم لائق كلباس سكان بجاية المدنيين. وللجماعة دار أعدّوها ملجأ لإيواء الغرباء، ومدرسة للطلاب يتكفّلون بلباسهم ويتحمّلون نفقاتهم، وجامع جميل فسيح جداً فيه كل ما يحتاج إليه. والنساء جميلات بيض البشرة سود الشعر اللامع، لأنهن يتردّدن على الحمّام ويعتنين بأنفسهن. لا تشتمل الدُور في مجملها إلا على طابق أرضي، لكن ذلك لا يمنع من كونها أنيقة بهيجة، لأن لكل واحدة منها حديقة مليئة بمختلف الأزهار، وخاصة الورد الدمشقي والآس والبنفسج والبابونج والقرنفل وغيرها من الأزهار المماثلة لها في البهاء. ولجميع الدُور تقريباً سقاياتها الخاصة، والجانب الآخر من الحديقة كروم معروشات جميلة تعطي أيام الصيف ظلاً ظليلاً ممتعاً جداً، كثير البرودة والنعيم حول الجزء المغطّى من المسكن، بحيث أن من يرد على نكّاوس يأسف على مغادرتها، لفرط ظرف أهلها وحفاوتهم.

---

(9) هي نيسيويس الرومانية المعروفة باسم نيسيفيبوس، ودعاها العرب نيكاؤوس، فصارت نكاوس، ولا تبعد عن البحر المتوسط إلا بنحو 160 كلم، ولا عن مسيلة إلا بنحو 48 كلم.

(10) بل بأربعين ميلاً فقط.

القُلّ

مدينة كبيرة بناها الرومان على ساحل البحر المتوسط عند قدم جبل شاهق[11]، وليست مسوّرة لأن القوط (الوندال) هدموا أسوارها؛ ثم إن المسلمين لما حكموها تركوها على حالها، وهي مع ذلك مدينة متحضّرة مليئة بالصنّاع، وأهلها ظرفاء كرماء، تجارتهم رابحة، لأنهم يجنون من جبالهم الكثير من الشمع، ويمتلكون كميّة عظيمة من الجلود يبادلون بها البضائع التي يحمّلها أهل جنوة إلى مينائهم. والأراضي الزراعية منتجة لكنها توجد في الجبل، ويعيش السكان متحررين لأنهم لم يفتأوا يدافعون عن أنفسهم ضد ملك تونس وأمير قسنطينة، إذ تفصل بين القل وقسنطينة جبال شاهقة ومسافة مائة وعشرين ميلاً[12]. ويتألف نصف أراضي القل من جبال يسكنها رجال شجعان أبطال. وليس على ساحل مملكة تونس مدينة أغنى من القل، لأنها بدأت تحقّق في تجارتها مع الجنويين أضعاف أضعاف ما تعطيه إياهم، ثم تبيع بالتقسيط في الجبال المجاورة البضائع المأخوذة من الجنويين محقّقة بذلك أرباحاً طائلة.

سْكِيكــدَة

مدينة أزلية بناها الرومان على ساحل البحر، بعيدة عن قسنطينة بنحو خمسة وثلاثين ميلاً[13] خرّبها القوط (الوندال) في الزمن الغابر. إلا

---

(11) في كتاب الجزائر (ص. 234) أن القل من تأسيس الفينيقيين، واسمها القديم شلو، احتلها نورمانديو صقلية، ثم استولى عليها بربروس سنة 1519.

(12) بل نحو 80 ميلاً فقط.

(13) في كتاب الجزائر أيضاً (ص. 219) أن سكيكدة من المراسي التجارية الكبرى التي أسسها القرطاجنيون، وكان اسمها رأس ايكاد، وعظمت أهميتها أيام الاحتلال الروماني. وبعد أن خرّبها الوندال أعاد العرب تأسيسها وسمّوها رأس سكيكدة فعاد لها عمرانها.

وكان الرومان يدعونها روسيكاد. وهي بعيدة عن قسنطينة بنحو 54 ميلاً.

أن أمير قسنطينة، نظراً لمينائها الجيد، أمر ببناء منازل ومخازن للجنويين الذين كانوا يتّجرون في البلاد، بل أنشأ أيضاً قرية في أعلى جبل مجاور يقيم بها حارس على الدوام للإخبار بالسفن المتجهة إلى الميناء. يتّجر سكان جبل سكيكدة كثيراً مع الجنويين، فيدفعون لهم القمح مقابل أقمشة وغيرها من منتوجات أوربـا. ويمتد بين هذا الميناء وقسنطينة طريق مبلّط بحجارة سوداء على نحو مايشاهد في إيطاليا من بعض الطرق المسمّاة بالطرق الرومانية. وهذا مايدلّ بدون شك على أن سكيكدة من بناء الرومان(14).

مدينة قسنطينة

مدينة قديمة بناها الرومان(15)، وهذا شيء لا يمكن إنكاره نظراً لأسوارها العتيقة العالية السميكة المبنية بالحجر المنحوت المسودّ، وهي واقعة على جبل شاهق ومحاطة من جهة الجنوب بصخور عالية. يمر عند قدميها نهر اسمه سوفغمار(16)، والضفة الأخرى لهذا النهر محاطة أيضاً

(14) في بعض النقوش المكتوبة أن قناطر هذه الطريق بناها اللفيف الثالث الأوكيستي بأمر من الامبراطور هادريان (117 - 138 للميلاد). ولا يعارض هذا مانقلناه قبل عن كتاب **الجزائر** من سبق تأسيس القرطاجنيين لهذا الميناء، إذ استغلّ الرومانيون ــ كما هو معلوم ــ كل المنشآت القرطاجنية بعد انهيار قرطاجنة.

(15) ورد في كتاب **الجزائر** (ص232) أن اسم قسنطينة في القديم سيرتا، وهو اسم كنعاني فينيقي وفيها اشتهر ماسينيسا الشجاع الذي أراد أن يحصل على استقلال البربر بواسطة روما فخابت آماله. ثم أصبحت سيرتا مستعمرة رومانية إلى أن خرّبها البربر على أثر ثورة دامية، فأعاد الامبراطور قسطنطين (في أول القرن الرابع للميلاد) بناءها وسمّيت باسمه.
وقد خفّفها الاستعمال العربي بحذف ياء وطاء، فصارت قسنطينة، وبذلك تتميّز عن القسطنطينية العظمى التركية.

(16) معنى «سوف» النهر أو الواد في بعض اللهجات البربرية، لكن معنى باقي الكلمة لم يوضح بعد، والظاهر أن الكلمة كلها تعني: وادي الرمل، حيث يصب بومرزوق قبل أن يصل إلى قسنطينة. وقد نسخ مرمول هذا الاسم هكذا: سوفجمار بو مرزوق.

بصخور، بحيث إن الشعب السحيق الواقع بين هذين الجرفين يستعمل كخندق للمدينة، بل هو أكثر نفعاً لها من الخندق. وفي الجانب الشمالي للمدينة أسوار في غاية القوة، بالإضافة إلى أنها تقع في أعلى قمة الجبل، بحيث أن الصعود إلى قسنطينة لا يمكن إلا من طريقين صغيرين ضيّقين، أحدهما إلى جهة الشرق والآخر إلى جهة الغرب. وأبواب المدينة جميلة كبيرة مصفّحة تصفيحاً جيداً بالحديد.

تستطيع قسنطينة، نظراً لحجمها، أن تضم ثمانية آلاف كانون، ولها موارد كثيرة، وهي متحضّرة جداً، ومليئة بالدُور الجميلة والبناءات المحترمة، كالجامع الكبير، والمدرستين والزوايا الثلاث أو الأربع.

وأسواق المدينة عديدة حسنة التنسيق، بحيث أن جميع الحِرف فيها مفصول بعضها عن بعض. والقسنطينيون شجعان مقاتلون، خصوصاً منهم الصنّاع. وفيها عدد كبير من التجّار الذين يتعاطون تجارة الأقمشة الصوفية المصنوعة محلياً، وبعضهم يرسلون الزيت والحرير إلى نوميديا، وكذلك يفعلون بالأقمشة. كل هذه البضائع تُستبدل بالتمر والرقيق. ولا توجد مدينة افريقية يباع فيها التمر بثمن بخس كقسنطينة، إذ يمكن الحصول على ثمانية أرطال أو عشرة من التمر بثلاث «بايوتشيات» فقط[17]. والقسنطينيون ـ إلى ذلك ـ مقتصدون فيما يتعلّق بلباسهم، متكبّرون مغفلون. وكان من عادة ملوك تونس أن يعطوا قسنطينة لابنهم البكر، لكن الملك الحالي أعطاها تارة لهذا وتارة لذلك من أبنائه، فقد عهد بها أولاً إلى ولي عهده الذي توجّه بجيشه لمحاربة الأعراب، رغبة منه في تحقيق أشياء عظيمة، لكنهم قتلوه في أول لقاء وحطّموا جيشه كله[18]. فولّى الملك على

---

(17) بايوتشي: عملة إيطالية قيمتها نحو 7 سنتيم ـ ذهب.

(18) سبقت الإشارة إلى هذه المغامرة في القسم الأول (ص. 66) عند الكلام على الشاوية أو رعاة الشاة.

المدينة ابناً له آخر اسمه عبد العزيز، كان شاباً جائراً وقاسياً معاقراً للخمر، فمات بسبب سرطان نخر جنبيه.

ثم أعطاها لابن له آخر، كان ما يزال غلاماً صغيراً أقرع، لوطياً، سكيراً جائراً، فثار عليه الشعب وحاصره في القلعة إلى أن أرسل إليه أبوه بعض الضباط فحملوه مغلولاً إلى تونس، وألقاه أبوه في السجن وفرض عليه غرامة قدرها خمسمائة «دوبولي»[19]، ثم عين الملك نائباً له على قسنطينة رجلاً صالحاً ابن أحد الموظفين الملكيين السامين اسمه فرح، كان مسيحياً وأسلم، فكان الملك يستعين به في أهم الأمور المتعلقة بالمصلحة والإدارة. فسُرّ السكان بهذا النائب الأمين المتواضع في حكمه.

ويوجد بالجانب الغربي[20] لقسنطينة قلعة كبيرة حصينة بُنيت في زمان تأسيس المدينة، إلا أن تحصيناتها جُدّدت من قبل أحد نواب الملك الحالي، وهو أيضاً مسيحي أسلم، أصله من بروفانس، واسمه القائد نبيل[21] وكان على جانب عظيم من الدهاء، فبثّ دسائس خطيرة بين السكان، حتى تمكّن من تسيير المدينة كما شاء، بالإضافة إلى أنه دخل مساومات مع الأعراب المجاورين حتى أصبحوا يعيشون على حذر منه، مع أنهم كانوا يُعدّون من أنبل العرب بافريقيا وأشدّهم بأساً[22] وقد قبض مرة على أكبر هؤلاء الأعراب كان باستطاعته أن يقود خمسمائة فارس، وقبض على أبنائه وأحفاده وإخوته، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن ترك عنده ثلاثة من أبنائه رهائن في قلعة قسنطينة.

---

(19) أي مضاعفة، أو دنانير تونسية قيمتها 20 ,16 فرنك ــ ذهب.

(20) بل بالجانب الشمالي.

(21) لم يتولّ السلطان أبو عبد الله محمد المُلْك إلا في 10 شعبان 16/899 ماي 1494، بينما توفي القائد أبو الفتح نبيل في 11 جمادى الأولى 21/857 ماي 1453 أيام السلطان عثمان.

(22) هي قبيلة رياح.

وذهب الغرور بعد ذلك بنبيل إلى أن ضرب السكة باسمه من تلقاء نفسه، فكانت أفضل من سكة الملك. ولما علم الملك بذلك استدعاه على عجل، فلم يستجب للدعوة ولم يرغب في الذهاب بنفسه إلى تونس، وأرسل إلى الملك كميّة وافرة من الدنانير وهدية عظيمة، فسكت الملك لأنه لم يستطع القيام بشيء آخر. وانتهى الأمر بنبيل إلى ارتكاب مظالم شتى تجاه الشعب، حتى ثار عليه في وقت كان مشتغلاً في نوميديا بحصار مدينة تدعى بسكرة. فرجع مباشرة إلى قسنطينة لكنه لم يمكنه الدخول إليها، فاضطر إلى الذهاب إلى تونس مستنجداً بالملك الذي ألقاه تواً في غياهب السجن وفرض عليه غرامة قدرها مائة ألف مثقال. ولما خرج نبيل من السجن وأمدّه الملك بالإعانة التي طلب، ذهب ليضرب الحصار على قسنطينة، ودخلها بعد أيام بقوة الحيلة والسلاح. فأمر بإعدام عدد كثير من أعيان المدينة، الأمر الذي جعل السكان يثورون عليه من جديد، فحاصروه في القلعة وحارب محاصريه يوماً. فقتل الكثير من أنصاره واستولى عليه الحزن والغم إلى حد أنه مرض ومات بعد قليل. فاستسلم رجال القلعة للشعب الذي دخلها ونهب قصر نائب الملك، ووجد فيه أشياء ثمينة ونحو اثني عشر ألف كيل «رودجي» من القمح، بالإضافة إلى ثلاثمائة جواد. وبعد هذه الأحداث، أوفد الملك نائباً إلى قسنطينة ليشرح للسكان أن جلالة الملك قد عفا عن كل ما ارتكبوه من الإساءة، فسُرّوا بذلك إلا أنهم لم يرضوا أن يعينّ الملك بعد الآن نائباً عنه، ولذلك أرسل إليها الملك أبناءه بالتوالي، كما ذكرناه آنفاً.

والأراضي الزراعية المحيطة بالمدينة كلها جيدة خصبة، ويبلغ إنتاجها ثلاثين ضعف ما يُزرع فيها. وتوجد أيضاً في السهل على طول النهر بساتين في غاية الجمال، إلا أنها لا تُنتج كثيراً من الثمار لأنهم لا يحسنون خدمتها.

وتشاهد خارج قسنطينة بنايات عديدة محترمة عتيقة، وعلى بعد ميل تقريباً يرى قوس نصر شبيه بالذي يوجد في روما، لكن العامّي يظن

لحماقته أنه كان هناك قصر تسكنه الشياطين الذين طردهم المسلمون عند مجيئهم إلى هذه البلاد.

ويوجد بقرب النهر تحت الصخرة درج للنزول منحوتة بالحديد في الحجر، وبجانب الماء رواق مقوّس منحوت كذلك بالحديد، بحيث أن السقف والأعمدة والأرض كلها قطعة واحدة، تأتي إليها نساء المدينة لغسل الثياب.

وعلى مسافة نحو ثلاث رميات حجر من المدينة، يوجد حّمام مكوّن من عين ماء ساخن يتدفّق بين أحجار ضخمة[23] ويعيش فيها عدد كبير من السلاحف تعتقد النساء أنها شياطين. وإذا اتّفق أن أصيبت إحدى النساء بالحمّى أو غيرها تقول ان سبب ذلك يرجع إلى السلاحف، وللتخلص من الداء تذبح حيناً دجاجة بيضاء تضعها في إناء بريشها الكامل ثم تربط حول الإناء شمعات وتحمله إلى العين حيث تتركه. وكم من الظرفاء تبعوا امرأة وهي تتوجّه إلى العين حاملة معها الإناء والدجاجة، وأخذوا الإناء بعد انصرافها، ثم طبخوا الدجاجة وأكلوها!

وبعيداً عن عين الماء الحار، هناك عين ماء بارد، يوجد بقربها بناء من رخام شاهدتُ مثله في إيطاليا وفي كل بلاد أوربا. ويعتقد العامة أنه كانت هناك قبل مدرسة آداب كان أستاذها وتلامذته فجرة، فمسخهم الله ومدرستهم رخاماً عقاباً لهم على ذنوبهم.

يجتمع أهل قسنطينة مرة في السنة في قافلة تذهب إلى نوميديا، يحملون إليها أقمشة الصوف المنسوجة في بلادهم، وشيئاً قذراً يسمّى الحشيش، ويصحبون معهم بعض الأتراك من حاملي البنادق، توقّعاً للأعراب الذين كثيراً ما يهاجمونهم، ويستأجرونهم بأغلى الأثمان.

---

(23) هو ما يُعرف الآن بحمّام سيدي مسيد.

لا يؤدّي تجّار قسنطينة واجبات الدخول إلى تونس، بل يؤدّون عند الخروج منها ما قدره اثنان ونصف بالمائة، إلا أنهم يتضرّرون من هذا السفر أكثر مما يستفيدون، إذ تؤدّي بهم متعة الفجور إلى تبذير معظم ما حصلوا عليه وإنفاقه على النساء العاهرات.

مدينة مِيلَة

ميلة مدينة عتيقة بناها الرومان على بعد نحو اثني عشر ميلاً[24] من قسنطينة، تحيط بها أسوار قديمة، وتضم زهاء ثلاثة آلاف كانون، لكنها اليوم لم يبق فيها إلا قليل من الدُور المسكونة، بسبب جور الأمراء. وفيها عدد كبير من الصنّاع، وخصوصاً من يعملون في نسج الصوف الذي تُصنع منه أغطية الأسرّة. وفي ساحة المدينة عين جارية يُستعمل ماؤها لمختلف حاجات السكان. وهؤلاء السكان شجعان لكنهم مغفّلون.

ويكثر في البلاد التفاح والإجاص وغيرهما من الفواكه، بحيث أن اسم هذه المدينة ــ على ما أظن ــ مشتقّ من الاسم اللاتيني ميلة بمعنى التفاح[25] كما يكثر فيها القمح أيضاً.

من عادة أمير قسنطينة أن يبعث إلى هذه المدينة والياً ليقضي بين الناس ويجبي ما خصص له من إيرادات في آن واحد، ويمكن أن يبلغ خراج ميلة زهاء أربعة آلاف دينار، لكن كثيراً ما يقتل هؤلاء الولاة بسبب قساوة أهل البلاد.

---

(24) بل 32 ميلاً. وذكر أحمد توفيق المدني في كتاب الجزائر (ص. 241) أن هذه المدينة كانت تُعرف في القديم باسم ميلو، وأن سورها من بناء الامبراطور الرومي جوستينيان سنة 540 للميلاد، وبها بناء إسلامي عتيق يدعى القصبة، عليه كتابات عربية أثرية.

(25) اشتقاق غير صحيح.

مدينة بُونَة (عَنَّابَة)

بونة أو عنّابة[26] مدينة عتيقة بناها الرومان على ساحل البحر المتوسط على بعد نحو مائة وعشرين ميلاً غرباً[27]، وكانت تسمّى قديماً أوربونة، وفيها كان سان أوكيستان حين كانت خاضعة للقوط (الوندال)، ثم فتحها عثمان ثالث الخلفاء الراشدين، بعد محمد ﷺ فخرّبها وتركها خالية بعد أن نهبها وأحرقها[28].

وقد بُنيت بعدها مدينة أخرى تبعد عن الأولى بنحو ميلين، واستعملت في بنائها أحجار المدينة القديمة. وهي مشهورة عند الكثير من الناس باسم بلد العنّاب لكثرته في ذلك المكان. يجفّف هذا العنّاب ويؤكل في فصل الشتاء. وتضم المدينة حوالي ثلاثمائة كانون، وهي كثيفة السكان لكن الدُور الجميلة بها قليلة، وفيها جامع في غاية الحسن مشيّد على شاطئ البحر.

والرجال فيها ظرفاء، بعضهم تجار وبعضهم صنّاع وحاكة، يبيعون كميّة وافرة من قماش الكتّان في مدن نوميديا، إلا أن أهل عنّابة متكبّرون شرسون إلى حد أنهم لا يرضون فحسب بقتل حكّامهم، بل يتجرّأون على التهديد بتسليم المدينة إلى النصارى إن لم يرسل إليهم الملك حكّاماً مستقيمين منصفين. ويضيفون إلى هذه العجرفة سذاجة كبيرة، لأنهم

---

(26) في كتاب الجزائر (ص. 223-224) أن عنّابة كانت مركزاً قرطاجنياً، ثم أصبحت مرسى رومانيا تحت اسم هيبون، ومن بعد صارت بونة العربية مدينة العنّاب... وعلى مقربة منها توجد آثار هيبون العتيقة... وصهاريج رومانية عتيقة وقع إصلاحها وترميمها، وهي التي تمدّ المدينة اليوم بمياهها.

(27) لعل المراد جهة الشرق لا الغرب، لأنه يذكر موقع عنّابة بالنسبة لقسنطينة، والمسافة المذكورة تؤيّد هذا.

(28) لا يعرف في تاريخ الفتح العربي لشمال افريقيا أن المسلمين اجتازوا إفريقية أيام عثمان. وليس الحرق والنهب من شيمتهم على أي حال.

يعظّمون أقواماً يسيرون في المدينة كالمجانين، ويعتقدون أنهم من الأولياء الصالحين، ويحيطونهم بكل اعتبار وتقدير.

ليس في عنّابة عيون وإنما فيها صهاريج (نطافي) لخزن ماء المطر. وفي الجانب الشرقي من المدينة توجد قلعة كبيرة حصينة محاطة بأسوار سميكة من بناء ملوك تونس، وفيها يقيم الحاكم. وفي خارجِ المدينة تحرث البادية على مسافة نحو أربعين ميلاً طولاً وخمسة وعشرين ميلاً عرضاً وكلها صالحة للقمح. وتسكنها قبيلة عربية تدعى مرداس، تزرع الأرض وتملك عدداً كبيراً من البقر والثيران والغنم. وتعطي هذه الماشية الزبد بكثرة إلى حد أن الأعراب يكادون لا يحصلون في مقابله على مال، عندما يحملونه للبيع في عنّابة. وكذلك القمح. وتأتي كل سنة سفن عديدة من تونس وجربة ومن سائر السواحل، وكذلك من جنوة لشراء القمح والزبد، فتُستقبل بحفاوة كبيرة. ويُعقد السوق كل يوم جمعة خارج المدينة قرب الأسوار، ويستمر إلى المساء.

ويوجد غير بعيد من عنّابة شاطئ يكثر فيه المرجان، إلا أنه ليس لأحد الحق في صيده من البحر أو التقاطه من الشاطئ، لأن الملك أكرى هذا الشاطئ للجنويين الذين استأذنوه في بناء قلعة هناك بعد أن أقلقهم القراصنة، لكن السكان رفضوا ذلك بدعوى أن الجنويين قد استعملوا مرة سابقة هذه الحيلة واستولوا على المدينة ونهبوها ثم استرجعها منهم أحد ملوك تونس.

تِيفَشْ

مدينة بناها الأفارقة في العصر القديم على بعد نحو خمسين ميلاً جنوبي عنّـابة[29]. وكانت في الزمان الغابر متحضّرة كثيرة السكان، مزدانة

(29) تقع تيفش في الواقع على بعد نحو 80 ميلاً من عنّابة، ولا يشاهد منها الآن إلا بعض أنقاض للمدينة القديمة (تيباسا نوميدروم) في بلاد حقيقية نومدية. وهذا الاسم مثل واضح لنقل الأصوات البربرية إلى اللاتينية، حيث يحوّل حرف f إلى p وحرف ch إلى s.

ببناءات جميلة، لكنها دُمّرت عند قدوم الأعراب[30] إلى افريقيا، ثم عُمّرت من جديد ولم تصب مدة بضعة أشهر بأي أذى. ثم استولى عليها أعراب آخرون من جديد.

وأخيراً بقيت في ملك إحدى القبائل الافريقية، تدعى هوارة، لا تستعملها إلا كمستودع لحبوبها.

وأمير هوارة في عهدنا هذا يسمّى النّسر، جمع أفواجاً من الفرسان فحارب من أجل قبيلته حتى بلغت به الشجاعة أن يصمد في البادية رغمًا على الأعراب. وهو الذي قتل أمير قسنطينة الناصر ابن ملك تونس. ثم إن الملك نفسه مرّ بتيفش، بعد عودته مرة من نوميديا، فنهب وخرّب ما بقي قائمًا بها. وربما كانت هذه الأحداث قد وقعت عام 915 هـ.

تِبَسَّة

مدينة عتيقة حصينة بناها الرومان في تخوم نوميديا على بُعد مائتي ميل جنوب البحر المتوسط[31] تحيط بها أسوار عالية متينة سميكة، مشيدة بحجر ضخم منحوت شبيه بحجر الكوليزي في روما. ولم أر أسواراً من هذا الشكل لا في افريقيا كلها ولا في أوربا، لكن الدور بها قبيحة بقدر ما هي الأسوار جميلة. ويسيل قرب المدينة نهر عظيم[32] يخترق جزءاً من المدينة. وتشاهد في الساحة وفي أماكن أخرى أعمدة رخام منقوشة فيها الكتابة اللاتينية بحروف التاج، وبناية قائمة على أعمدة رخام مربعة تعلوها قبة. ورغمًا على أن التربة غير خصبة، فإن البادية منتجة، بحيث إن الآتي

---

(30) بنو هلال.

(31) اسمها الرومان ثيفيست (Theveste). ولا تبعد عن عنابة إلا بنحو 150 ميلاً فقط. وجاء في كتاب الجزائر ص201 أن مدينة تِبَسة ترتفع 900 متر عن سطح البحر، وهي مركز قبيلة النمامشة العربية البربرية العتيدة، وأنها في العصر الإسلامي كانت على الأكثر تابعة للدولة الأغلبية والدولة الحفصية.

(32) هو الآن جاف في معظم السنة.

إلى تبسة عندما يصل إلى مسافة أربعة أميال أو خمسة يخالها واقعة في غابة، لكن الأشجار ليست [سوى] أشجار جوز كبيرة[33].

وبجوار المدينة جبل كبير فيه عدة حفر أحدثت بالمعول، تعتقد العامة أنها كانت منازل للعمالقة، لكن من الواضح أن الرومان اقتطعوا من هناك الحجر الذي بنوا به أسوار تبسة.

وأهل تبسة بخلاء غلاظ شداد، لا يحبون رؤية أي غريب، حتى إن الدبّاغ الشاعر الشهير الذي أصله من مدينة مالقة الأندلسية، أسيء إليه لدى مروره بهذه المدينة، فنظم الأبيات الآتية التي أبيت إلا أن أذكرها، لأن هجاء هذا الشاعر يدل على الاحتقار الذي تستحقه تبسة.

لا شيء في تبسة ممّا هو جدير
بالتقدير والاهتمام غير شجر الجوز
معاذ الله! بل هناك الأسوار
وماء النهر الرقراق بجوارها؛ والمدينة خالية من الفضائل
وسأقول إنها الجحيم، والكثير من الخنازير
هم سكان بيوتها.
وكان الدباغ شاعراً عربياً مقذع الهجاء[34].

ولنعد إلى سكان تبسة فنقول إنهم عاشوا في ثورة دائمة ضد ملوك تونس، وقتلوا الحكام الذين أرسلوهم إليهم. ولما مرّ ملك تونس بهذه المدينة عند عودته الأخيرة من نوميديا واقترب منها بعث إليها بطلائع، ولما وصلوا إلى الأسوار نادوا: من هنا؟ فأجيبوا: السور الأحمر، يعنون سور المدينة، فغضب الملك وأمر بالهجوم عليها ودخلها عنوة، وشنق فيها

---

(33) اختفت في الوقت الحاضر أشجار الجوز التي كانت في ضواحي تبسة.

(34) لا نعرف شيئاً عن هذا الشاعر.

أكثر من مائة رجل. وأمر بذبح أكثر من مائة آخرين. ثم نهب المدينة حتى بقيت كأنها خالية. وكان ذلك في عام 915 هـ.

أُورْبَسْ

مدينة عتيقة بناها الرومان، كما يدلّ اسمها على ذلك[35]، وتقع في سهل جميل جداً هو زهرة أقاليم افريقيا كلها. أرضها خصبة جداً منبسطة تماماً مع سهولة كبيرة في السقي، وتزوّد هذه البادية بلاد تونس كلها بالقمح والشعير لأنها على بعد نحو مائة وتسعين ميلاً من الجنوب التونسي[36]. تكثر فيها الآثار الرومانية، من تماثيل رخامية وقطع مرمرية موضوعة في أعلى الأبواب عليها كتابات منقوشة بالحروف اللاتينية، مع كثير من الحجر المنحوت. وقد استولى القوط (الوندال) عليها لأن النبلاء الرومانيين الذين كانوا يستوطنون أفريقيا التجأوا إليها وجمعوا فيها كنوزهم. فبقيت خالية مدة من الزمان، ثم سكنت من جديد ولكنها ظلّت قرية.

ويمرّ بين قلعة هنالك ومدشرين جدول ماء صالح للشرب، يسيل في قناة حجارتها ناصعة البياض كأنها من فضة ويحرّك طاحونات للقمح. ينبع من ربوة بعيدة عن المدينة بنحو ميل ونصف ميل. ومدينة أُورْبَس متحضّرة قليلاً لأن سكانها منقسمون إلى طبقتين: النساجون والفلاحون، ويثقل ملوك تونس كواهلهم بالضرائب. ولو عرف هؤلاء الملوك ما تشتمل عليه هذه المنطقة من خصب وإنتاج سواء في الحبوب أو الماشية أو في غزارة المياه ونقاوة الهواء، لهجروا تونس بلا شك وسكنوها. ويعرف الأعراب ذلك

---

(35) كانت المستعمرة الرومانية لاريس يعبر عنها غالباً بلاريبوس، حسب اللغة اللاتينية، ثم استنسخ العرب هذا اللفظ صوتياً فكان الأربوس، وظن الكاتب أنه تحريف أوربس بمعنى المدينة. ولم يبق من هذه المدينة سوى الآثار على بعد نحو 30 كلم شرق الكهف.

(36) لا يفصل أوربس عن تونس إلا نحو تسعين ميلاً.

كله فيأتون كل سنة إلى بادية أوربس ويملأون أكياسهم قمحاً دون أن يؤدوا أي ثمن، ثم يعودون إلى الصحراء.

مدينة بَاجَة

مدينة عتيقة بناها الرومان على بعد نحو خمسة وعشرين ميلاً من البحر المتوسط، وثمانين ميلاً أو أكثر بقليل من تونس[37]. وبما أنها شيدت في موقع مدينة أخرى أطلقوا عليها اسم فيتشيا، ثم تحولت الفاء باء والكاف جيمًا فأصبح الاسم باجا[38]. وأعتقد أن الاسم الأول الذي سماها به الرومان فسد من جرّاء كثرة تقلّب الأمراء على المدينة وتغيّر الديانات فيها، إذ يلاحظ أن هذا اللفظ ليس عربياً. واحتفظت باجة بأسوارها العتيقة الأولية إلى يومنا هذا.

والباجيّون متحضرون بعض الشيء، ومدينتهم مصونة على أكمل وجه ومتوفرة على جميع أرباب الصنائع، خصوصاً النساجين؛ علاوة على عدد كبير من الفلاحين، لأن بادية باجة شاسعة الأطراف وافرة الإنتاج؛ إلا أن عدد الناس فيها لا يكفي لزرع الحقول، فيعمدون إلى الأعراب لزرع جزء كبير منها. ومع ذلك تبقى أراضٍ كثيرة بوراً، ويباع سنوياً عشرون ألف كيل «رودجي» من الحبوب.

ومن الأقوال المأثورة في تونس أنه لو كانت باجتان لفاق عدد حبات القمح عدد حبات الرمل. ويثقل ملك تونس كواهل سكان هذه المدينة بالضرائب إلى حد أنهم أخذوا ينحطون شيئاً فشيئاً ويفقدون الكثير من تربيتهم الحميدة.

---

(37) ليس بين باجة وتونس إلا نحو 65 ميلاً.

(38) كانت المدينة الرومانية تدعى «ڤاكا» فحوّلت إلى باجة العربية. أما فيتشيا فكلمة ايطالية لم يعرفها اللاتينيون.

عَين زَمّيت

بنى هذه المدينة ملوك تونس في عهدنا هذا، على بعد نحو ثلاثين ميلاً من باجة[39]، أسسوها لئلا يفقدوا هذا الجزء من الأراضي الخصبة التي لم تكن مزروعة، لكن الأعراب خرّبوها في بضعة أيام بموافقة ملك تونس، ورغم ذلك فما زالت الأبراج قائمة إلى الساعة الراهنة، وكذلك الدّور التي لا تنقصها إلا السقوف، كما شاهدت بنفسي.

القصَبَة

مدينة عتيقة بناها الرومان وسط سهل فسيح جداً يمتد شرقاً على مسافة اثني عشر ميلاً حول المدينة، وتبعد عن تونس بنحو أربعة وعشرين ميلاً[40]. وما زالت أسوارها قائمة، وهي مبنية بالحجر الضخم المنحوت، إلا أن المدينة خرّبها الأعراب وأصبحت أراضيها غير مزروعة، لا بسبب عجز ملوك تونس فقط، ولكن أيضاً بسبب كسل السكان الذين يموتون جوعاً رغم وجود أراضٍ في متناولهم تبلغ هذا الحد من الخصوبة.

شِيرْسْ

قصر شيّد في العهد الحديث على نهر مجردة، بعيداً عن تونس بنحو ثمانية أميال[41]، تحيط به أراضٍ جيدة، وتوجد بقربه غابة كبيرة من شجر

---

(39) يقال: إن السلطان أبا عمرو عثمان (1435-1488) بنى زاوية بعين زميت. أما الموقع الذي يذكره المؤلف فعلى بعد نحو 48 كلم من باجة، ولعله شرقاً وفي وادي الاثنين، فإنه غير معروف.

(40) بل 34 ميلاً وهي المسافة الحقيقة تقريباً بين تونس وهنشر القصبة التي تشكّل آثار توربُوبُو ماجُوس قرب قنطرة فحص.

(41) لم تحدد بعد هذه البلدة ولا ضبط اسمها. غير أن مذكرة اسبانية مؤرخة سنة 1536 عن القبائل العربية في الناحية تشير إلى أن أولاد علي من أولاد شيفة يقطنون شرس أولاد علي، بين باجة وأوربس. وإذا كان كذلك فالبعد من تونس 80 ميلاً لا 8.

الزيتون. خرّبه هو الآخر أعراب اسمهم بنو علي، كانوا يثورون دوماً على ملك تونس ولا يعيشون إلا من النهب والفتك والسلب للفلاحين المساكين الذين تزيد الضرائب الباهظة المفروضة عليهم بكثير على الضرائب العادية.

بَنْزَرْتْ

بنسرت أو بنزرت كما نقول مدينة عتيقة بناها الأفارقة على ساحل البحر المتوسط، على بعد نحو خمسة وثلاثين ميلاً من تونس. وهي صغيرة يسكنها قوم فقراء، ويدخل البحر قرب المدينة داخل الأراضي من حلق ضيق قصير، يتسع جنوباً إلى أن يكوّن شبه بحيرة كبيرة تحيط بها مداشر عديدة لصيادي السمك والفلاحين، إذ يمتد غربها سهل عظيم يسمى سهل ماطر. وهذا السهل منتج إلى أقصى حد، لكنه مثقل بالضرائب الجسيمة التي يفرضها عليه ملوك تونس والأعراب. ويصاد من البحيرة كمية وافرة من السمك، خصوصاً سمك المرجان الكبير الذي يزن من خمسة إلى ستة أرطال. وعند انتهاء شهر أكتوبر يصطادون نوعاً من السمك يسميه الأفارقة زرافة، واظن أنه هو الذي يحمل اسم لاتشيا[42] في روما. ذلك لأن ماء البحيرة يعود أكثر عذوبة عندما ينزل المطر، فيدخل إذذاك السمك إليها، بالإضافة إلى أن البحيرة قليلة العمق. ويستمر الصيد حتى أوائل ماي، ثم يهاجر السمك، كما يهاجر السمك الذي يصاد في النهر الجاري بقرب فاس.

قرطاج المدينة العظمى

قرطاج مدينة عتيقة، كما هو مشهور. يزعم البعض أن مؤسسيها قوم جاءوا من الشام، ويرى البعض الآخر أن مؤسسيها جاءوا من أرمينيا

(42) هو الشابل.

فاجتازا بحر المورة وتوقفوا بالمنطقة حيث بنوا المدينة. ويقول المؤرخ ابن الرقيق إن مؤسسيها قوم جاءوا من برقة بعد أن أجلاهم ملك مصر عن مملكته. فلا أحد إذن من المؤلفين الأفارقة يقول ويعرف الحقيقة، فضلاً عن أن المؤرخين والجغرافيين الأفارقة مثل ابن فيشيد[43] والشريف الإدريسي لم يذكروا شيئاً عن هذه المدينة إلا بعد سقوط الامبراطورية الرومانية، وفي ذلك العهد كان جميع الحكام ونواب الامبراطور الذين يوجدون بافريقيا قد بقوا فيها كأمراء مستقلين بمختلف المناطق. غير أن القوط (الوندال) انتزعوا الحكم منهم. ولما جاء المسلمون إلى افريقيا واستولوا على طرابلس الغرب وقابس، غادر جميع السكان هاتين المدينيتين وسكنوا قرطاج حيث تجمّع النبلاء من الرومان والقوط، فتحالفوا للصمود أمام الجيوش الإسلامية، إلا أن الرومان فروا إلى عنابة بعد وقائع متتالية، وترك القوط قرطاجنة فنهبت ودمرّت[44].

بقيت المدينة مهجورة مدة من الزمان إلى أن جاء الخليفة الشيعي المهدي فعمّرها من جديد، لكن لم يُسكن منها حينئذ سوى نصف عشر مساحتها. وما زال يشاهد بها الآن هنا وهناك أسوار كاملة، فضلاً عن خزان ماء ذي سعة كبيرة جداً. كما أن القناة التي كانت تحمل الماء إلى قرطاجنة من جبل يبعد عنها بثلاثين ميلاً ما زالت كاملة، وعلوها يوازي علو القناة التي كانت تحمل الماء إلى القصر الكبير بروما[45]. وقد زرت مأخذ الماء الذي كان يزود قناة قرطاجنة[46]. وتظّل القناة على مستوى سطح الأرض على طول 10 أميال، لأن الأرض مرتفعة بقرب الجبل، وكلما

(43) لعله تحريف لابن الرقيق.

(44) وذلك حوالي عام 74 هـ / 693م.

(45) وهو البالاتين.

(46) وهو نيمفيا الروماني الواقع على 55 كلم. جنوب تونس قرب مدينة زغوان الصغيرة، والذي تجتمع فيه مياه مختلف عيون جبل زغوان.

ابتعدت عنه انخفضت، وأخذت القناة حينئذ ترتفع شيئاً فشيئاً حتى تصل الى قرطاجنة. ورأيت كذلك في خارج المدينة عدة بنايات عتيقة لا أتذكرها الآن بصورة دقيقة.

ويحيط بقرطاجنة، ولا سيما من جهتي الغرب والجنوب، عدد كثير من الحدائق المليئة بالثمار، التي لا يقل الاعجاب بضخامتها عن الاعجاب بجودتها. خصوصاً منها الخوخ والرمان والزيتون والتين. ومن هذه الحدائق تتزود تونس بالفواكه. والأراضي المجاورة لقراطجنة صالحة للزراعة، لكنها ضيقة جداً، حيث يحدها شمالاً الجبل والبحر وبحيرة حلق الواد، كما تحدها شرقاً وجنوباً سهول بنزرت التي تكون جزءاً من اراضي هذه المدينة[47]. وقد نزلت قرطاجنة المسكينة في الوقت الحاضر إلى الدرك الأسفل من الشقاء فلا يوجد فيها سوى عشرين أو خمسة وعشرين دكاناً، ونحو خمسمائة دار قبيحة متهدمة، لكن بها جامع جميل شيد حديثاً ومدرسة ليس بها أي طالب، بحيث أن مداخيل (أوقافها) تدفع الى بيت مال الملك.

وسكان قرطاج معجبون بأنفسهم إلى أقصى حد، لكنهم فقراء بؤساء، يتظاهرون بالتقوى، ويشتغل معظمهم بزراعة الخضر والحبوب، ويثقل الملك كواهلهم بالضرائب حتى لا يستطيع أحد منهم أن يملك عشرة مثاقيل. وهذا جور معروف لدى الجميع.

مدينة تونس الكبرى

يسمي اللاتينيون هذه المدينة تونيوتوم، ويسميها العرب تونس، لكن هؤلاء يعتقدون أن هذا الاسم محّرف، إذ لا مدلول له في لغتهم. وكانت تدعى في غابر الأزمان ترسيس كنظيرتها الأخرى في آسيا[48]. وكيفما كان

---

(47) ليس من الصعب تصحيح هذا التوجيه، فالبحر في شمال قرطاجنة وشرقها، وبحيرة تونس في جنوبها، والتلال في غربها، والسهل وراء هذه المرتفعات.

(48) يقارب الحسن الوزان هنا اسم تارس (مدينة طرسوس الحالية بتركيا) باسم ترسيس أو ترشيش المذكورة في التوراة والتي يمكن أن تكون منطقة ويلبا أو إشبيليا باسبانيا. =

الأمر فإنها كانت في البداية مدينة صغيرة من تأسيس الأفارقة على ضفة البحيرة المكونة من قناة (حلق الوادي) بعيدة عن البحر المتوسط بنحو ميلين.

وعلى أثر تخريب قرطاج، بدأت مدينة تونس في النمو سواء في عدد المنازل أو عدد السكان. فالجنود الذين احتلوا قرطاج، أبوا الإقامة بها خشية مجيء مدد للعدو من اوربا. فسكنوا بتونس وبنوا بها دوراً، ثم جاء قائد من قبل عثمان ثالث الخلفاء الراشدين، اسمه عقبة، فأمر جيشه ألا يقيم في أية مدينة تقع قرب البحر أو على الشاطئ ذاته. لذلك بنى المدينة التي سميت القيروان على بعد ستة وثلاثين ميلاً من البحر ومائة ميل من تونس. فغادر الجنود تونس واستقروا بالقيروان، ودخل أهل تونس الديار التي أخلاها الجنود.

وبعد مرور قرابة ثلاثمائة وخمسين سنة، دمّر الأعراب القيروان على أثر ثورة والي افريقية الذي تركه بها الخليفة القائم، حتى إن هذا الوالي فرّ تجاه الغرب وحكم بجاية وجميع البلاد المحيطة بها[49].

= وذكر حسن حسني عبد الوهاب في كتابه ورقات (290:1) أن اسم تونس فينيقي الأصل (Thunes) ورد بين القرى التي كانت موجودة في عصر القرطاجنيين ثم في عصر الرومانيين والبيزنطيين، إلا أنها لم يكن لها نصيب كبير من تاريخ البلاد، إلى أن جاء القائد حسان بن النعمان عام 69 هـ لحصار قرطاجنة فاتخذ قرية تونس قاعدة لمعسكره، وبعد أن تم له الاستيلاء على قرطاجنة أنف أن يعيد لها العظمة القديمة وتركها تبيد متخذاً بدلها تونس، فعمّرها وبنى فيها جامع الزيتونة، وحفر خليجاً متسعاً يصل بحيرتها بالبحر من جهتي رادس وحلق الوادي.

(49) خرج المعز بن باديس إلى المهدية في رمضان عام 449 /نونبر 1057 وذلك بعد أن انهزم أمام أعراب بني هلال وصالحهم وأخلى لهم القيروان. ويخلط الحسن الوزان هنا بين الإمارتين الصنهاجيتين: إمارة القيروان الشرقية، وإمارة قلعة بني حماد الغربية.
انظر: تفاصيل ذلك عند حسن حسني عبد الوهاب، **خلاصة تاريخ تونس**، 109-115.

وبقيت بتونس أسرة منتمية إلى والي افريقية، كان منها الأمراء الذين حكموا تونس.

وبعد مرور عشر سنوات طرد يوسف بن تاشفين أمراء بجاية وأقرّ أمراء تونس في مناصبهم لما رأى فيهم من ذلة وخضوع، لكن عبد المومن ملك مراكش حينما استرجع المهدية التي كانت قد سقطت في أيدي النصارى، مرّ بتونس عند عودته وعزل هؤلاء الأمراء(50).

وعاشت تونس آمنة مطمئنة طوال عهد ملوك مراكش: عبد المومن وابنه يوسف وحفيده يعقوب المنصور. ولما مات المنصور شنّ ابنه محمد الناصر حرباً ضد ملك اسبانيا، لكنه هزم وفرّ إلى مراكش ولم يعش بعد ذلك إلا بضع سنين(51). ثم بويع أخوه يوسف بعد موته وقتل على يد جنود ملك تلمسان(52) وعاد الأعراب إلى سكنى ولاية تونس أثناء هزيمة الناصر وموت أخيه يوسف، وحاصروا مراراً حاكم تونس. فأرسل إلى ملك مراكش يخبره أنه سيضطر إلى تسليم المدينة إلى الأعراب إن لم يصله المدد

(50) توقفت فتوح المرابطين عند جزائر بني مزغنة (الجزائر) ولم يجُلبوا على ما وراءها من البلاد الواقعة تحت نفوذ الإمارتين الصنهاجيتين بقلعة بني حماد والمهدية اعتباراً للحمية الصنهاجية. أما عبد المومن فإنه بعد أن أتم تمهيد بلاد المغرب والأندلس، خرج للقضاء على اضطرابات افريقية وعلى المتنافسين فيها من أمراء صنهاجة وأعراب، فدخل الجزائر وبجاية وقلعة بني حماد وقسنطينة، ومهّد كل تلك البلاد عام 547. ثم زحف عبد المومن على افريقية مرة ثانية براً وبحراً عام 1159/554 على أثر استصراخ أهلها به من تعسفات المسيحيين الذين أخذوا يعيثون في الأرض فساداً، ينهبون ويقتلون ويسرقون المسلمين دون أن يستطيع الأمراء الصنهاجيون المحليون دفاعاً. فدخل تونس وقضى على أمرائها العاجزين، ثم طرد المسيحيين من زويلة والمهدية (عام الأخماس 1160/555) واستولى على صفاقس وسوسة وجبال نفوسة، وقابس وقفصة وطرابلس، وبذلك توطّد حكمه من برقة إلى المحيط. انظر: تفاصيل ذلك عند أحمد الناصري، **الاستقصا**، 2:107-124.

(51) يشير إلى وقعة العقاب المشؤومة منتصف صفر سنة 609 / يوليوز 1212، وكانت وفاة الناصر في 11 شعبان 26/610 دجنبر 1213.

(52) بل الذي بويع بعد الناصر هو ابنه يوسف المنتصر بالله، ومات في بستانه الكبير بمراكش، طعنته بقرة شاردة في صدره يوم 12 ذي الحجة 620 / 5 يناير 1224.

عاجلاً، فرأى الملك أن لا بدّ من رجل محنّك للقيام بمثل هذه العملية الخطيرة، فاختار من بين حاشيته رجلاً من مدينة إشبيلية الأندلسية يدعى عبد الواحد(53) وأوفده إلى تونس بالتفويض الكامل. ولما وصل إليها على رأس ثلاث وعشرين سفينة كبيرة وجد الأعراب قد دمروا نصف المدينة فأصلح من أمرها بفضل كياسته وذلاقة لسانه، وأمّن الولاية وجبى الخراج من جميع البلاد. ثم خلفه ابنه أبو زكريا ففاق أباه سياسة وذكاء، وشيّد بتونس في أعلى قسمها الغربي قلعة كبيرة وقصوراً جميلة وجامعاً حسناً ذا صومعة عالية، وكان بناء ذلك كله في غاية الاتقان(54). زحف أبو زكريا بجيشه إلى أن بلغ طرابلس، ثم عاد مخترقاً بلاد الجنوب لأخذ خراجها حتى أنه خلّف أموالاً طائلة بعد موته. ثم ولي الأمر بعده أحد أبنائه، وكان شاباً متكبراً لم يرض بالاعتراف بملوك مراكش الذين أخذت دولتهم تنحّط إذ ذاك، وبدأ بنو مرين ينشرون نفوذهم في أقاليم فاس، بينما كان بنو زيان قد أسسوا مملكة تلمسان، وثارت الأندلس كذلك وطردت ولاة ملوك مراكش من شبه الجزيرة، بالإضافة إلى أن السلطة في مراكش أصبحت هدفاً للمنازعات والمؤامرات، فابن الأخ يقاتل عمه والأب يعمل ضد ولده، فشعر عاهل تونس حينئذ بقوته وشنّ الغارة على تلمسان، وفرض الخراج على ملكها. علم الملك المريني بذلك وهو يخوض الحرب ضدّ مراكش، فأرسل إلى عاهل تونس بهدايا ثمنية، وأوصاه خيراً بشخصه

---

(53) اختلط الأمر على المؤلف هنا، فالناصر هو الذي ولى ثقته وزيره عبد الواحد الهنتاني ـ لا الأندلسي ـ ابن الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى أحد ركائز دولة الموحدين وجد ملوك تونس الحفصيين، ولاه على تونس بعد أن مهدها في حركته الطويلة الشهيرة وطرد عنها ابن غانية عام 603 / أبريل 1207. انظر: تفاصيل ذلك في **الاستقصا**، 2:191-193.

(54) القصبة قديمة من عهد الأغالبة، وإنما بنى أبو زكريا جامع القصبة وصومعته الجميلة، وداراً للكتب في قصره بها، كما أسس أيضاً عدداً من المساجد والمدارس وسوق العطارين بتونس. انظر: حسن حسني عبد الوهاب، **خلاصة تاريخ تونس**، ص 129.

ودولته. فرضي بذلك واعتبره صديقاً ولو أنه كان ــ في نظره ــ أقل منه رتبة بكثير، وعاد إلى تونس منتصراً واستقبل بحفاوة كبيرة ونودي به ملكاً على افريقية. وبدأ بتنظيم حاشيته الملكية من كتاب ومستشارين وقائد عام للجيش. مطبقاً كل المراسم المعروفة في بلاط مراكش.

ولم تزل تونس تنمو، منذ ذلك العهد إلى أيامنا هذه، سواء من حيث السكان أو الامتياز على غيرها حتى أصبحت غرّة مدن افريقيا.

ثم مات هذا الملك وخلفه ابنه فبنى أربعة أرباض في ضواحي تونس[55]، أحدها خارج باب يسمى باب السويقة ويضم حوالي ثلاثمائة كانون، وآخر خارج باب المنارة ويضم نحو ألف كانون، وكلاهما عامر بعدد لا يحصى من الصنّاع والصيادين والعطارين وغيرهم. ويوجد في هذا الربض حارة تكون هي الأخرى شبه ربض صغير يسكنه نصارى تونس الذين يستخدمون في حرس الملك أو يزاولون حِرفاً لم يعتد المسلمون ممارستها. ثم امتد ربض آخر خارج باب البحر على بعد نحو نصف ميل من بحيرة قناة حلق الواد، ينزل به التجار الأجانب أمثال الجنويين والبنادقة والقطلونيين، ولهم فيه فنادق وملاجئ خاصّة. وهذا الربض كبير يضم نحو ثلاثمائة كانون من بين النصارى والمسلمين. وتمتاز مدينة تونس حقاً بجمالها الفائق، ونظامها الرائق. لكل من أرباب الحرف موقعهم الخاص، بالإضافة إلى كثرة السكان وكثافتهم، وجلّهم نسّاجون، يصنعون فيها كمية عظيمة من القماش البالغ حد الاتقان، يباع في افريقيا كلها بأثمان باهظة، لأنه رفيع ومتين. والنساء يُتقنَّ الغزل غاية الإتقان، فيجلسن في مكان مرتفع ويرخين المغزل كثيراً إلى أسفل، يقعدن مثلاً في نافذة

---

(55) لم يذكر المؤرخون التونسيون، كابن أبي الضياف، أن محمد المستنصر الذي خلف والده أبا زكريا يحيى في الحكم بنى هذه الأرباض، مع استقصائهم لآثاره العمرانية. ويمكن أن تكون الأرباض المذكورة هنا مجرد وصف لتونس كما شاهدها المؤلف في أوائل القرن العاشر الهجري.

انظر: كتاب ابن أبي الضيّاف، إتحاف أهل الزمان، 1:160-163.

ويتركن المغزل ينزل إلى ساحة الدار، أو ينزل من ثقب السقف بين طابق وآخر، فيتكون الخيط بواسطة ثقل المغزل ويأتي جيد الانبساط والفتل منتظم الغلظ.

تضمّ بعض أسواق تونس عدداً كبيراً من تجار القماش الذين يعتبرون أغنى سكان المدينة، كما تضمّ غيرهم من التجار والصناع، كالعطارين وبائعي الأشربة والعقاقير المحلاّة بالسكر، وتجار العطور والحرير، والخيّاطين والسراجين والفرّائين والفاكهانيين واللبّانين والخبّازين (صانعي الفطائر) والقصابين الذين يذبحون الخرفان أكثر من غيرها لا سيما في الربيع والصيف، إلى غير ذلك من الحرف التي تمارس في هذه السوق ولا فائدة في ذكرها.

وأهل تونس على جانب كبير من الطيبوبة واللياقة. يرتدي الصنّاع والتجار والفقهاء وجميع من يتقلد وظائف لباساً ممتازاً، ويضعون على رؤوسهم عمامة (قلنسوة) مكسوة بقماش طويل، وكذلك العسكريون وأصحاب الحاشية، إلا أنهم لا يضعون قماشاً على القلنسوة. وعدد الأغنياء قليل بسبب قلة القمح الذي يساوي ثلاثة مضاعفات(55م) للحمل، أي أربع أوقيات (دوكات ايطالية). وذلك ناتج عن كون السكان لا يستطيعون زرع الأراضي المجاورة لتونس خوفاً من تعسف الأعراب. فيجلب القمح من بعيد، من أوربس وباجة وخصوصاً من عنابة، إلا أن لبعض أهل المدينة ممتلكات صغيرة في الضواحي القريبة يزرعون فيها قليلاً من الشعير والقمح. ولّما كانت هذه الأراضي مفتقرة إلى السقي فإن لكل منها بئراً يؤخذ منها الماء في قنوات محكمة البناء ويرسل بواسطة آلة مكوّنة من عجلة (ناعورة) يحرّكها بغل أو جمل فتسقي المزروعات. تصوّروا مقدار الحبوب التي يمكن استخراجها من حظيرة صغيرة مسورة تتطلّب كل هذه العناية والخدمة، وفي النهاية لا يحصل أي واحد منها على ما يكفيه لنصف السنة، ومع ذلك فإن الخبز بتونس في غاية الجودة؛ أبيض مخبوز كما يجب، إلا أنه

(55م) راجع الحاشية رقم (19) السابقة ومرجعها في المتن ـــ المشرف.

لا يصنع من الدقيق فقط، بل يخلط بالسميد ويعالج بكامل العناية، خصوصاً لتهييء العجين الذي يخبط بمدقة مثل التي يخبط بها الأرز للتقشير في مصر. ومن عادة التجار والصناع وغيرهم من سكان المدن أن يتناولوا في النهار طعاماً خشناً من دقيق الشعير الممزوج بقليل من الماء الخاثر كالصمغ، يضاف إليه قليل من الزيت أو عصير الليمون الحامض أو البرتقال. يحتسون هذا العجين نيئاً قليلاً قليلاً دون مضغ، ويسمونه البسيس وهو كريه. وهناك سوق لا يباع فيه غير دقيق الشعير لصنع البسيس. ولهم طعام آخر من هذا النوع إلا أنه أجود منه وذلك بأن يؤتى بعجين خفيف يطبخ في الماء، فإذا نضج، عُجن في إناء وجُمع في وسطه، ثم سُقي بالزيت أو مرق اللحم ويبلعونه دون مضغ كذلك، ويسمونه البازين. وهناك أطعمة أخرى أكثر تعقيداً وأوفر حظاً من العناية.

لا توجد طاحونات يحركها الماء، لا داخل تونس ولا خارجها، بل تدار كلها بالدواب، بحيث أن الطاحونة تكاد لا تطحن سوى حمل من القمح في اليوم. وليس في تونس عين ولا نهر ولا بئر، بل تستعمل صهاريج لجمع ماء المطر، غير أنه يشاهد في ضواحي المدينة بئر صالح للشرب فيه شيء من الملوحة، يأتي إليه السقاؤون بدوابهم وقربهم؛ فيملأون هذه القرب ماء وينطلقون لبيعها في المدينة، ويشرب الناس منه لأنه أنقى من ماء الصهريج. وفي خارج المدينة آبار أخرى جيدة الماء إلا أنها مخصصة للملك وحاشيته. ولمدينة تونس جامع كبير في غاية الجمال والسعة[56] كثير المتسخدمين عظيم الموارد، وجوامع أخرى في المدينة وفي الأرباض أقل أهمية من الجامع الكبير، وفيها عدة مدارس للطلبة، وبعض الزوايا للمريدين المتنسكين، وتكفي أوقاف هذه المؤسسات الدينية للانفاق عليها لتستمر في القيام بوظائفها بكيفية لائقة. ويشترك جميع أهل تونس في اعتقاد ساذج يرى أن كل من يرمى بالحجر هو من الصالحين. وفي أثناء

---

(56) جامع الزيتونة الشهير.

إقامتي بتونس أمر الملك ببناء زاوية جميلة جداً لأحد هؤلاء المجاذيب المسمى سيدي الداهي. وكان هذا الرجل يمشي في الأزقة مرتدياً كيساً، عاري الرأس، حافي القدمين، يضرب بالحجر ويصيح كالمسعور، فأجرى عليه الملك إيراداً حسناً يعيش به هو وعائلته.

ومعظم الديار حسنة المنظر مبنية بحجارة مزلوجة ومنحوتة على أكمل وجه، سقوفها مزدانة بالفسيفساء والجص المجزع بطريقة فنية عجيبة، ومصبوغة باللازورد وغيره من الألوان الرفيعة. ذلك لأن الألواح وأخشاب البناء نادرة جداً، ولا يمكن أن يصنع بما يتوفر منها محلياً إلا قناطر قبيحة. وتبلط الحجرات بمربعات لماعة ذات لون فاتح، وتبلط أيضاً الساحات كذلك بقطع لماعة. وغالب المنازل ليس بها سوى طابق أرضي، ومدخلها جميل ذو بابين أولهما يُفضي إلى الخارج، والآخر يتصل بالمسكن ويرقى إليه بسلم من بضع درجات مزدانة بتبليط جميل. ويتنافس السكان في تجميل مداخل بيوتهم لتكون أكثر أناقة وزخرفة من غيرها، لأن هناك يجتمع الناس للتحدث مع أصدقائهم أو لقضاء بعض الشؤون مع خدامهم.

الحمامات متعددة، وهي أكثر تنسيقاً وتسهيلاً من حمامات فاس، إلا أنها أقل منها حسناً وسعة. وتوجد في خارج تونس ممتلكات بديعة تنتج فواكه عجيبة بكميات قليلة لكنها في غاية الجودة. وهناك عدد لا يحصى من البساتين المغروسة بالبرتقال والليمون، والورد وغيره من الأزهار الجميلة، خصوصاً في مكان يدعى الباردو حيث بساتين الملك وقصوره الفخمة البهية بمختلف النحوت والرسوم الجميلة.

ويحيط بالمدينة على مسافة أربعة أميال إلى ستة أميال بساتين زيتون عديدة تنتج كمية عظيمة من الزيت لا تزود تونس فحسب، ولكن تصدر أيضاً إلى مصر. ومن خشب الزيتون يصنع الفحم الذي يستعمل في المدينة، ويتخذ بعضه حطباً للتسخين، حتى أنك لا تجد مدينة أخرى في العالم يفتقد فيها الخشب كما يفتقد في تونس. وبالتالي فإن البؤس الذي يفتك بضعفاء

الشعب في تونس يؤدي بكثير من النساء إلى الاتجار بمفاتنهن بأبخس الأثمان، ويدفع بالغلمان إلى التعرض للرجال، وهم أشد دناءة ووقاحة ورذالة من العاهرات.

ومهما يكن من أمر، فإن السيدات التونسيات يرتدين لباساً حسناً ويتأنقن في زينتهن، ويسترن وجوههن عندما يخرجن مثلما تفعل الفاسيات: يغطين الوجوه بوضع خمار يدعى سفساري على عصابة عريضة جداً يعصبن بها جباههن، بحيث تبدو رؤوسهن وكأنها رؤوس عماليق، لا يشتغلن بغير زينتهن وعطرهن، حتى إن العطارين هم دائمًا آخر من يغلقون دكاكينهم.

ويتناول التونسيون عادة بعض المستحضرات المسماة بالحشيش، وثمنه مرتفع، إذا أكل الإنسان منه أوقية استخفه المرح وأخذ يضحك ويأكل ما يأكله ثلاثة رجال، ويصير أسوأ حالاً من الثمل. وهذا المخدر يقوي على الجماع بكيفية غريبة.

بلاط الملك ونظامه وتقاليده وموظفوه

يُعيَّن ملك تونس عن طريق الوراثة باختيار من أبيه، فيبايعه الأعيان من قواد وفقهاء وأئمة وقضاة وأساتذة. وعندما يموت ملك ينصب خلفه على العرش بمجرد ما يختار ويبايعه الجميع على السمع والطاعة.

ويأتي بعد الملك الشخص الذي يحتل أعلى رتبة ويسمى المنفذ، وهو كنائب الملك في حكم المملكة، يعرض على الملك جميع القضايا الإدارية التي أنجزها، ويعين الموظفين في مناصبهم بموافقة الملك، ويطلعه على جميع التفاصيل المتعلقة بهؤلاء الموظفين، وعلى النفقات العسكرية.

ويسمى صاحب المنصب الثاني المزوار، وهو شبه القائد العام، له السلطة المطلقة على الجنود والحرس الملكي. يستطيع أن يوزع عليهم

الأجور، وينقص منها أو يزيد فيها كيفما شاء، ويمكنه أن يرقي ويعطي الأوامر بتحركات الجيوش، إلى غير ذلك، غير أن الملك يحرص الآن على الاشتغال شخصياً بهذه القضايا.

والثالث في شرف المرتبة هو قائد القصر المكلف بحرس القصر والبنايات التي يشغلها هذا الحرس، وبالقصور الملكية والسجناء المعتقلين بالقصر لجنايات قليلة الأهمية. وله الصلاحية أيضاً في الحكم بين الناس الذين يعرضون قضاياهم عليه كما لو كان هو الملك نفسه.

والرابع في الرتبة هو والي تونس الذي له الصلاحية في النظر في القضايا الجنائية، وإصدار الأحكام حسب خطورة الجريمة.

والخامس هو الكاتب الأعظم الذي يكتب ويجيب باسم الملك، وله الحق في فتح رسائل جميع الناس ما عدا رسائل الموظفين السامين السابقين.

والسادس هو قائد الايوان، يكلف كل يوم مجلس بتفريش المكان بالزرابي والطنافس، وتعيين مقعد كل عضو من أعضاء المجلس، ويطلب من السعاة باسم الملك الإعلان عن القرارات المتخذة في المجلس أو إلقاء القبض على شخصية هامة. ولهذا الموظف صلة وثيقة بالملك لأنه يستطيع أن يكلمه متى يشاء.

والسابع هو الأمين الذي يستلم المال من الجباة ويدفعه إلى أصحاب بيت المال. ثم يصرفه وفق أوامر الملك، أو الوزير الأول مع المصادقة عليه بخط الملك.

والثامن هو مدير المكْس، يقبض الرسوم المفروضة على البضائع الداخلة إلى تونس براً والرسوم التجارية التي يؤديها التجار الغرباء عن تونس، ومقدارها اثنان ونصف بالمائة. ولهذا الموظف عدد كبير من الأعوان الذين يسوقون إليه كل غريب تبدو عليه علامة الثراء بمجرد ما يدخل المدينة. وإن لم يكن المدير حاضراً وضعوا الغريب في السجن حتى يأتي

فيلزمه بدفع كذا بالمائة من المال الذي يحمله، ويأمره بأن يُقسم بالأيْمان المغلظة على صحة ما صرح به.

والتاسع هو مدير الجمرك، ومهمته جمع الرسوم الجمركية المفروضة على البضائع التي تخرج من تونس للتصدير بحراً، وكذلك على البضائع الواردة عن طريق البحر. وتسند هذه المهمة عادة إلى أحد اليهود الأغنياء. ويوجد مركز الجمرك على بحيرة قناة حلق الوادي قرب تونس.

والعاشر هو القائم بالصرف، وهو شبه قهرمان مكلف بتزويد القصر الملكي بالخبز واللحم وغيرهما من الضروريات، كثياب حرم الملك وبناته، والخصيان والاماء السود الخاصات بحجرات الملك. وهو الذي يسدد نفقات صبيان الملك ومرضعاتهم، ويوزع بين العبيد المسيحيين الأعمال المسندة إليهم، سواء داخل القصر أو خارجه، ويزودهم بالمأكل والملبس حسب حاجاتهم.

تلك هي الوظائف الرئيسية والمناصب المهمة في هذا البلاط. وهناك وظائف أخرى أقل رتبة، مثل قائد الاصطبلات، وقائد الصوان، والإمام، وقاضي المعسكر، ومعلم أبناء الملك، وقائد السيافين، وغيرهم.

ولملك تونس ألف وخمسمائة فارس، جلهم من النصارى المعتنقين للإسلام، يتقاضى كل واحد منهم مرتباً له وآخر لفرسه. ولهؤلاء الفرسان قائدهم الخاص الذي يعينهم أو يعفيهم من الخدمة كما يشاء.

وهناك مائة وخمسون من فرسان الملك المولودين على الإسلام، وهم المستشارون العسكريون للملك فيما يخص الأوامر الصادرة والقضايا المتعلقة بالحرب، فهم شبه ضباط أركان الحرب.

وللملك كذلك مائة من الرماة، أكثرهم نصارى أسلموا، يصحبون الملك دائمًا عندما يركب، سواء في المدينة أو في خارجها. إلا أن الذين يلونه مباشرة ويحيطون به هم حرسه السري المؤلف من المسيحيين القاطنين

في الربض الذي تحدثنا عنه، ويتقدمه حرس آخر راجل مكون من أتراك مسلحين بالقسي والبندقيات.

ويتقدم أمام الملك رئيس السيافين، ممتطياً فرساً ومصحوباً من جانب بالضابط الذي يحمل حربة الملك، ومن جانب آخر بالضابط الذي يحمل ترسه، ومن ورائه حامل قوسه، ويسير حوله بعض الضباط مثل رؤساء أركان الحرب والحجاب المكلفين بالمراسم الملكية.

ذلك هو النظام الموضوع حسب القواعد المعهودة والعادات المألوفة في بلاط ملك تونس، لكنه معروض بصفة عامة، لأن الفرق شاسع بين الأسلوب العادي لحياة الملوك الأقدمين وأسلوب الحياة الخاص للملك الحالي. فهذا الملك حقاً مختلف تمام الاختلاف عن أسلافه طبعاً وعادة وسيرة. وسأخجل حقيقة إذا ذكرت العيوب الشخصية لأحد الملوك كيفما كان، لا سيما من أولاني منهم هذه العناية الفائقة. غير أنني لو تركت جانباً الحديث عن هذه النقائص فلا بد أن أقول إن هذا الملك بارع في استخلاص المال من رعاياه، فيعطي بعضه للأعراب وينفق سائره لبناء قصوره، حيث يعيش عيشة كلها مجون وخلاعة بين الموسيقيين والمغنين والمغنيات، تارة في القصبة وأخرى في بساتين عجيبة. إذا أراد رجل أن يغني أو يعزف على آلة موسيقية بين يديه بدأوا بعصب عينيه مثلما يفعلون بالبزاة، ثم يدخل إلى الحجرة التي يوجد بها الملك مع حظاياه[57].

ويزن الدينار الذي يضربه ملك تونس أربعة وعشرين قيراطاً أي ما يعادل (دوكة) وثلثاً مما يروج منها في أوربا، ويسك أيضاً عملة فضية مربعة الشكل تزن ستة قراريط، وتساوي ثلاثون منها أو اثنان وثلاثون منها ديناراً واحداً[58].

---

(57) يقصد أبا عبد الله محمد بن الحسن الحفصي المتوفى عام 1526/932.

(58) بقي الحفصيون يحافظون على النظام الموحدي في النقود. انظر حسن حسني عبد الوهاب **ورقات**، 1:455-460.

(نَابُولِي رَادِس)

مدينة صغيرة بناها الرومان على ساحل البحر المتوسط قرب قناة حلق الوادي، يسميها المغاربة نابل[59]. كانت قديماً عامرة بالسكان ومتحضرة جداً، لكن لم يبق بها إلا بعض الفلاحين الذين يزرعون الكتان ولا يحصدون غيره.

كَمَرْت

مدينة أخرى قديمة أيضاً ومجاورة لقرطاجنة، على بعد نحو ثمانية أميال[60] شمالي تونس، يعمرها كثير من زارعي الخضر الذين يحملون إنتاجهم إلى تونس. وينبت هناك أيضاً قصب السكر بكثرة ويباع في تونس، ويكتفي من يشتريه بمصه لأنهم يجهلون طريقة استخراج السكر منه.

المَرْسَى

مدينة صغيرة قديمة مبنية على ساحل البحر، وبها كان ميناء قرطاج. خربت في الزمان الغابر وبقيت خربة مدة طويلة، لكن يسكنها اليوم صيادون وفلاحون وقصارو الأقمشة، وتوجد بقربها القصور والضياع الملكية حيث يقضي الملك الحالي الصيف كله.

أَرْيَانَــة

مدينة صغيرة قديمة بناها القوط (الوندال) على بعد نحو ثمانية أميال من تونس. تشاهد غير بعيد منها عدة حدائق تنتج مختلف الفواكه، لا سيما الخروب. أسوارها عتيقة وسكانها فلاحون.

---

(59) يعني رادس التي هي المكسولة الرومانية. أما نابول القريبة من آثار نيابوليس العتيقة فتقع على الساحل الجنوبي لشبه جزيرة رأس بونة.

(60) بل 18 ميلاً.

الحَمَّامَات

مدينة حديثة بناها المسلمون وأحاطوها بأسوار متينة. تقع على بعد خمسين ميلاً[61] من تونس، ويسكنها فقراء مساكين كلهم صيادون وبحارون وفحامون وقصارو القماش. وقد أثقل الملك كواهلهم بالضرائب حتى كادوا يسألون الناس.

إِهْرِيقْلِيَّة

مدينة صغيرة بناها الرومان على ربوة قرب البحر، وخربها الأعراب[62].

سُوسَة

مدينة كبيرة عتيقة بناها الرومان على ساحل البحر المتوسط، على بعد مائة ميل من تونس، اتخذها المسلمون قاعدة لنائب الوالي لما ملكوها وملكوا الشاطئ . وهناك شيدوا قصر الوالي الذي أصبح اليوم شبه زاوية. تحيط بالمدينة أسوار جميلة، وفيها قصبة كبيرة حصينة. والمدينة نفسها أنيقة، وموقعها حسن. كانت في القديم عامرة متحضرة ذات منازل جميلة ما زال بعضها ماثلاً للعيان، وفيها أيضاً جامع في غاية الحسن. وفي خارج المدينة ممتلكات عديدة مغروسة بشجر الزيتون الذي تستخرج منه كمية وافرة من الزيت، وبشجر التين. وهناك أيضاً أرض صالحة لزراعة الشعير، لكن يتعذر استغلالها بسبب ثقل الإتاوات التي يفرضها الأعراب.

أهل سوسة مهذبون آدميون، يقتبلون الغريب بحفاوة، وجلهم بحارون في السفن التجارية الذاهبة إلى الشرق أو إلى تركيا، أو في سفن

---

(61) بل 40 ميلاً.

(62) هرقلة بالعربية، وهي هوريس كويلية الرومانية زارها التجاني ووصفها في رحلته ص 24-25.

القرصنة التي تهاجم مدن صقلية المجاورة أو غيرها من المدن الإيطالية. وسائر السكان من النساجين، والبقارين، والفخارين الذين يصنعون أباريق وأواني وقماقم وسائر أنواع أدوات الفخار غير المطلية، يزودون بها الساحل كله بما في ذلك مدينة تونس(62م).

لكن سوسة المسكينة خلت الآن من السكان بسبب جور الملوك وقمعهم. فلم يبق مسكوناً فيها سوى خمس الديار، كما لم يبق بها أكثر من خمسة أو ستة دكاكين لبقالين أو بائعي الجبن والخضر وغيرها من البضاعة التافهة. أقمت أربعة أيام في هذا الميناء بسبب عاصفة، وقد أسفنا جميعاً ورثينا للحالة التي توجد عليها المدينة.

المُنَسْتِير (63)

مدينة عتيقة بناها الرومان على ساحل البحر، بعيدة بنحو اثني عشر ميلاً عن سوسة، تحيط بها أسوار متينة عالية، ودورها مبنية في الداخل بعناية كذلك. ومما لا شك فيه أن أهلها فقراء إلى حد التسول، يرتدون لباساً حقيراً خشناً، وينتعلون نعالاً من الأسل البحري، وأغلبهم نساجون أو صيادون يقتاتون بخبز الشعير أو بذلك البازين المخلوط بالزيت الذي تحدثنا عنه آنفاً مثلما يفعله سكان جميع مدن الساحل، لأنه لا ينبت بها سوى الشعير. وأقص عليكم في هذا الصدد ما حدث لي أثناء سفري في سفينة مع سفير من هذه المدينة كان متوجهاً إلى تركيا. فبينما كنا نتبادل أطراف الحديث، إذ ذكر لي أن الملك أجرى له راتباً مؤلفاً من عدد من المثاقيل، ثم من أربعة وعشرين كيلاً (مودجياً) من الشعير في السنة، فقلت

(62م) زار التيجاني كذلك سوسة ووصفها في **الرحلة**، ص 25-55.

(63) أصل المنستير ــ على ما عند ح.ح. عبد الوهاب ــ **خلاصة تاريخ تونس** ص 74 ــ رباط للمسلمين لحماية الثغر من نصارى البحر المتوسط أسسه هرثمة بن أعين حين بعثه الرشيد والياً على افريقية عام 179.

له، ولم تكن لي أية خبرة بالبلاد، لا شك أن لك عدة خيول؟ فأجابني بالنفي، فقلت: فماذا تصنع إذن بهذا القدر من الشعير؟ فرأيته قد احمر وجهه، وفهمت أنه أراد أن يقول لي إنه يأكله. وتضايقت من هذا السؤال الذي خطر ببالي، لأنني ظننت أن الشعير لا يأكله غير الفقراء. ويوجد خارج المنستير عدد كبير من الممتلكات الزراعية المغروسة بأشجار الفواكه، كالمشمش والتين والتفاح والرمان، وبعدد لا يحصى من شجر الزيتون، إلا أن الملك يثقل كاهل المدينة بما لا طاقة لها به من الضرائب.

طُبُلْبَــة

مدينة عتيقة بناها الرومان على البحر المتوسط، بعيدة بنحو اثني عشر ميلاً عن شرق المنستير(64). وكانت فيما مضى كثيرة السكان، تنتج أراضيها كمية عظيمة من الزيتون، لكنها كلها أهملت إثر هجومات الأعراب، ولم يبق بها غير قليل من الدور، يسكنها بعض النساك. ولهم مسكن كبير على غرار ملجأ يأوي إليه الغرباء، ويأتي الأعراب كذلك إلى هذه المدينة، لكنهم لا يسببون أي ازعاج للناس.

مدينة المهدية

المهدية مدينة بناها في عهدنا هذا(65) المهدي الشيعي، أول خليفة بالقيروان(66)، على ساحل البحر المتوسط، فوق كتلة صخرية داخل

---

(64) تقع طبلبة على بعد كيلومتر من البحر، و22 كلم جنوبي شرقي المنستير، في الطريق الذاهبة من تونس إلى المهدية. وفي طبلبة ضريح الشيخ عبد العزيز بن عياش الصوفي الكبير. انظر ح.ح عبد الوهاب، ورقات 3:358.

(65) يريد الكاتب بقوله «عهدنا» العصر الإسلامي.

(66) هو الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي، أسس المهدية عام 913/300م. انظر أخبار المهدية مفصلة عند حسن حسني عبد الوهاب، ورقات، 3:357-383.

البحر، وأحاطها بأسوار عالية متينة، وأبراج ضخمة وأبواب مصفحة بالحديد، كما حصن الميناء بأسوار جيدة.

أتى المهدي إلى هذه الديار في شعار ناسك، فتقبله الناس بقبول حسن، وادعى أنه من سلالة محمد (عليه السلام) حتى إنه بمساعدة الشعب تلقب بالخليفة المهدي لينال ثقته أكثر. ثم ذهب لجباية الخراج في بعض بلاد نوميديا الواقعة على مسافة نحو أربعين يوماً غربي القيروان، فأسره أمير سجلماسة وزج به في السجن، لكنه أشفق عليه وأطلق سراحه، وقد قتله المهدي جزاءً له. ثم إن المهدي تجبر في الحكم حتى أخذ الشعب يأتمر به ليقتله.

ومن حسن حظه أن أحد الدعاة وهو أبو يزيد الملقب براكب الحمار ــ لأنه كان يمتطي حماراً باستمرار ــ أتى لمحاصرة القيروان على رأس أربعين ألف مقاتل. ففر المهدي والتجأ إلى المدينة الجديدة وصمد أمامه بفضل نجدة ملك قرطبة الذي أرسل إليه أربعين سفينة، إلى أن هزم أبو يزيد وقتل هو وابن له. ثم عاد المهدي من هناك إلى القيروان، فأخمد الفتن واسترجع ولاء الشعب، ودام الحكم في أسرة المهدي إلى العهد الذي ذكرناه في هذا الكتاب(67).

وبعد ذلك بمائة وثلاثين عاماً استولى المسيحيون على المهدية، لكن عبد المومن خليفة مراكش استردها منهم(68)، وهي الآن خاضعة لملك تونس الذي يعين بها والياً يثقل المدينة بالضرائب، ويتعاطى سكانها التجارة البحرية، ويعيشون في عداء كبير مع الأعراب حتى إنهم لا يستطيعون حرث أراضيهم.

---

(67) انظر أخبار عبيد الله المهدي مفصلة عند حسن ابراهيم حسن، **تاريخ الدولة الفاطمية**، ص 22 وما بعدها.

(68) أخبار استرجاع عبد المومن الموحدي للمهدية مفصلة عن أحمد الناصري، **الاستقصا**، 2:120-124.

وقد حسب الكونت بيير نفارو في أيامنا هذه أن باستطاعته أن يستولي على المهدية بتسع سفن حربية، لكن المدينة ردته خاسراً على أعقابه حتى اضطرت مدفعيته إلى أن تقاتل متقهقرة متكبدة خسائر فادحة. وكان ذلك عام 1519 م.

صْفَاقَسْ

مدينة عتيقة بناها الأفارقة على ساحل البحر المتوسط أيام كانوا يحاربون الرومان. وهي مدينة كبيرة محاطة أيضاً بأسوار عالية متينة، كانت في القديم كثيرة السكان، لكنها اليوم لم يبق فيها سوى ثلاثمائة إلى أربعمائة كانون، أما دكاكينها فعددها ضئيل، لأن الأعراب وملك تونس يثقلونها بالضرائب. ومعظم الصفاقسيين نساجون وبحارون وصيادون، يصطادون كمية وافرة من سمك يدعى سباريس، وهذا الاسم ليس عربياً ولا بربرياً ولا حتى لاتينياً، ويأكلون خبز الشعير والبازين كغيرهم ممن ذكرناهم آنفاً. ولباسهم رديء، يذهب بعضهم بسفنهم ليتجروا في مصر وتركيا[69].

القَيْرَوَان، المدينة الكبرى سالفا

القيروان أو الْقَرَوَان مدينة أصيلة، أسسها عقبة قائد جيوش الجزيرة العربية الصحراوية التي أرسلها عثمان ثالث الخلفاء الراشدين. بناها على بعد ستة وثلاثين ميلاً من البحر المتوسط، ونحو مائة ميل من تونس. وهدفه الوحيد من ذلك هو ضمان الأمن لجيشه وحرز الأموال التي غنمها أو جمعها من مدن افريقيا ونوميديا. وسوّر المدينة بسور جميل بناه كله بالآجر، كما شيد بها جامعاً عظيمًا عجيباً قائمًا على أعمدة بهيجة من المرمر،

---

(69) زار عبد الله التيجاني مدينة صفاقس في مطلع القرن الثامن الهجري، ووصفها في رحلته، ص 68-84 وذكر أخبارها ورجالها بتفصيل.

اثنان منها قرب المحراب، ارتفاعهما لا يتصوره العقل، ولونهما أحمر قان مع نقط بيضاء، كأنه رخام سماقي[70]. وبعد موت عثمان أقر معاوية عقبة على قيادة الجيوش، وبقي كذلك إلى أيام الخليفة الوليد بن عبد الملك الذي كان يحكم بدمشق. وقد أرسل الوليد إلى القيروان أحد قواده المسمى موسى بن نصير على رأس جيش عرمرم. ولما وصل موسى إلى القيروان أقام بها ريثما يستريح جيشه، ثم توجه نحو الغرب واستولى على عدة مدن حتى وصل إلى البحر المحيط، فاقتحم البحر بفرسه إلى أن وصل الماء إلى ركابه[71]، معتبراً أن فتحة كان كافياً في هذه المرة. ثم قفل راجعاً إلى القيروان وأرسل أحد قواده المسمى طارق إلى موريطانيا، فأبرم معاهدة مع يوليان والي سبتة. وأمره موسى بالعبور إلى الأندلس، فامتثل أمره في أبريل 711 (جمادى الثانية ــ رجب 92هـ) واستولى على عدة مدن وأقاليم كاملة كما هو مذكور في كتب ابن حيان وغيره من مؤرخي الأندلس. فحسده موسى على ذلك وأمره بالتوقف في انتظاره، فتوقف طارق في ساحل الأندلس وجاء موسى بعد أربعة أشهر على رأس جيش عظيم. وبعد أن اجتاز الزقاق انضم الجيشان إلى بعضهما، وتوغلوا في البلاد لمجابهة جيش القوط، فاعترضهم رودريك ملك القوط، إلا أنه قتل وحطم جيشه لسوء حظه. وتابع القائدان انتصارهما إلى أن وصلا إلى قشتالة فاستوليا على طليطلة، ووجدا فيها أموالاً طائلة وثروات عظيمة، ورفات القديسين موضوعاً في كنيسة هذه المدينة، وبالأخص المائدة التي تناول عليها المسيح العشاء الأخير مع الحواريين، وهي مصفحة بالذهب ومرصعة بالأحجار الكريمة، تقدر قيمتها

---

(70) الكلام على القيروان والفتح العربي طويل عريض لم يذكر منه الحسن الوزان إلا نتفاً قليلة، بعضها صحيح وبعضها مختلط بسبب اعتماده على الذاكرة فقط، وينبغي الرجوع في هذا إلى ح. ح عبد الوهاب، **ورقات**، 1:43-114؛ وأحمد الناصري، **الاستقصا**، 1:65-106.

(71) المعروف أن عقبة هو الذي أدخل قوائم فرسه في البحر بآسفي، ودعا ربَّه، انظر **الاستقصا**، 1:73.

بنصف مليون دينار. وبعد أن تم فتح طليطلة، انصرف موسى مع قسم من الجيش، وأخذ معه تقريباً كل ثروات اسبانيا، فاجتاز البحر ليعود إلى القيروان، لكنه تلقى في هذه الأثناء رسائل خليفة دمشق الوليد (بن عبد الملك) يدعوه فيها إلى العودة. فتوجه نحو مصر بجميع أمواله. ولما بلغ الاسكندرية أخبره أحد اخوة الخليفة المسمى هشام، أن الوليد في الاحتضار، وأنه من الأفضل أن لا يجيء إلى دمشق، لأن الأموال قد تتعرض للنهب إذا مات الخليفة، لكن موسى لم ينصت إلى هذه النصيحة وجاء.

ولما مات الوليد وولي الخلافة أخوه هشام عزل موسى عن إمارة افريقيا، وعين مكانه قائداً آخر اسمه يزيد بن المهلب، فخلف هذا الأخير ابنه وأخوه وحفيده بالتداول، وحكموا مدينة القيروان ما دامت الخلافة لدولة بني أمية[72].

ولما انتقلت السلطة من يد الأمويين بقوة سلاح العباسيين، وولي الخلافة السفاح، بعث (إلى القيروان) والياً آخر اسمه الأغلب بن سالم، فاستبد بالحكم. وكان الخلفاء المسلمون تركوا آنذاك دمشق واتخذوا بغداد قاعدة لهم لأسباب مذكورة في تواريخ الإسلام. فخلف الأغلب أحفاده بعد موته، وبقيت إمارة افريقيا بأيديهم مائة وسبعين سنة، إلى أن طرد آخرهم على يد الخليفة المهدي الشيعي[73].

---

(72) اختلط الأمر على المؤلف، فالذي تولى الخلافة بعد الوليد هو أخوه سليمان بن عبد الملك، ثم ابن عمه عمر بن عبد العزيز، ثم أخوه يزيد بن عبد الملك، ثم هشام بن عبد الملك (من عام 105-724/120-743)، ولم يتوارث آل المهلب قط حكم افريقيا أيام الأمويين.

(73) بل قدم الأغلب بن سالم التميمي إلى أفريقية عام 148 أيام الخليفة العباسيّ الثاني أبي جعفر المنصور، ومات عام 150. وإنما ينسجم سياق المؤلف قليلاً مع إبراهيم بن الأغلب الذي ولي حكم افريقيا بأمر من هارون الرشيد. انظر أخبار الدولة الأغلبية في القيروان عند ح. ح عبد الوهاب، **خلاصة تاريخ تونس**، ص 77 وما بعدها.

وقد تطورت القيروان وتبحر عمرانها على عهد ملوك بني الأغلب، إلى حد أنها لم تعد تسع جميع السكان، فبنى الملك مدينة أخرى أطلق عليها اسم رقّادة(74) وسكنها مع أكبر أعيان حاشيته. وفي ذلك العهد أرسل جيوشه بحراً تحت إمرة قائد اسمه علقمة، فاحتل جزيرة صقلية وبنى فيها مدينة صغيرة تقوم مقام قلعة يأمن فيها، وسماها باسمه. وما زال الصقليون إلى اليوم يسمونها علقمة. وكادت هذه المدينة أن تتعرض لحصار جنود أتوا لنجدة صقلية. فأرسل ملك القيروان قوات أكثر عدداً بإمرة قائد مقدام اسمه أسد (بن الفرات) عضّد علقمة. وضَمَّ القائدان قواتهما واحتلا بقية المدن. وزادت هذه الحملة واحتلال صقلية مدينة القيروان ازدهاراً ونمواً في السكان.

تقع القيروان في سهل رملي قاحل لا تنبت فيه أشجار ولا حبوب، فالقمح وسائر منتجات الأرض الضرورية للحياة تُجلب من الساحل، إما من سوسة، وإما من المنستير أو المهدية، وكلُّها على بعد أربعين ميلاً. ويوجد على بعد اثني عشر ميلاً من المدينة جبل يدعى وسلات، ما زالت فيه بعض الآثار الرومانية(75)، وفيه أيضاً عدة عيون وأراض مغروسة بشجر الخروب. ومن وسلات يجلب ماء الشرب إلى القيروان التي ليس فيها عين ولا بئر ماء عذب، اللهم إلا بعض الخزانات. غير أنه توجد خارج المدينة خزانات قديمة تمتلىء ماءً عند نزول الأمطار، وتفرغ منه بعد شهر يونيو لأن الناس يوردون فيها دوابهم. ويقيم الأعراب صيفاً في ضواحي المدينة، فيزيد ذلك من قلة القمح والماء، لكنه يؤدي إلى كثرة اللحم والتمر المجلوب من مدن نوميديا التي تبعد عن القيروان بنحو مائة وسبعين ميلاً.

---

(74) انظر عن تأسيس رقادة وحضارتها ح. ح. عبد الوهاب، ورقات، 1:360-375.

(75) هو أسيلاطوم عند الرومان، وممطور عند العرب الفاتحين، وأسلات الآن.

وقد ازدهرت العلوم الإسلامية بالقيروان في فترة من تاريخها، حتى إن معظم فقهاء افريقيا من المتخرجين منها. وبعد أن خرَّب الأعراب القيروان، أخذت في الوقت الحاضر تمتلىء بالسكان، لكن بكيفية بائسة. فليس فيها الآن غير صناع فقراء، أكثرهم يصبغون جلود الغنم والماعز. ويبيعونها ملابس جلدية في مدن نوميديا التي لا توجد بها الأقمشة الأوربية. فهذه الحرفة لا تضمن لهم إلا معاشاً موقتاً، بالإضافة إلى أن ملك تونس يثقل كاهلهم بالضرائب، وبذلك غدت معيشتهم ضنكاً، كما شاهدت ذلك أثناء سفر قمت به من تونس إلى نوميديا، حيث كان هناك معسكر ملك تونس، وذلك عام 922هـ.

مدينة قَابَسْ

مدينة كبيرة جداً بناها الرومان على ساحل البحر المتوسط في داخل الخليج تحيط بها أسوار عالية قديمة، وكذلك القصبة. يجري جدول ماء صغير قرب المدينة، لكن ماءه حار يكاد يكون مالحاً. وقد أدى نهب الأعراب لقابس إلى انحطاطها، إذ ألحقوا بالسكان أضراراً كثيرة جعلتهم يهجرونها ويعيشون خارجها في بساتين النخل التي تنتج كمية عظيمة من التمر. ولا يدخر هذا التمر السنة كلها لأنه يصير مرّاً، ولا ينبت غيره في هذه الأرض ما عدا فاكهة تنمو تحت الأرض على شكل الفجل لكنها صغيرة مثل الفول، وعندما تمتص تكون لها حلاوة اللوز وشيء من مذاقه، وتستهلك في كافة المملكة التونسية ويسميها الأعراب حب العزيز.

وسكان قابس سود البشرة، فلاحون فقراء أو صيادون ضعفاء، يستغلهم كثيراً الأعراب وملك تونس[76].

(76) زار التيجاني قابس ووصفها في رحلته (ص86 وما بعدها) مؤكداً ما يقال إنها جنة الدنيا.

الحامّة

مدينة عريقة في القدم، بناها الرومان داخل الأراضي على بعد نحو خمسة عشر ميلاً من قابس، يحيط بها سور مبني بالحجر الضخم المنحوت نحتاً جيداً، وما زالت تظهر حتى اليوم في أعلى الأبواب لوحات من المرمر عليها كتابات منقوشة، والديار والأزقة قبيحة، والسكان فقراء لصوص. أما أراضي المدينة فوعرة جافة، لا ينبت فيها سوى نخيل تمره غير جيد(77).

وعلى بعد نحو ميل ونصف من المدينة تنبع عين ماء ساخن جداً، يكوّن جدولاً يخترق المدينة من وسطها في قنوات عريضة. وتقوم فوق هذه القنوات بنايات، وهي شبه غرف مفصول بعضها عن بعض تحت مستوى الأرض، بحيث إن قصر القناة هو رصيفها. فإذا دخل الإنسان إلى هذه الغرف وصل الماء إلى سرته، لكن لا يجرؤ أحد على ذلك، لأن حرارة الماء مرتفعة جداً. ورغم ذلك فإن الناس إذا أرادوا أن يشربوه في الصباح استقوه في المساء، والعكس بالعكس. يتجمع كل هذا الماء شمال المدينة عند خروجه منها مكوناً بحيرة تدعى بحيرة المجذومين، إذ من خاصياته أنه يبرىء من داء الجذام ويدمل الجروح، ولذلك يقيم عدد كبير من المجذومين في أكواخ حول البحيرة. ولهذا الماء تأثير عجيب على المرضى، إلا أنه يترك مذاق الكبريت عندما يشرب كما تحققت ذلك بنفسي، بحيث إنه لا يزيل الظمأ.

قصر المَحْرَس

المحرس قصر بناه الأفارقة في عهدنا هذا عند مدخل خليج قابس، وكأنه شيد لحراسة هذا الخليج من هجمات سفن العدو. يقع على بعد

---

(77) كتب التيجاني الحمَّة ـ بدون مد ـ وهو الاسم العربي الفصيح. وقال إنها تعرف بحمة مطماطة تفرقة بينها وبين حمة توزر المعروفة بحمة البهاليل. انظر الرحلة، ص 134 وما بعدها.

نحو خمسين ميلاَ من جزيرة جربة، وينسج من هجمات سفن العدو. يقع على بعد نحو خمسين ميلاً من جزيرة جربة، وينسج سكانه بعض الأقمشة الصوفية، وكثير منهم بحارة وصيادون، يتجرون مع جزيرة جربة، ويتكلمون جميعاً بنفس اللهجة الإفريقية التي يتكلم بها أهل جربة. وحيث إنهم لا يملكون أية أراض زراعية ولا أية ممتلكات فلاحية، فإن من لا يشتغلون منهم بالنسيج لا يقتاتون جميعاً إلا من العمل في البحر[78].

جزيرة جَرْبَة

جزيرة جربة مجاورة لليابسة، وهي كلها منبسطة رملية، يكثر فيها النخل والكرم والزيتون وغيرها من الأشجار المثمرة. ودائرتها نحو ثمانية عشر ميلاً[79]، يعيش سكانها في مداشر متفرقة المنازل، لكل ملكيةٍ أرضيةٍ دار تسكنها أسرة خاصة. ومع ذلك فإن بعض هذه الملكيات والدور متجمعة. وتربة الجزيرة غير خصبة[80] يجب خدمتها جيداً وسقيها بماء يستخرج من آبار عميقة ليمكن أن يزرع فيها قليل من الشعير، فينتج عن ذلك نقص كبير في الحبوب التي يكاد يساوي ثمن نصف كيل (مودجيو) دائمًا ست (دوبلات)، وأحياناً أكثر من ذلك، واللحم غال جداً أيضاً.

توجد في الجزيرة قصبة مشيدة على ساحل البحر يسكنها الوالي وأسرته، وقرب القصبة مدشر كبير يقطن فيه التجار الغرباء من مسلمين

(78) ذكر التيجاني في **الرحلة** (ص. 58) أن أصل المحرس مسجد للعبادة والرباط في سبيل الله، وينسب بناؤه إلى ابن الأغلب. وسكانه من هوارة.

(79) سبق قلم أو خلط في نسخ الأرقام، فقد ذكر التجاني في **الرحلة** (ص. 121) أن طول جزيرة جربة من المغرب إلى المشرق ستون ميلاً نقلاً عن **نزهة المشتاق** للادريسي، وأن عرضها مختلف من عشرين ميلاً في الرأس الغربي إلى خمسة عشر ميلاَ في الرأس الشرقي الذي هو أضيق مكان بها.

(80) هذا خلاف في **رحلة التيجاني** (ص. 122) : «وهي أرض كريمة المزارع، عذبة المشارع... وغيرها من كرائم الأرضين لا يقاربها على الجملة في ثمارها أو يساويها».

ونصارى. يقام فيه سوق مرة في الاسبوع كأنه معرض، إذ يحتشد فيه جميع سكان الجزيرة، ويقصده أيضاً عدد كبير من الأعراب الوافدين من اليابسة، سائقين ماشيتهم، وحاملين معهم كمية وافرة من الصوف. ويعيش معظم سكان جزيرة جربة من تجارة قماش الصوف الذي يصنع فيها، يحملونه إلى تونس والاسكندرية، ويصدرون كذلك الزبيب.

وقد هجم على هذه الجزيرة قبل زهاء خمسين عاماً أسطول مسيحي، فاستولى عليها ونهبها، لكن سرعان ما استرجعها منهم ملك تونس، وأسكن الناس فيها من جديد؛ وشيدت القلعة حينئذ إذ لم يكن فيها من قبل سوى المداشر[81]. وكانت جربة دائمًا تحت حكم ملك تونس الذي كان يبعث إليها والياً قاضياً، وجابياً للأموال على يد رئيسي الفريقين المنتمين إلى المجموعتين اللتين تسكنان الجزيرة[82].

ولما مات الملك عثمان[83] ضعفت سلطة خلفه، فطالبت الجزيرة بحريتها، وسارع أهلها إلى قطع الجسر الرابط بين الجزيرة واليابسة، خشية

---

(81) ذكر التجاني في **الرحلة** أن النصارى تغلبوا على جربة سنة 529 هـ ثم ثار عليهم الأهالي وقتلوهم، ثم غزاهم النصارى بالقرب، ثم تملكها المسلمون، قال: «ولم تزل من أول الفتح الإسلامي على هذه الصفة مترددة بين تملك المسلمين وتغلب النصارى إلى زماننا هذا».

والإشارة عند الوزان هنا إلى الحملة التي قادها الفونس الخامس الأركوني ملك ايطاليا الإسبانية، وجرت في أول محرم عام 836، أواخر غشت 1432، فخرج السلطان أبوفارس عبد العزيز بنفسه لإنجاد الجزيرة. وقد ذكر الوزير السراج في **الحلل السندسية** (القسم الرابع من ج 1: 1078-1079)، تفاصيل هذه الغارة المسيحية على جربة وقيام السلطان أبي فارس بمحاربتهم وطردهم عنها.

(82) ذكر التجاني في **الرحلة** (ص 123) أن أهل جربة ينقسمون إلى فريقين، فرقة تعرف بالوهبية ويسكنون الجهة الغربية من الجزيرة؛ وفرقة تعرف بالنكارة، ويسكنون الجهة الشرقية منها. وكلا الطائفتين خوارج غلاة، يكفرون العصاة، ولا يماسحون بثيابهم ثياب أحد ممن ليس على مذهبهم، ولا يواكلونه في آنية. . .

(83) كانت وفاة أبي عمرو عثمان الحفصي عام 893 هـ = 1488 م.

مجيء الجنود إليها عن طريق البر. ثم قتل أحد الرئيسين أعيان الفريق المضاد له، فبقي وحده أميراً على الجزيرة، وتوارث أفراد أسرته الحكم إلى يومنا هذا.

تُعْطي جربة عشرين ألف «دوبل» من مداخيل الإتاوات والمكس نظراً للتجارة الكبيرة بها، إذ يختلف إليها كثيراً التجار الاسكندريون والأتراك والتونسيون. لكن المسيطرين عليها حالياً يتعاملون فيما بينهم بالمكر والخداع، يقتل الابن أباه، ويفتك الأخ بأخيه للاستيلاء على الحكم، حتى قتل فيها قرابة عشرة أمراء في ظرف خمس عشرة سنة. وأرسل فرديناند ملك اسبانيا في عهدنا هذا أسطولاً عظيمًا إلى جربة بقيادة دوق الألب الذي لم تكن له خبرة بالجزيرة، فأنزل جنوده على بعد بضعة أميال من الشاطىء، فدافع المسلمون عن الجزيرة بكل شجاعة وأرغموا الاسبانيين على التقهقر. فتضرر هؤلاء كثيراً من القيظ والعطش، لأنهم لم يجدوا ماء يشربونه. وكان نزولهم في وقت المدّ، فلما أرادوا العودة إلى سفنهم صادفوا وقت الجزر لدى رجوعهم، وكانت السفن قد تراجعت مع الجزر حتى لا ترسو على اليابسة، وقد انحسر الماء عن مسافة أربعة أميال بسبب تراجع البحر. فأضيفت هذه الأميال إلى الأخرى التي قطعها الاسبانيون، ووجدوا أنفسهم منهوكين مهددين بخطر جعلهم يقصدون سفنهم بغير نظام وقد ركب الفرسان المسلمون ظهورهم، فقتل معظمهم أو أُسر، ولم ينج منهم ويلتحق بصقلية مع الأسطول إلاّ القليل[84].

---

(84) تقول الرواية المسيحية إن الكونت بيير نافارو: بعد أن استولى على طرابلس في 18 ربيع الثاني 25/916 يوليوز 1510، قرر مهاجمة جزيرة جربة، فنزل بها فجر يوم الجمعة 25 جمادي الأولى 30/916 غشت 1510، ومعه من المقاتلين 12.000 جاؤوا من طرابلس، و3.000 جاؤوا من بجاية، وفيهم ولدان لدوق الألب، لقي أحدهما مصرعه هناك، وهو الدوق غارسيا دي طليطلة. وكانت خسائر المسيحيين 1.500 مقاتل، منهم ألف ماتوا بالعطش أو الحر، وخمسمائة قتلوا أو أسروا، والتحق الباقون بالأسطول ليلاً ورجعوا في صباح الغد إلى طرابلس.

وبعد ذلك في عهد جلالة الامبراطور كارلوس، أُرسل أسطول آخر إلى جربة، بأمر منه برئاسة دون نوفو، فارس طائفة القديس يوحنا ورئيس ديرها بمدينة مسين، فتمكن بفضل حذره وحذقه من إخضاع المسلمين دون حرب، والتزامهم بأداء خراج لصاحب الجلالة القيصرية الإمبراطور، وإرسال سفراء حتى إلى المانيا لتأكيد المعاهدات المبرمة مع القائد دون نوفو. فوافق الامبراطور عليها وأمر أن تؤدي الجزيرة سنوياً خمسة آلاف «دوبل» لنائب ملك صقلية، وما زال العمل جارياً بهذه الهدنة.

مدينة زْوَارَة

مدينة صغيرة بناها الأفارقة على ساحل البحر المتوسط، بعيدة بنحو خمسين ميلاً عن جربة شرقاً[85]. تحيطها أسوار قبيحة متلاشية، ويسكنها قوم بؤساء لا يعيشون إلاّ من صنع الجير والجبس ومن نقلهما إلى طرابلس. ليس لهم أرض للزراعة، وهم دائمًا في خوف من هجوم القراصنة النصارى عليهم، لا سيما بعد سقوط طرابلس.

لَبِيدَة

هذه المدينة أيضاً من بناء الرومان، محاطة بأسوار عالية مبنية بالحجر الضخم. خربت في الزمان الغابر، غير أنها عمرت من جديد لما دخلت جيوش المسلمين إلى البلاد، وبقيت عامرة إلى هجوم الأعراب، حيث خربت مرة أخرى وتحولت إلى الوضعية التي هي عليها الآن. وقد استعملت أحجارها وأعمدتها لتشييد طرابلس[86].

---

(85) توجد بين جزيرة جربة وزوارة، على طريق البحر، مسافة تقرب من 70 ميلاً وقد تحدث التجاني في رحلته (ص207-210) عن زوارة الصغرى وزوارة الكبرى، وقال إن الصغرى تعرف بوطن بلد المرابطين، وكانت في بداية القرن الثامن الهجري خراباً، والكبرى تسمى كوطين ــ بضم الكاف وكسر الطاء ــ وهي أضخم من الأولى وأكبر غابة.

(86) المراد المدينة الرومانية «لِيبْتِيس ماگْنا» التي تسمى أطلالها بالعربية لَبِيد، وتقع على بعد 240 كلم شرق زوارة، أي وراء طرابلس بمسافة 123 كلم. =

طَرَابُلُس القديمة

هي مدينة عتيقة بناها الرومان كذلك، ثم حكمها الوندال فالمسلمون الذين احتلوها أيام عمر ثاني الخلفاء الراشدين. وقد حوصر بها الدوق الوندالي مدة ستة أشهر، واضطر إلى الفرار إلى قرطاجنة، فنُهِبت المدينة وقتل أهلها أو أخذوا أسرى إلى مصر والجزيرة العربية حسب رواية المؤرخ ابن رقيق(87).

طَرَابُلُس الغرب

بناها الأفارقة إثر خراب طرابلس القديمة(88). تحيط بها أسوار عالية جميلة، لكنها غير متينة كما يجب، وتقع في سهل رملي مغروس بنخل كثير. دورها جميلة بالنسبة لدور تونس، وأسواقها منسقة مفصولٌ بعضها عن البعض بحسب اختلاف الحرف، لا سيما حرفة النساجين. وليس بها سقايات ولا آبار، وإنما فيها خزانات، وتعاني كثيراً من قلة الحبوب، لأن البادية كلها ليست سوى رمال كبادية نوميديا. والسبب في ذلك أن البحر

= وسماها التجاني في رحلته (ص 83) لَبِيدَى، وقال: كذا تحققتها، وسماها الرشاطي لبيدة، ينسب إليها الفقيه الصالح أبو القاسم عبد الرحمان بن محمد الحضرمي اللبيدي، مؤلف الكتاب الكبير المسمى **بالشرح والتفصيل لمسائل المدونة**؛ وتوفي قريباً من عام 430 هـ.

(87) يظهر أن الأمر اختلط على المؤلف، فطرابلس الغرب هي التي فتحها عمرو بن العاص، سنة 22 هـ. واقتحمها على الروم بعد حصار دام شهراً.

(88) ذكر البكري في **المسالك والممالك** (ص 6-7) أن ترجمة طرابلس باللغة الإغريقية ثلاث مدن. وصفها التجاني في **الرحلة** (ص 237 وما بعدها) وصفاً دقيقاً مطولاً، وذكر أخبارها منذ الفتح الإسلامي إلى أوائل القرن الثامن الهجري، مع أدب كثير نظمًا ونثراً. وورد اسمها في النص الفرنسي طرابلس بلاد البربر، وهو ظاهر التحريف في الترجمة للتعارف عند المسلمين من مقابلة طرابلس الغرب لطرابلس الشام. ويفرق بعضهم بينهما بكتابة طرابلس الغرب بزيادة همزة وصل في أولها «اَطرابلس» وكتابة الأخرى «طرابلس» بدونها.

المتوسط يتوغل في قلب هذه المناطق جنوباً، إلى حد أن الأماكن التي كانت ولا شك[89] دسمة خصبة في الزمان الغابر هي الآن مغمورة بالمياه. ويقول سكان هذه البلاد إن مساحة شاسعة من الأراضي كانت في القديم متقدمة جداً نحو الشمال، ولكن المياه غمرتها مع توالي العصور بتلاطم الأمواج التي كانت تحفرها دائمًا كما يشاهد ذلك في شواطىء المنستير والمهدية وصفاقس وقابس وجزيرة جربة وغيرها من المدن الواقعة إلى جهة الشرق حيث البحر قليل العمق، حتى إن الإنسان إذا دخل في البحر لا يصل الماء إلّا إلى حزامه. ولهذا يقولون إن هذه الأماكن غمرها البحر منذ عهد قديم. ويزعمون أيضاً أن المدينة كانت تمتد أكثر شمالاً، لكن حفر المياه المستمر لها أرغمها على التقهقر صوب الجنوب، وأن الدور والبناءات تشاهد لحد الآن تحت المياه. وكان في هذه المدينة قديماً عدة جوامع وبعض المدارس والبيمارستانات لإيواء المساكين والغرباء. ويأكل السكان طعاماً رديئاً جداً هو بازين الشعير، لأن المؤن المستوردة للمدينة لا تكفي لإعالتها ولو يوماً واحداً. ويعتبر الفلاح غنياً إذا استطاع أن يدخر ستيّة[90] أو ستيتين من الحب لزاده.

ومع ذلك فإن السكان يتعاطون التجارة بكثرة، لأن المدينة قريبة من نوميديا ومن تونس دون أن توجد مدينة غيرها حتى الاسكندرية، وهي كذلك قريبة من مالطة وصقلية. وكانت سفن البنادقة ترسو بها قديماً، وتقوم بتجارة كبيرة مع تجار طرابلس ومع الذين يفدون إليها كل سنة من أجل هذه السفن.

كانت هذه المدينة دائمًا تابعة لملك تونس، ما عدا في الفترة التي جاء

---

(89) لاحظ ايبولار هنا أن الصحيفة رقم 58 من المخطوط مفقودة، ولذلك لفق في ترجمته الفرنسية ما يقابلها من ترجمة طمبورال.

(90) «ستيّة»: كيل قديم يقدر بنحو خمسة أرطال.

أبو الحسن ملك فاس لضرب الحصار على تونس، وألجأ ملكها إلى صحاري الأعراب التماساً لسلامته.

إلّا أن ملك تونس استرجع حكمه بعد أن هزم أبو الحسن وكسر جيشه، فثارت تونس حينئذ، ودامت الثورة خمس سنوات إلى أن أعاد أبو عنان ملك فاس الكرة على مملكة تونس، فنهض لملاقاته ملك تونس المسمى أبا العباس، وتقاتل الجيشان فغُلب ملك تونس وفر إلى قسنطينة، فتبعه ملك فاس وحاصر قسنطينة وضيّق عليها الخناق حتى ضاق السكان درعاً وفتحوا الأبواب. فأُخذ ملك تونس أسيراً واقتيد إلى فاس، ثم سجن في قصبة سبتة.

وبينما كان ملك فاس يقتاد ملك تونس أسيراً هجم على طرابلس أسطول جنوي من عشرين سفينة حربية، واحتلوا المدينة ونهبوها بعد معركة ضارية، وأسر جميع السكان. وفي الحين كتب هلال بن ميمون، خليفة الملك أبي عنان بتونس، رسالة إلى عاهله يخبره فيها بما حدث وأنه صالح الجنويين على أن يؤدي إليهم خمسين ألف مثقال. ولما أدى هذا المبلغ أفرغ الجنويون المدينة وأطلقوا سراح الأسرى، لكن تبيّن لهم بعد ذهابهم أن نصف المثاقيل كان مغشوشاً[91].

(91) تقول الرواية المسيحية إن الجنوي فيليب دوريا داهم مدينة طرابلس على حين غرة مع خمس عشرة سفينة حربية في 12 أبريل 1355 (18 ربيع الأول 756) واستولى عليها بغتة، وكان يحكمها آنذاك أمير صغير من أهلها. ثم خرج الجنوي من المدينة في 22 غشت 1355 (12 شعبان 756) آخذاً معه سبعة آلاف سجين وغنيمة كبيرة، بعد أن أخذ غرامة حربية عظيمة شارك فيها أبو عنان المريني بخمسين ألف دينار ذهبية نقداً، ولم يكن آنذاك قد احتل تونس. ويقول ابن جزي الذي كتب رحلة ابن بطوطة بعد نحو ثلاثة أشهر من وقوع هذا الحادث: إن أبا عنان أمر خدامه بمدن افريقية أن يفتدوا طرابلس ولما علم بنتيجة المفاوضات أمر بإرسال الخمسين ألف دينار، أي خمسة قناطير، أو بعبارة أخرى خمسمائة رطل مريني من نقود الذهب وحملها إلى افريقية وقال: الحمد لله الذي خلّصها من أيدي الكفار بهذا المبلغ الزهيد!

وبعد ذلك أطلق أبو سالم ملك فاس سراح ملك تونس بسبب صلة قرابة وقعت بينهما فاسترجع ملكه.

وهكذا عادت طرابلس أيضاً تحت سلطة ملك تونس، واستمر ذلك إلى أيام الأمير أبي بكر ابن عثمان ملك تونس. إذ قُتل أبوبكر في قصبة طرابلس مع أحد أبنائه بأمر من يحيى ابن أخيه، فبويع يحيى ملكاً لتونس وخضعت له طرابلس، ثم قتل بعد ذلك أثناء معركة مع ابن عمه عبد المؤمن الذي سلبه الحكم واحتفظ به إلى مماته. فخلفه زكرياء ابن الملك يحيى ومات بالطاعون بعد بضعة أشهر، فبايع الشعب وأعيان تونس محمد ابن الحسن وابن عم زكرياء ورفعوه على العرش، لكن محمداً أظهر من العجب والجور حينما رأى نفسه في تلك الدرجة العليا، حتى إن أهل طرابلس طردوا واليهم من قبله والموظفين الملكيين، وعينوا أميراً عليهم من أنفسهم، قدموا له جميع خراج طرابلس وبيت مالها. فحكم هذا الرجل المدينة بكامل التواضع[92].

لكن ملك تونس أرسل إلى طرابلس جيشاً عرمرماً بقيادة أحد خلفائه للانتقام من هذه الثورة، فسمّه الأعراب وقتلوه بإيعاز من أهل طرابلس، وتبدّد الجيش. ثم حدث أن أمير طرابلس هذا الذي تظاهر بالتواضع أولاً أخذ يتجبر حتى قتله صهره، وانتهى الأمر بالشعب إلى الالتجاء إلى أحد أفراد حاشية الأمير أبي بكر ـ كان قد تنسك ـ وإجباره على تولي إمارة طرابلس، فاستمر في الإمارة عدة أشهر إلى أن أرسل الملك الكاثوليكي فرديناند أسطولاً إلى طرابلس بقيادة الكونت نافارو. وصل الأسطول بغتة

---

(92) هذه الأحداث التاريخية المتعلقة بحكم المتأخرين من الحفصيين وتدخل المرينيين في افريقية قد اختلط الكثير منها على الحسن الوزان بسبب اعتماده على الذاكرة فقط، ولم نر فائدة في التعليق على كل خطأ مكتفين بالإحالة على مرجعين هامين في الموضوع، هما كتاب المؤنس لابن أبي دينار، ابتداء من صحيفة 145، وكتاب الاستقصا لأحمد الناصري، 3 :153 وما بعدها.

أمام طرابلس مساء، وفي الغد أُخذت المدينة وأُسر جميع أهلها؛ وحُمل الأمير مع أحد أصهاره إلى مسين، حيث لبثا في السجن بضع سنين، ثم نقلا إلى باليرم. وهناك أطلق الامبراطور كارلوس سراحهما، فعادا إلى طرابلس بمحض اختيارهما. وكانت هذه المدينة قد خربت على إثر احتلال المسيحيين لها. حقاً انهم حصنوا القصر بسور متين ومدفعية ضخمة، كما شاهدنا ذلك في عام 1518 للميلاد، وسمعت منذ وقت قريب أن أمير المدينة أخذ يعمرها بالسكان باسم القيصر(93).

ذلك كل ما يمكنني أن أقول عن مدن مملكة تونس.

جبال بِجَايَة

تكاد دولة بجاية تكون كلها مؤلفة من جبال شاهقة وعرة ذات غابات وعيون كثيرة. وتسكن هذه الجبال قبائل غنية نبيلة كريمة، تملك عدداً كبيراً من الماعز والبقر والخيل، كانت تعيش دائمًا تقريباً في حرية، لا سيما بعد أن سقطت بجاية في يد المسيحيين. ويحمل معظم السكان في

(93) تقول الرواية المسيحية إن الكونت بيير نافارو، بعد أن احتل بجاية في 5 يناير 1510 (24 رمضان 915)؛ حارب حواليها عدة شهور إلى أن ظهر الوباء؛ فقرر مناجزة طرابلس، وأخذ معه خمسة عشر ألف مقاتل من بجاية، وذهب إلى صقلية فتزود منها، ووصل أسطوله المؤلف من خمسين سفينة شراعية أمام شاطىء طرابلس في 24 يوليوز 1510 (17 ربيع الثاني 916). وأخذ المدينة يوم الخميس 25 يوليوز بعد مقاومة عنيفة جداً من طرف السكان، لأنهم كانوا على علم بهذه الحملة منذ زمن طويل ومتأهبين لها. وكانت الخسائر فادحة، وخربت المدينة انتقاماً منها، ولم تبدأ في استرجاع عمرانها إلاّ بعد عودة أميرها المسلم السابق إليها. وفي سنة 1523 (929هـ) عندما أخذ الأتراك جزيرة رودس من يد فرسان طائفة القديس يوحنا، أعطاهم الامبراطور شارل الخامس جزيرة مالطة، ثم أسند إليهم أمر طرابلس سنة 1528 (935 هـ) فصار أحد فرسانهم حاكمًا لها. وقد انتزع سنان باشا مدينة طرابلس من يد طائفة القديس يوحنا في 4 غشت 1551 (فاتح شعبان 958) رغم المقاومة العنيفة التي أبداها القائد العام لهذه المدينة، الفارس الفرنسي دوكامباري.

هذه البلاد بالأخص وشمًا على خدهم يمثل صليباً أسود حسب العادة القديمة التي أشرنا إليها آنفاً. غذاؤهم الرئيسي خبز الشعير. ولهم كمية عظيمة من الجوز والتين اللذين يوجدان على الخصوص في جبال الشاطىء المعروفة بجبال زواوة[94]. في هذه الجبال معادن حديد تصنع به سبائك صغيرة تزن الواحدة منها نصف رطل وتستعمل كعملة، وتضرب نقود صغيرة من الفضة وزنها أربع حبات. وينبت هناك الكتان والقنب بكثرة، وتصنع منهما كمية كبيرة من القماش، وكله خشن.

أهل البلاد غيورون، أقوياء سباقون للخير، يرتدون كلهم تقريباً لباساً مناسباً. وتمتد دولة بجاية هذه في منطقتها الجبلية على طول ساحل البحر المتوسط في مسافة نحو مائة وخمسين ميلاً، وعلى عمق نحو أربعين ميلاً. وتسكن كل جبل من هذه الجبال قبيلة غير التي تسكن جبلاً آخر، لكنها غير مختلفة في أسلوب العيش، لذلك سأعدل عن ذكرها.

جبل الأَوْرَاس

هو كتلة جبلية شاهقة، أهلها مغفلون، ولصوص فتاكون.

تقع الأوراس على بعد نحو ثمانين ميلاً من بجاية، وستين ميلاً من قسنطينة[95]، وهي مفصولة عن الجبال الأخرى وممتدة على طول نحو ستين ميلاً. تتاخم الأوراس جنوباً صحراء نوميديا، وشمالاً بلاد مسيلة وسطيف ونڤاوس وقسنطينة. وتنبجس في المرتفعات عدة عيون ينتشر ماؤها في السهل ويكوّن أنواعاً من مستنقعات تتحول إلى ملاحات عندما يشتد الحر.

لا يستطيع أحد أن يتصل بسكان جبال الأوراس، لأنهم لا يريدون

---

(94) جبال زواوة هي جبال القبائل الكبرى غرب بجاية.

(95) بل 60 ميلاً من بجاية، و80 ميلاً من قسنطينة.

أن تعرف مسالك جبالهم، اتقاء من أعدائهم الأعراب ومن الأمراء المجاورين لهم.

جبال دولة قُسَنْطِينَة

تكتظ كل المنطقة الواقعة شمال قسنطينة وغربها بجبال لا تحصى عدداً، تبتدىء من تخوم بجاية وتمتد على طول البحر المتوسط حتى قرب عنابة، أي على مسافة نحو مائة وثلاثين ميلاً. وهذه الجبال كلها كثيرة الإنتاج، لأن الأراضي الواقعة بينها في السهل غاية في الخصب، تعطي الكثير من الزيتون والتين وغيرهما، بحيث تزود جميع المدن المجاورة كقسنطينة والقالة وجيجل، وتزود الأعراب كذلك.

سكان هذه الجبال متحضرون أكثر من سكان جبال بجاية، يزاولون مختلف الحرف، وينسجون على الخصوص كمية كبيرة من القماش.

ومن عادات نساء هذه البلاد الفرار إلى جبل آخر إذا لم يرضين بأزواجهن، وتترك المرأة الهاربة أولادها، وربما اتخذت زوجاً آخر في الجبل الذي تقصده إذا كان عدواً لجبل زوجها، وذلك ما يسبب الخصومات. لكن غالباً ما يقع الاتفاق إما بأداء مبلغ من المال وإما بمبادلة أخرى؛ كأن يزوج الرجل الذي أخذ الهاربة إحدى بناته أو أخواته لزوج المرأة الهاربة.

سكان هذه المنطقة أغنياء جداً، لأنهم لا يؤدون أي خراج، لكنهم لا يستطيعون مزاولة التجارة لا في السهل خوفاً من الأعراب، ولا في المدن خوفاً من الأمراء. يقيمون سوقاً كل أسبوع في أيام مختلفة، يقصده عدد كبير من تجار قسنطينة والقالة، إلّا أن على هؤلاء التجار أن يتخذوا صديقاً لهم في كل جبل كضامن، إذ بدونه لا يمكن أن ينصفهم أحد إذ خُدِعوا.

ليس هناك قاض ولا إمام ولا أي شخص يعرف القراءة، وإذا

احتاج إنسان إلى قراءة رسالة فلا بد له من البحث عمن يقرؤها له على بعد اثني عشر أو خمسة عشر ميلاً من هناك.

وتعطي هذه الجبال في مجموعها نحو أربعين ألف فارس، ولو كان هؤلاء القوم متحدين كما يجب لاستطاعوا أن يسيطروا على افريقية كلها لفرط شجاعتهم.

جبال عَنَّابَة

إن عنابة التي يحدها البحر شمالاً، يقع في غربها وجنوبها بعض الجبال المتصلة بجبال قسنطينة؛ لكن في شرقها جبال على شكل تلال مغطاة بأراضٍ زراعية جيدة، كان فيها قديماً عدد من المدن والقصور التي أنشأها الرومانُ وتحولت اليوم إلى رسوم داثرة لا يعرف اسم أي واحد منها. والمناطق الزراعية غير مسكونة بسبب الأعراب، باستثناء منطقة صغيرة تحرثها قبائل تعيش في البادية، استقرت أقدامهم فيها بقوة السلاح بالرغم على الأعراب. وتمتد هذه التلال على طول نحو ثمانين ميلاً من الشرق إلى الغرب، أي من ضواحي عنابة إلى باجة، وعلى عرض نحو ثلاثين ميلاً. وتنبع في هذه الجبال عدة عيون تُكوّن جداول ماء تخترق السهل الواقع بين هذه الكتلة الجبلية والبحر المتوسط.

الجبال المجاورة لتُونُس

تقع تونس في السهل، ولا يوجد بجوارها مباشرة جبال غير بعض المرتفعات الصخرية الداخلة في البحر جهة الغرب، كالجبل الذي تقوم فوقه قرطاج؛ إلّا أنه يوجد جبل شاهق شديد البرودة على بعد نحو ثلاثين ميلاً جنوب شرق تونس يسمى زغوان، لكنه غير آهل إلّا ما كان من أكواخ قليلة يسكنها فلاحون يربون النحل ويزرعون قليلاً من الشعير. وكان جبل زغوان قديماً على عهد الرومان مسكوناً، إذ بنوا في قمته

ومنحدراته وسفحه قصوراً عديدة ومداشر أصبحت اليوم خراباً تماماً. وتوجد من بين هذه الآثار القديمة الكثيرة جداً عدة نقوش باللغة اللاتينية، رأيتها بنفسي، وقرأ بعضها لي وترجمها صقليٌّ اعتنق الإسلام. ومن زغوان أخذوا الماء في ذلك العهد إلى قرطاج، وما زالت قناته ماثلة للعيان إلى الآن.

جبال بني يَفْرَن ونُفُوسَة

تعزل الصحراء هذه الجبال الواقعة على بعد نحو ثلاثين ميلاً من جربة وصفاقس، وهي عالية باردة، لا ينبت فيها القمح إلّا نادراً مع قليل من الشعير لا يكفي لنصف السنة. وسكان هذه الجبال شجعان أبطال، إلّا أن المسلمين المتذهبين بمذهب خلفاء القيروان يعتبرونهم زنادقة[96]. وقد رجع سكان بلاد افريقية عن هذه النحلة الضالة ماعدا هؤلاء الجبليين، ولذلك يذهبون إلى ضواحي تونس وغيرها من المدن حيث يزاولون حرفاً بسيطة لكسب معاشهم، متحرزين من إظهار عقيدتهم خشية أن يتعرضوا لعقاب المتربصين بهم[97].

(96) يقصد الشيعة من أنصار الفاطميين ملوك القيروان، والخوارج الممتنعين في جبال نفوسة. لما عرف في التاريخ من تناقض آراء الفريقين حول علي بن أبي طالب، يقدسه الشيعة إلى حد العبادة، وينتقصه الخوارج إلى حد التكفير.

(97) من المعلوم أن الخوارج تفرقوا بعد اندحارهم أمام علي في وقعة النهروان، فكانت منهم فرقة بالعراق مركزها البطائح قرب البصرة، وأخرى بالجزيرة العربية، وثالثة بالمغرب امتنعت بجبال نفوسة ولا صحة لما يقال من أن عبد الله بن إباض التميمي الذي ينتسب إليه الخوارج الإباضية، وعبد الله بن وهب الراسبي الذي ينتسب إليه الخوارج الوهبية، قد التجآ بعد وقعة النهروان إلى جبال نفوسة، لأن الثابت أن عبد الله بن وهب قتل في معركة النهروان، (عام 38) وعبد الله بن إباض عاش في المشرق إلى أيام عبد الملك بن مروان، وأخباره معروفة مع الأمويين، إلى أن مات عام 86. ومعلوم أن لكل من هذين الرئيسين الخارجيين ولغيرهم أتباعاً كثيرين تفرقوا شذر مذر في بلاد الإسلام. والنحلة الخارجية الضالة هي الوحيدة التي تمكنت من البقاء في =

جبال غَرْيَان

غريان جبل مرتفع بارد طوله نحو أربعين ميلاً، وعرضه نحو خمسة عشر ميلاً، يفصله عن باقي الجبال بعض المساحات الرملية، ويبعد عن طرابلس بنحو خمسين ميلاً[98]. ينتج الكثير من الشعير والتمر الممتاز الذي ينبغي أن يؤكل طرياً، كما ينتج كثيراً من الزيتون الذي تستخرج منه كمية عظيمة من الزيت، تنقل إلى الاسكندرية والمدن المجاورة.

ويكثر فيه أيضاً الزعفران الممتاز لوناً وجودة، وهو أحسن بكثير من الزعفران المستورد من أي جهة أخرى في العالم. فإذا كان زعفران اليونان أو تونس يساوي في القاهرة عشرة دنانير أشرفية[99] للرطل، فإن زعفران غريان يساوي خمسة عشرة ديناراً أشرفياً حسبما أخبرني به من كان حاكماً بهذا الجبل؛ وأضاف أن الدخل السنوي لهذا الجبل ستون ألف (دوبل)، وأن في أيام حكمه كان يستخرج ثلاثون قنطاراً من الزعفران، وهي أحمال خمسة عشر بغلاً.

لكن سكان غريان كانوا دائماً مستغلين من قبل الأعراب وملوك تونس. ولهم قرى عديدة تبلغ مائة وثلاثين تقريباً، محتوية على دور فقيرة قبيحة.

= بلاد المغرب، إلى أيامنا هذه، لأنها انتحلت مبدأ التقية الشيعية، فكانت تظهر تارة، وتختفي أخرى كما يشير إليه الحسن الوزان هذا.

(98) جبل غريان الذي هو امتداد لجبل يَفْرَن من جهة الشرق، يبعد عن طرابلس بمائة كيلومتر جنوباً.

(99) الدينار الأشرفي منسوب إلى سلطان مصر المملوكي سيف الدين برس باي الأشرف (825-841 هـ = 1422-1438) كان يزن 466، 3 غرامات، من النضار الخالص، ويتعامل به الناس في المشرق كله حتى بلاد الهند، ويرغبون فيه لدرجة أن كان (الذهب الأشرفي) في فرنسا القرن السادس عشر يعني الذهب من الدرجة الأولى.

جبال بني وليد

يقع هذا الجبل على بعد نحو مائة ميل من طرابلس. وتسكنه قبيلة شجاعة غنية تعيش حرة متحالفة مع سكان جبال أخرى في تخوم صحراء نوميديا.

* * *

وبعد أن أنهيت الكلام عن الجبال، سأتابع حديثي عن أقاليم مملكة تونس التي ليس بها مدن ولا قصور، وإنما فيها شبه مداشر، وأذكرها الواحد تلو الآخر.

قصر أحمد

هو قصر بناه أحد قادة الجيوش الوافدة إلى افريقيا. وقد خربه الأعراب.

سُبَيْخَة

كانت هي الأخرى من القصور المشيدة في عصر الفتح الإسلامي لإفريقية، عامرة بالسكان، إلى أن خربها الأعراب، ومازال فيها صيادون وغيرهم من الفقراء.

قصر حَسّان

قصر آخر بناه على شاطىء البحر الجنود المسلمون وخرّبه الأعراب كذلك[100].

---

(100) إذا كان القصران الأولان مندثرين لا يعرف لهما عين ولا أثر، فإن قصر حسان هذا يمكن أن يكون هو ما يعرف عند المؤرخين والجغرافيين العرب بقصور حسان، وهي قصور بناها القائد حسان بن النعمان الغساني، على ساحل البحر بعيدة عن =

نُون

نون منطقة مسكونة على شاطىء المحيط ليس بها سوى قرى عامرة بناس فقراء. تقع بين نوميديا وليبيا، لكن القسم الأعظم منها ينتسب إلى ليبيا، لا ينبت فيها إلّا الشعير وقليل من التمر الرديء. يرتدي أهل هذه البلاد لباساً سيئاً، وهم فقراء لأن الأعراب يستغلونهم ويستنزفونهم. ويذهب بعضهم للاتجار في مملكة ولاتة(81).

تِغَزَّة

تغزة مكان مأهول فيه عدد من مناجم الملح التي تشبه مقالع الرخام. يستخرج الملح من حفر تحيط بها أكواخ عديدة يسكنها المستخدمون لاستخراج هذا الملح، وليسوا من سكان البلدة، بل هم من أصل أجنبي، يأتون مع القوافل ويقيمون هنا كمنجميين يستخرجون الملح ويحتفظون به حتى تأتي قافلة فتشتريه منهم. ومن هنا يحمل إلى تمبكتو التي يعوزها الملح كثيراً. يحمل كل جمل أربع قطع من الملح. وليس للعاملين في ملح تغزة

= طرابلس بنحو 400 كلم، في المكان المسمى اليوم بقصور حسان، و«تماد حسان» أي المستنقع الصغير. وقد استقر حسان بهذه مع جنده بعد أن ظهرت «الكاهنة» عليهم، إلى أن جاء المدد من عبد الملك بن مروان عام 74، فأعاد الكرة على الكاهنة وهزمها ثم قتلها. انظر أحمد الناصري، **الاستقصا**، 1 :82-84.

(81) النون في العربية هو الحوت. ويطلق في المغرب حتى اليوم على الحوت النهري المستطيل الذي يشبه الحنش. وينطق به أحياناً «نول». وهذا أصل تسمية هذه المنطقة الواقعة في جنوب المغرب بتخوم بلاد سوس. والنسبة إليه واد نوني، وهناك علماء مغاربة وادنونيون مشهورون. (انظر: كتابنا **الحركة الفكرية**، ج 2، ص 621-622).

وقد حل المؤلف ببلاد نون عندما ذهب إلى تكاووست ــ كما جاء في الكتاب الثاني ــ إلّا أنه لم يضعها في مكانها من جهتي الجنوب والغرب.

وكان البحارة الأوربيون يقصدون رأس نون للاتجار مع الأهالي خلال القرنين 15 و16 م ومازال حتى اليوم في سيدي إفني مكان يبعد بنحو 15 كلم عن مصب واد أساكا إلى جهة الشمال يعرف بسوق النصارى.

قوت إلّا ما يحمل إليهم من تمبكتو ودرعة، وكلاهما على مسيرة عشرين يوماً من تغزة. وقد يموت أحياناً بعضهم جوعاً في أكواخهم لفقد القوت بسبب عدم مجيء القافلة. بالإضافة إلى الريح الشرقية التي تهب في الصيف فتفسد أعينهم، ويفقد الكثير منهم أبصارهم. أقمت مرة في تغزة ثلاثة أيام ريثما يحمل الملح، واضطررت أثناء ذلك إلى شرب الماء المالح من بعض الآبار القريبة من المنجم.

أُوجْلَـــة

أوجلة[82] ناحية مسكونة في صحراء ليبيا على بعد نحو أربعمائة وخمسين ميلاً من النيل[83]. فيها ثلاثة قصور[84] وبضعة مداشر صغيرة يحدق بها نخيل كثير، لا ينبت بها القمح، وإنما يستورده الأعراب من مصر. وتقع أوجلة على الطريق الكبرى الذاهبة من موريطانيا إلى مصر مروراً بصحراء ليبيا[85].

قرية الْغَار

قرية على شاطىء البحر يكثر فيها التمر، أرضها قاحلة يزرع فيها قليل من الشعير يقتات به السكان.

---

(82) ذكرها ياقوت في **معجم البلدان** (ج 1: 368) وقال إنها مدينة في جنوبي برقة نحو المغرب ضاربة إلى البر، ثم نقل عن البكري المسافات وقال إن أوجلة اسم للناحية، واسم المدينة أرزاقية. وأوجلة قرى كثيرة فيها نخل وشجر كثير وفواكه، ولمدينتها أسواق ومساجد.

(83) تقع واحة أوجلة التي سماها هيرودوتس بنفس الاسم على بعد أكثر من 1000 كلم من النيل.

(84) هي أوجلة، وجلو، وجكرة، وتشكل مثلثاً تبعد فيه كل واحدة عن الأخرى بثلاثين وأربعين كلم مع مداشر عديدة.

(85) تمر هذه الطريق بواحات جغبوب وسيوة، وهي سنترية، واحة حمون الشهيرة.

غَارُ الْغَار

هي أرض تظهر فيها حفريات عظيمة، يظن أن من هناك كان يستخرج الحجر الذي بنيت به طرابلس القديمة، لقرب هذا المكان منها.

سَرْمَان

قرية كبيرة كثيرة السكان، قريبة من طرابلس القديمة، يكثر فيها التمر، لكن لا ينبت فيها أي شيء من الحبوب.

زاوية بني يَرْبُوع

قرية أخرى لا تبعد كثيراً عن البحر، وينبت فيها القليل من القمح. يسكنها بعض النساك، ويظهر فيها نخل كثير.

زَنْزُور

قرية قريبة من البحر على بعد نحو اثني عشر ميلاً من طرابلس، يكثر فيها الصناع، وتنتج الكثير من التمر والرمان والسفرجل. سكانها ضعفاء لا سيما منذ احتلال المسيحيين لطرابلس، ومع ذلك فإنهم يتجرون معهم ويبيعون لهم فواكههم.

عَمْرُوس

مدشر يقع على بعد نحو ستة أميال من طرابلس داخل الأراضي، ويوجد فيه عدد كبير من النخيل، وبساتين مليئة بمختلف الأشجار المثمرة.

تَاجُورَة

بادية تقع على بعد نحو ثلاثة أميال[101] شرق طرابلس. وتوجد فيها عدة قرى مع بساتين مغروسة بالنخيل وغيره من الأشجار المثمرة. وقد

---

(101) بل 13 ميلاً.

عادت خصبة جداً بعد سقوط طرابلس، لأن عدداً كبيراً من المدنيين لجأوا إليهـا؛ لكن يوجد في جميع القرى والمداشر المذكورة قوم غلاظ جهال لصوص، يسكنون في أكواخ من الجريد ويقتاتون بخبز الشعير والبازين. وكلهم خاضعون لملك تونس والأعراب، ما عدا الذين يعيشون في قلب البادية.

مَسْلاَتَــة

إقليم على شاطىء البحر المتوسط، بعيـد بنحو خمسـة وثلاثـين ميلاً[102] عن طرابلس، فيه عدد من القرى والقصور العامرة بالسكان الأثرياء، لكثرة ما فيه من النخيل وشجر الزيتون. يعيش أهله في حرية، ويختارون رئيساً من أنفسهم يقوم مقام الأمير، ويدير شؤون السلم والحرب مع الأعراب. وفي هذا الإقليم قرابة خمسة آلاف مقاتل.

مَسْرَاتَــة

مسراتة هي كذلك إقليم على شاطىء البحر المتوسط، يبعد بنحو مائة ميل عن طرابلس[103]، ويشتمل على قصور وقرى، بعضها في السهل وبعضها في الجبل. أهل مسراتة أغنياء، لأنهم لا يؤدون أيـة إتاوة، ويتعاطون التجـارة. يأخـذون البضائـع التي تحملها إلى بـلادهم سفن البندقية، ويحملونها إلى نوميديا حيث يستبدلون بها الرقيق وقطط الزباد، والمسك، الواردة من إثيوبيا والسودان، ثم يحملون كل ذلك إلى تركيا، محققين هكذا أرباحاً من رحلة الذهاب ورحلة الإياب.

وإذ انتهينا من مملكة تونس، فلنتابع الحديث عن صحراء برقة.

---

(102) بل بنحو 65 ميلاً.

(103) بل نحو 130 ميلاً.

صحراء بَرْقَة

تبتدىء هذه الصحراء عند تخوم إقليم مسراتة، وتمتد شرقاً حتى تخوم الاسكندرية، على مسافة نحو ألف وثلاثمائة ميل، ويقارب عرضها مائتي ميل[104]. وبرقة بلاد قاحلة وعرة لا ماء فيها ولا أرض تـزرع. كانت خالية من السكان قبل دخول العرب إلى افريقيا[105]؛ لكن لما جاء الأعراب استقر أقواهم في المناطق الخصبة، وبقي أقلهم بأساً في الصحراء حفاة عراة يتضورون جوعاً؛ لأن هذه الصحراء بعيدة عن كل منطقـة مسكونـة ولا تنبت شيئاً، حتى إن الأعراب البؤساء إذا أرادوا القمح أو غيره من الضروريات، اضطروا إلى رهن أولادهم في ذلك؛ ويحمل إليهم القمح وغيره الصقليون عن طريق البحر، ثم يرجعون بالرهان. وعندما ينصرف هؤلاء يذهب الأعراب بدورهم إلى النهب حتى إلى نوميديا. وهم أكبر لصوص الدنيا وأكثرهم خديعة ومكراً، يجردون الحجاج المساكين وأبناء السبيل من ثيابهم، بل ويسقونهم لبناً ساخناً ثم يحركونهم ويقذفون بهم في الهواء، إلى أن يأخذ هؤلاء الأشقياء في التقيؤ حتى تكاد تخرج أحشاؤهم، فيبحث الأعراب عما قد يكون في القيء من نقود، لأن هؤلاء البهائم المتوحشة يتهمون المسافرين ببلع نقودهم عندما يقتربون من هذه الصحراء حتى لا يعثر عليها معهم.

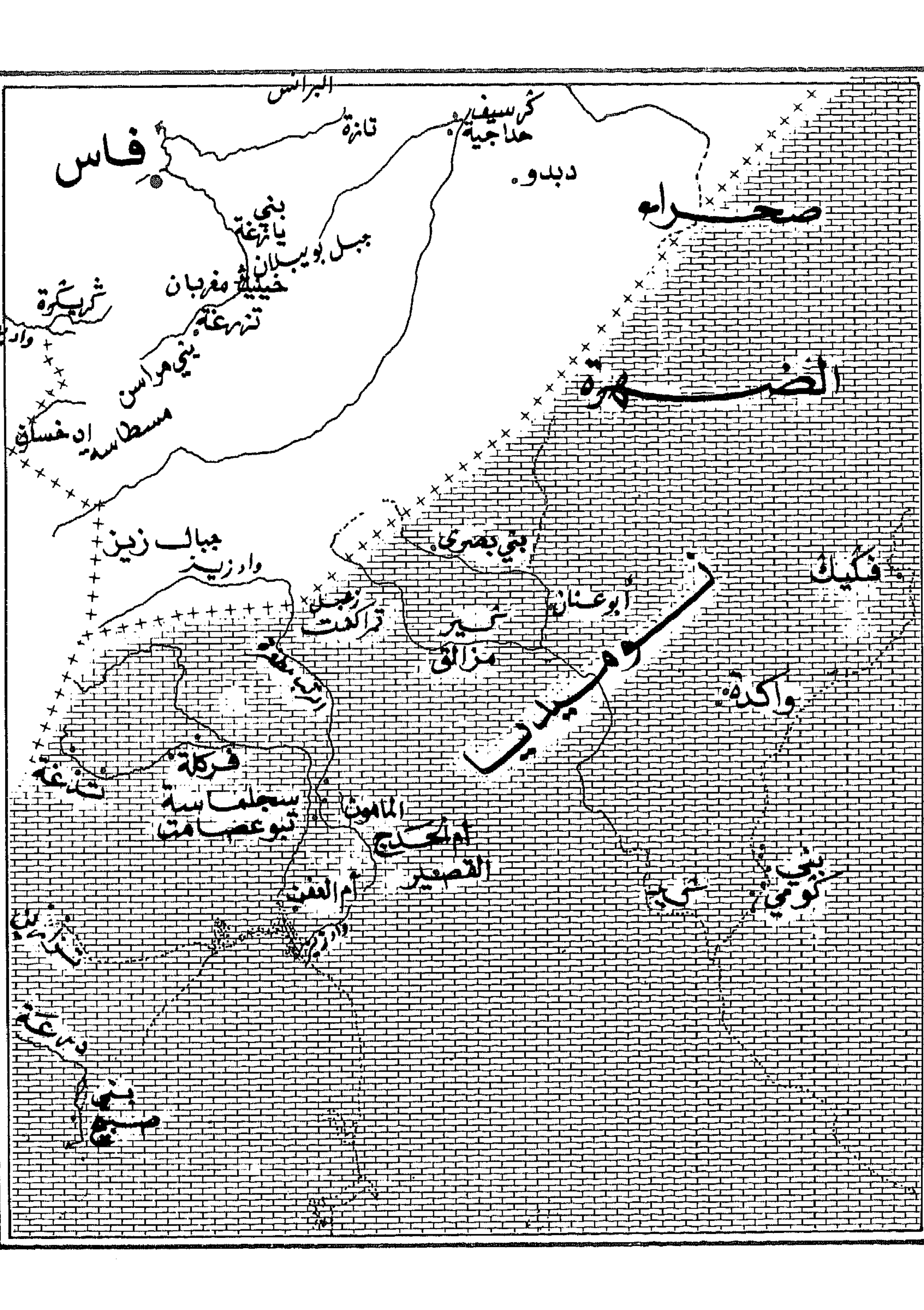
---

(104) يُدخل المؤلف في صحراء برقة ــ على ما يظهر ــ جميع المنطقة الساحلية المحدودة في جنوب سيرينايك بطريق القوافل بين طرابلس ومصر بـواسطة واحـات أوجلة وجغبوب وسيوة والبحرية.

(105) بل تدل النصوص على أن المناطق الصالحة للزراعة في سيرينايك كانت منذ القديم وإلى مجيء أعراب بني هلال في منتصف القرن الخامس الهجري /11 م، متمتعة بازدهار نسبي.

القسم السّادس

نوميديا



البرانس
فاس
كرسيف
دبدو
صحراء
الضهرة
بني يازغة
جبل بويبلان
مغربان
بني مراس
مسطاسة
جبال زين
واد زيز
تراكنت
أبو عنان
بني بصري
مزالق
فكيك
واكدة
فركلة
سجلماسة
تبوعصامت
المامون
أم الحدج
القصير
بني كومي
درعة
بني صبيح

نوميديا

لقد سبق لنا أن قلنا في القسم الأول من هذا الكتاب إن نوميديا تعتبر أقل أهمية من بلاد البربر لأسباب يذكرها الجغرافيون والمؤرخون الأفارقة.

بعض بلاد نوميديا قريبة جداً من الأطلس، وقد تكلمنا عنها في القسم الثاني من هذا الكتاب الذي ذُكرت فيه بلاد حاحا وإقليما سوس وجزولة؛ وفي مملكة تونس تعرضنا للحامة وقابس. ويرى البعض أن هذه البلدان تنتسب في الواقع إلى نوميديا، إلاّ أننا أدمجناها في أقاليم بلاد البربر، لأن بطليموس يجعل شاطىء مملكة تونس كله ضمن بلاد البربر، وسنذكر باقي الأقاليم واحداً واحداً.

تَشِّيتْ

تشيت مدينة صغيرة بناها النوميديون في تخوم صحراء ليبيا. سورها مبني بالآجر النيء. ولا ينبىء مظهرها كثيراً عن مدينة متحضرة، بل لا يدل على شيء من ذلك. يقدر سكانها بنحو أربعمائة كانون. ولا يحيط بها سوى بادية رملية، ولو أنه يوجد في الواقع قرب المدينة مسافة صغيرة صالحة للحرث مغروسة بالنخيل، وأخرى يزرع فيها شعير ودخن يسد بهما السكان المساكين رمقهم. يؤدي هؤلاء القوم إتاوة كبيرة للأعراب المجاورين لهم

بالصحراء، ويقومون برحلات تجارية إلى بلاد السودان وجزولة حاملين معهم سلعهم، بحيث لا يكاد يقيم منهم في المنازل إلاّ النصف. وهم قبيحو المنظر سُود البشرة تقريباً، لا ثقافة لهم، بل النساء هن اللائي يتعلمن ويقمن بدور معلمات المدارس للبنات والبنين. وعندما يبلغ الصبيان الثانية عشرة من عمرهم يستخدمهم آباؤهم في ممتلكاتهم، اما لاستخراج الماء من البئر للسقي، وإما لِقلب الأرض. والنساء أكثر سمناً وبياضاً من الرجال، وإذا استثنينا اللواتي يتعاطين الدراسة وغزل الصوف فان سائر النساء يبقين عاطلات أيديهن في حزامهن. والفقر هنا من نصيب الجميع. الماشية قليلة تتكون من الدَّمَّان[1] فقط، دون بقر ولا غنم، ويحرثون الأرض بزوج من فرس وجمل، كما هي العادة في نوميديا بكاملها[2].

وَدَانْ

وَدَانْ قرية في صحراء نوميديا المتاخمة لليبيا، يسكنها قوم خشنون فقراء. لا ينبت فيها غير قليل من التمر، ولا موارد للسكان الذين يعيشون شبه عراة، ولا قدرة لهم على مغادرة قريتهم بسبب عداوة جيرانهم. يتعاطون الصيد بواسطة مصايد، ويقنصون وحوش هذه المناطق كاللمت والنعام، وليس عندهم غير لحم هذه الحيوانات. حقاً ان هؤلاء الناس يملكون بعض الماعز، ولكنهم يحتفظون بها من أجل اللبن. ولون بشرتهم أقرب إلى السواد منه إلى البياض[3].

---

(1) الدَّمَّان: غنم الصحراء.

(2) لا شك أن الوزان يقصد تشيت الموجودة حالياً في موريطانيا، ولو أن الأوصاف والمسافات المذكورة لا تنطبق على تلك المدينة.

(3) لا شك أن هذه هي وادان الخرائط الحالية المعروفة بقصر أدرار موريطانيا. وكانت قديماً مستودعاً للملح المستخرج من أجيل، ومرحلة هامة بين السودان والجنوب المغربي.

إفْرَانْ

يتكون إفران[4] من نحو أربعة قصور، بناها النوميديون بعيداً بعضها عن بعض بنحو ثلاثة أميال على مجرى صغير لماء يسيل في الشتاء ويجف في الصيف. ويوجد بين هذه القصور عدد من بساتين النخل. والسكان أغنياء نسبياً لأنهم يتجرون بسلعهم مع البرتغاليين في ميناء غاركسيمة[5] فيأخذون منهم الثياب الخشنة والقماش وغير ذلك ويحملونها إلى بلاد السودان كولاتة وتمبكتو. يقطن في هذه القصور صناع عديدون ولا سيما صانعو الأواني النحاسية التي تروج كثيراً في بلاد الزنوج، وذلك لوجود عدد من مناجم النحاس في نواحي افران عند قدم الأطلس[6].

يقام سوق مرة كل أسبوع في أحد هذه القصور، لكن الحبوب فيه نادرة دائمًا. والناس يرتدون ملابس حسنة، ولهم جامع في غاية الجمال، وأئمة وقاض يبت في مسائل الديون والمواريث. أما المجرمون فلا عقاب لهم غير النفي من الأرض.

أَقَّا

تتألف أَقَّا من ثلاثة قصور صغيرة متقاربة في صحراء نوميديا على تخوم ليبيا. وكانت عامرة جداً لكن السكان هجروها على إثر فتن أهلية، ثم عمرت من جديد بفضل تدخل رجل صالح هدَّأ من هذه المنازعات،

(4) يقصد «إفران» الأطلس الصغير بسوس. انظر محمد المختار السوسي، خلال جزولة، ج 232:2 وما بعدها.

(5) جعله مترجم النص الفرنسي هو أكدير الخاضع آنذاك للبرتغاليين، والتاريخ يقبله، لكن افران بعيد عن أكدير وأقرب منه ميناء ماسة الذي كانت له أهمية تجارية عظيمة في ذلك العصر. انظر التعليق رقم 26 من صفحة 118 من الجزء الأول.

(6) كان هذا النحاس، إذ ذاك مشهوراً باسم الصيني. ومنه جاء إسم صينيات الشاي النحاسية.

وربط أواصر القرابة بين الخصوم السابقين، فأصبح أميراً لأقّـا. ولا أفقر فعلاً من هؤلاء القوم، إذ لا يشتغلون بغير قطف تمرهم(6م).

دَرْعَة

درعة إقليم يبتدىء عند الأطلس ويمتد جنوباً على مسافة نحو مائتين وخمسين ميلاً عبر صحراء ليبيا(7). وهذا الإقليم ضيق جداً، يقيم السكان على ضفاف النهر الذي يحمل نفس الاسم ويفيض طوراً في الشتاء حتى كأنه بحر، ثم يجف طوراً آخر في الصيف حتى يمكن عبوره على الأقدام. وعندما يفيض يسقي البلاد كلها. وإذا لم يحدث فيضان في أوائل أبريل تلفت الغلة كلها، وإذا حدث في ذلك الوقت كانت الغلة حسنة.

وعلى ضفاف النهر يتوالى عدد كبير من القرى والقصور المبنية بالحجر الغير المنحوت والطين، والسقوف كلها من جذوع النخل وكذلك الخشب، مع أن هذا الخشب ليست له قيمة كبيرة، لأنه ليفيّ وغير مكتنز كسائر الأخشاب.

(6م) أقّا اسم نهر من روافد درعة، سميت به مجموعة من القرى كانت مسكونة منذ القرن السابع الهجري، وازداد عمران قرى أقا بعد خراب مدينة تمدولت الإدريسية الشهيرة القريبة منها. انظر أخبار أقا عند محمد المختار السوسي، **خلال جزولة**، 3:42-88، وخاصة صفحة 84.

أما الصالح المشار إليه هنا فهو محمد بن مبارك الأقاوي. وقد سبق أن ذكره الحسن الوزان ووصفه في الجزء الأول صفحة 145، انظر مراجع ترجمته وبعض أخبار أقّا كذلك في كتابنا **الحركة الفكرية**، ج 2:614-616.

(7) بما أن الكاتب ضم تنزيتة إلى إقليم هسكورة، كان جزء درعة الذي يعتبره إقليمًا لنوميديا يبتدىء عند جنوب زاوية تنزيتة التي يوجد بقربها المركز الحالي لزاكورة، ويكون أول إقليم نوميديا هو إقليم تكمادرت. ولم يكن وادي درعة مأهولاً منذ هذه النقطة إلاّ على امتداد 100 كلم. أما مسافة 250 ميلاً هذه فإنها تناسب الجزء الكامل المأهول للوادي، سواء منه ما فوق زاكورة وما تحتها.

ويوجد بجوار النهر على مسافة خمسة إلى ستة أميال عدد لا يحصى من بساتين النخل التي تنتج تمراً غليظاً من النوع الممتاز، يمكن أن يدخر سبع سنوات في مستودع دون أن يفسد، شريطة أن يكون المستودع في الطابق الأول. وتختلف أثمان التمر باختلاف أصنافه وألوانه، بحيث إن البعض منه يساوي مثقالاً لكيل «المدجيو»، والبعض الآخر ربع مثقال، رهذا إنما يستعمل لعلف الإبل والخيل. والنخل ذكر وأنثى: فالأنثى تنتج التمر، والذكر لا ينتج غير عناقيد الزهر. فلا بد إذن، قبل تفتح الأزهار من أخذ عريش من الأزهار المذكرة وربطه في الأزهار المؤنثة، وإلا فلا تنتج الشجرة غير تمر هزيل نواته غليظة جداً. ويتغذى أهل البلاد من مثل هذا التمر، لا سيما في الأيام التي لا يأكلون غيره، ويقتاتون بحساء الشعير وغيره من الأشياء البسيطة. أما الخبز فلا يأكلونه إلا في الأعياد والولائم.

وليس في قصور هذا الإقليم سوى القليل من مرافق الحياة الحضرية، بالرغم من وجود صناع، بالإضافة إلى صائغين يهود في طرف الإقليم المقابل لموريطانيا على الطريق الرابطة بين فاس وتمبكتو. إلّا أنه توجد في المنطقة ثلاث قرى أو أربع كبيرة، يقيم فيها التجار الغرباء عن البلاد والتجار الدرعيون، وتشتمل على دكاكين ومساجد تامة التجهيز.

يسمى أهم هذه القرى بني صبيح[8]. وهي مسورة ومقسمة إلى قسمين يحكمها رئيسان مختلفان يعيشان في نزاع وقتال دائمين، وبالأخص عندما يجب سقي المزروعات بسبب قلة الماء الجاري. وسكان هذه القرية

---

(8) قصر بني صبيح ما زال عامراً إلى اليوم، وهو أحد قصور منطقة لكتاوة بأسفل درعة قريباً من محاميد الغزلان. وتنيف قصور لكتاوة على خمسين قصراً، ما زال بعضها يحمل اسم اليهود الذين كانوا يعيشون فيه، كقصر بني حيون، إلّا أن اليهود هاجروا جميعاً من درعة، ولم يبق في هذه القصور اليوم غير المسلمين. وقد زرتها سنة 1975 للوقوف على ضريح الشيخ أحمد آدفال. انظر كتابنا **الحركة الفكرية**، ج: 2، ص 529 وما بعدها.

أشداء كرماء، يضيفون التاجر على حسابهم لمدة سنة كاملة أو أكثر، ولا يأخذون منه إلّا ما يتركه لهم عن طيب خاطر.

ولأهل درعة عدة رؤساء يتحاربون باستمرار، ويستعين كل فريق بالأعراب المجاورين الذين يتقاضون مقابل ذلك أجرة كبيرة، قدرها نصف مثقال لليوم لكل فارس يقاتل لحسابه؛ لكن هؤلاء الأعراب تؤدى لهم الأجرة يوماً ليوم، وعن الأيام التي استعملوا فيها أسلحتهم فقط. ويستعمل أهل هذه البلاد مختلف أنواع الأسلحة النارية منذ زمن قريب، ولم أر قط أحسن منهم رماية، إذ ربما يصيبون رأس إبرة، ويتقاتلون بينهم بهذه الأسلحة النارية.

تنمو في هذه المنطقة كمية وافرة من أشجار النيلة، وهو نبات للصباغة يشبه العِظْلم، أو الوسمة، ويستبدلون به سلعاً مستوردة من فاس وتلمسان. والقمح مرتفع الثمن جداً يجلب مقابل التمر من فاس وغيرها من المدن المجاورة. والخيل قليلة العدد وكذلك الماعز. وتعلف الخيل بالتمر عوض الشعير وبنوع من الحشيش يسمى «فرفة» في مملكة نابولي. أما الماعز فتعلف بنواة التمر المكسرة التي تساعد على سمنها وإعطائها لبناً أكثر. ويأكلون بكثرة لحم التيس والجمل المسنين، وهو غذاء رديء، بالإضافة إلى النعام الذي يربونه ويأكلون لحمه الذي يشبه طعمه قليلاً لحم الدجاج، لكنه أصلب منه وله رائحة كريهة، لا سيما لحم الفخذين اللزج.

النساء جميلات سمينات لطيفات، أكثرهن عاهرات. ويملك أهل هذه البلاد عبيداً سوداً من الجنسين يلدون الأولاد، ويحتفظون بهؤلاء الأولاد وآبائهم لخدمتهم. لذلك تجد منهم الأسود والهجين، أما الأبيض فنادر جداً.

سِجِلْمَاسَة

سجلماسة إقليم يستمد اسمه من المدينة الرئيسية فيه، ويمتد على طول واد زيز، ابتداء من الخنك من المضيق القريب من مدينة

غارسلوان[9] ونزولاً نحو الجنوب على مسافة مائة وعشرين ميلاً حتى تخوم صحراء ليبيا. وتسكنه قبائل بربرية مختلفة، إما زناتية أو صنهاجية أو هوارية. وكان في القديم خاضعاً لسلطة عاهل مستقل، لكنه خضع بعد ذلك ليوسف ملك لمتونة ثم انتقل للموحدين.

وقد استولى بنو مرين على هذا الإقليم بعد اضمحلال مملكة الموحدين، وعهدوا بحكمه إلى أقرب الناس إليهم وخاصة أبناءَهم. وظل الأمر كذلك إلى أن مات أحمد ملك فاس، فثار الإقليم وقتل أهل البلاد الوالي وهدموا سور المدينة، فبقيت خالية حتى يومنا هذا. وتجمع الناس فبنوا قصوراً ضخمة ضمن الممتلكات ومناطق الإقليم، بعضها حرٌّ، والبعض الآخر خاضع للأعراب[10].

---

(9) عند فم زعبل.

(10) المشهور أن سجلماسة من تأسيس بني مدرار الخوارج في أواسط القرن الثاني للهجرة، إلا أن ابن أبي محلي السجلماسي ذكر في تقييده في التعريف بمدينة سجلماسة أنها من تأسيس العرب الفاتحين عام 40 هـ، ثم وسعها بنو مدرار فكانت عاصمة لتلك المملكة الخارجية إلى أن استولى عليها الفاطميون ملوك القيروان، فأدرت عليهم أموالاً طائلة باعتبارها مركزاً تجارياً مهمًا في طريق القوافل المتجرة في السودان. ولما قامت دولة المرابطين في أواسط القرن الخامس الهجري رجعت سجلماسة إلى حكم المغرب وظلت عامرة كذلك أيام الموحدين والمرينيين إلى أن خربت قبيل قيام دولة السعديين، فانتقلت أهمية سجلماسة إلى القصور المجاورة، ولا سيما قصر الشرفاء الحسنيين المعروف آنذاك بالقصبة السجلماسية حيث ضريح المولى علي الشريف. وما زالت أطلال سجلماسة ماثلة للعيان بالقرب من الريصاني، ويسميها السكان «المدينة الكبيرة» أو «المدينة الكبيرة».

انظر: أحمد بن أبي محلي، **تقييد في التعريف بسجلماسة**، مخطوط م م رقم 2634؛ وأحمد الناصري، **الاستقصا**، ج: 1، ص 111 وما بعدها. ــ وكتابنا **الحركة الفكرية**، ج: 2، ص 519 و528.

الخَنْكْ

الخنك[11] إقليم ـ أو على الأصح دائرة ـ على واد زيز، يتاخم جبال الأطلس، ويشتمل على عدة قصور ومداشر وبساتين نخل صغيرة، الأراضي الزراعية فيه هزيلة ضيقة، انما هي عبارة عن شرائط صغيرة على حافة النهر عند قدم الجبل، لا يبلغ عرضها أحياناً مرمى حجر، ويزرع فيها قليل من الشعير.

ومن السكان من يخضعون للأعراب أو لمدينة غار سلوان، ومنهم أحرار. فالأولون فقراء إلى حد أنهم أصبحوا يتسولون، والآخرون أغنياء لأنهم يسيطرون على الطريق المؤدية من فاس إلى سجلماسة، ويرغمون التجار على أداء مبلغ مالي مرتفع.

وبهذا الخنك ثلاثة قصور رئيسية: الأول يسمى زعبل، ويقع على أعلى صخرة عند مدخل الخنك[12] كأنها تبلغ السماء طولاً لشدة علوها. ويقف في أسفل الصخرة الحرس الذي يستخلص واجب المرور وهو ربع مثقال للجمل.

ويسمى القصر الثاني كُسترير، ويقع على بعد نحو خمسة عشر ميلاً من السابق، إلّا أنه على منحدر الجبل تقريباً في السهل، وهو أشرف وأغنى من الأول.

والثالث يسمى تَمَرَّاكْشْت ويقع على بعد نحو عشرين ميلاً من كسترير على الطريق الكبرى.

---

(11) الخنك هو الخانق العربي الفصيح، أي الشّعب الضيق. وهذا الخنك فعلاً شعب يخترقه واد زيز.

(12) لقد اضمحل القصر الآن، والصخرة مفتوح فيها نفق يساعد الطريق الحديثة على اجتياز فم زعبل.

وهنالك أيضاً بعض المداشر والقصور الصغيرة. وتعوز الحبوب كثيراً سكان هذا الخنك، لكن لديهم عدد كثير من الماعز يؤوونها أثناء الشتاء في كهوف واسعة. وتلك هي حصونهم لأنها عالية جداً ومدخلها في غاية الضيق، لا يُصعد إليها إلّا من ممرات صنعتها يد الإنسان بحيث يستطيع شخصان أن يصمدا أمام هجوم الإقليم بأجمعه. ويمتد هذا المضيق على طول نحو أربعين ميلاً[13].

مْضَغْرَة

مضغرة دائرة أخرى تتاخم السابقة في اتجاه الجنوب خارج المضيق، وتحتوي على قصور عديدة تقع كذلك على واد زيز، وأهمها القصر المسمى هلال[14]. وفيه يقيم أمير الدائرة، وهو عربي، وله فخذ من قبيلته[15] يعيش في البادية تحت الخيام، وآخر كذلك بالقصر مع بعض الجنود. لا يستطيع أحد أن يخترق إقليمه دون إذنه الصريح، فإذا لقي هؤلاء الجنود قافلة بدون رخصة مرور نهبوها فوراً وجردوا التجار والرائدين. وهناك أيضاً قصور ومداشر أخرى، كما شاهدت ذلك بنفسي، لكنها كلها بائسة[16].

الرْتَبْ

هي أيضاً دائرة تتاخم مضغرة وتمتد على طول زيز شطر الجنوب على مسافة نحو خمسين ميلاً[17] إلى إقليم سجلماسة. وبها عدد لا يحصى من

---

(13) بل نحو 20 ميلاً فقط.

(14) اضمحل هذا القصر ويبدو أن قصر السوق (الرشيدية الآن) خلفه.

(15) المنابهة.

(16) تكتب فرقة تفيلالت بالدال والضاد (مدغرة ومضغرة) للتفرقة بينها وبين مطغرة المقيمين بالمغرب الأوسط، وان كان أصلهم واحداً. انظر: كتابنا **الحركة الفكرية**، ج 2 : ص 520.

(17) بل 20 ميلاً.

القصور وبساتين النخيل. والسكان خاضعون للأعراب[18]، بخلاء جداً وجبناء، لا يقدر مائة من خيرة فرسانهم على مجابهة عشرة من فرسان الأعراب يخدمون أراضيهم لهؤلاء الأعراب كما لو كانوا عبيداً لهم. وتتاخم هذه الدائرة من الشرق جبلاً غير مأهول[19]، ومن الغرب سهلاً خالياً رملياً يخيم فيه الأعراب عند عودتهم من الصحراء.

---

(18) المنابهة.

(19) هو تمسنت الخالي تماماً.

إقليم سِجلماسة

لقد ذكرت آنفا باختصار ما رأيته جديراً بالذكر فيما يخص إقليم سجلماسة، إلاَّ أنه بقيٍ لي أن أقول إن إقليم سجلماسة ذاته الذي يمتد على مسافة عشرين ميلاً على طول زيز من الشمال إلى الجنوب، يشمل ما يقرب من ثلاثمائة قصر كبير وصغير، فضلاً عن المداشر[20]. وأهم القصور فيه ثلاثة:

الأول يسمى تَنِجْيُوت، وعدد سكانه نحو ألف كانون. وهو الأقرب من سجلماسة. وبه بعض الصناع.

والثاني يسمى تَبُعْصَامَتْ، وهو على بعد نحو ثمانية أميال جنوبي القصر السابق. وهو أكبر منه وأكثر حضارة، وفيه عدد كبير من التجار الأجانب ومن اليهود المشتغلين بالصناعة والتجارة. ويوجد في الواقع من السكان في هذا القصر أكثر من كل بقية الإقليم[21].

---

(20) يقصد بلاد تفيلالت.

(21) ما زال قصر تبعصامت باقياً على ضفة زيز اليمنى، على بعد نحو 5 كلم من أنقاض سجلماسة في الضفة اليمنى.

والثالث اسمه اَلْمأمُون، وهو أيضاً كبير حصين كثير السكان، خصوصاً منهم التجار اليهود والمسلمين[22]. ويدير شؤون كل قصر من هذه القصور أمير خاص هو رئيس فريقه. وكثيراً ما تنشب بين هؤلاء الناس خصومات ونزاعات، وهم في عراك دائم بينهم، يسيء بعضهم إلى بعض ما استطاع، فيتلفون قنوات السقي المجلوبة من النهر، ويقطعون النخل من أسفل، وينهب بعضهم بعضاً مظاهرين على ذلك بالأعراب.

تُضرب في هذه القصور سكة فضة وذهب، تشبه المثاقيل «البسلاتشي» الخفيفة من الذهب الرديء، وتزن العملة الفضية الرفيعة أربع حبات، وتساوي ثمانون منها مثقالاً. يأخذ رؤساء الفرق قسطاً من مداخيل البلاد، كالجزية المفروضة على اليهود، والربح الحاصل من ضرب السكة؛ أما القسط الآخر فيأخذه الأعراب، كرسوم المكس. والسكان أنذال، كل من هاجر منهم زاول حرفاً وضيعة، إلّا أنه يوجد بعض النبلاء الأغنياء يذهب الكثير منهم إلى بلاد السودان يحملون إليها بضائع من بلاد البربر ويستبدلون بها الذهب والعبيد.

يقتات عامة الناس بالتمر والقليل من القمح. وتكثر العقارب بكيفية مهولة في جميع القصور، لكن لا وجود للبراغيث. وتشتدّ الحرارة في الصيف وكذلك الغبار إلى حد أنه ــ فيما أظن ــ يسبب التهاب أعين الناس. وكثيراً ما يجف النهر في هذا الفصل من السنة ويقل الماء جداً، بحيث لا يجدون غير الماء الملح المستخرج من الآبار المحفورة باليد.

دائرة هذا الإقليم نحو ثمانين ميلاً. ولما كان الاتفاق سائداً بين السكان، فإنهم بنوا بأقل ثمن أسواراً لرد غارات الفرسان الأعراب. وطالما بقوا متحدين بإرادة مشتركة، عاشوا أحراراً، لكنهم هدموا هذه الأسوار عندما

(22) يبدو أن قصر المامون خرب حوالي 1830. وكان واقعاً على بعد 1 كلم، جنوب غرب تبعصامت على ضفة زيز اليسرى مباشرة شمال القصر الحالي عيادو.

افترقوا شيعاً وأحزاباً، واستعان كل حزب بالأعراب للدفاع عن نفسه فأصبحوا بذلك أتباعاً أو كعبيد للأعراب.

مدينة سِجِلْمَاسَة

إن مؤسس هذه المدينة ــ حسب بعض مؤلفينا ــ قائد روماني ذهب من موريطانيا فاحتل نوميديا بأسرها، ثم زحف شطر الغرب حتى ماسة، فبنى المدينة وسماها سِجِلُّوم مِيسَي لأنها كانت آخر مدن دولة ماسة. ولأنها كانت كالخاتم الذي يسجل نهاية فتوحاته، فحرف هذا الاسم بعد ذلك وتحول إلى سلجلماسة.

وحسب رواية أخرى هي في الواقع رواية الشعب ورواية جغرافينا البكرى، فان المدينة أسسها الإسكندر الكبير لفائدة المرضى والمعطوبين من جنوده[23].

بنيت المدينة في سهل على واد زيز، وأحيطت بسور عالٍ مازالت بعض أجزائه باقية. ولما فتح المسلمون افريقيا خضعت سجلماسة للملوك زناتة إلى أن طردهم يوسف بن تاشفين اللمتوني.

كانت سجلماسة مدينة متحضرة جداً، دورها جميلة، وسكانها أثرياء بسبب تجارتهم مع بلاد السودان. وكان فيها مساجد جميلة، ومدارس ذات سقايات عديدة يجلب ماؤها من النهر، تأخذه ناعورات من واد زيز وتقذف به في قنوات تحمله إلى المدينة. وكان هواؤها طيباً، إلاّ أن فصل الشتاء بها

---

(23) لا يعرف للرومان توغل في داخل المغرب وبالأحرى وراء جبال الأطلس، وخط الليمس الذي كان يحد منطقة نفوذهم ماتزال آثاره بادية في ضاحية مدينة الرباط. أما الإسكندر فلا يوجد في نص البكري، ولعل الوزان اعتمد على رواية شفوية كانت جارية على الألسن آنذاك، كشأن العامة في نسبة الأشياء العتيقة والإغراب في ذلك، وظنها ــ لطول المدة ــ رواية مكتوبة.

كان شديد الرطوبة، كثيراً ما يسبب النزلة للناس، وتمرض عيونهم في الصيف، لكنهم سرعان ما يشفون.

سجلماسة الآن خربة تماماً كما ذكرنا آنفاً، تجمع سكانها في القصور، وتفرقوا هنا وهناك في الإقليم كله. أقمت بهذه المدينة وإقليمها، وعقدت علاقات مع أهلها، لأن البلاد كثيرة السكان. وبقيت مرة سبعة أشهر بقصر المامون.

قصر السّويهْلَة

قصر صغير يقع على نحو اثني عشر ميلاً من إقليم سجلماسة إلى جهة الجنوب، أسسه الأعراب في الصحراء ليحفظوا فيه أموالهم ومؤنهم ويمنعوها من عدوهم، ولا شيء حوله سوى لعنة الله. فليس هناك حديقة شجر ولا خضر ولا زرع، ولا أثر لأية حياة، وإنما هي الحجارة السوداء والرمال.

أمّ الـحْدَجْ

قصر آخر على بعد نحو ثمانية عشر ميلاً من سجلماسة، بناه الأعراب أيضاً للسبب الذي ذكرناه. ولا يوجد حول هذا القصر سوى بادية وعرة ينبت فيها الحدج[24] بكثرة، حتى إنها لتبدو من بعيد وكأنها ليمون رمي به في الأرض[25].

أُمّ العْفَنْ

قصر رديء بعيد عن سجلماسة بنحو خمسة وعشرين ميلاً، بناه الأعراب في فلاة وعرة على الطريق المؤدية من سجلماسة إلى درعة.

---

(24) ترك المؤلف مكان كلمة حدج أو حنظل فارغاً لأنه لم يكن فيما يبدو عارفاً الاسم الإيطالي.

(25) ما تزال أطلال قصبة أم الحدج ظاهرة على واد زيز بعيدة بنحو 5 كلم عن المكان الذي يلتقي فيه الرافد المربوح بزيز.

وأسواره من حجر أسود كأنه فحم. يقيم فيه دوماً حرس بعض الأمراء الأعراب، ولا يستطيع أحد أن يمر دون أن يؤدي ربع مثقال عن كل جمل، ويفرض نفس المبلغ على كل يهودي.

مررت من هناك ذات مرة مع أربعة عشر يهودياً، ولما سألنا الحارس عن عددنا أسقطنا شخصين، فعدنا الحارس وأراد أن يحتفظ باثنين منا، فأكدنا له أننا مسلمان وأن الباقي يهود، وللتثبت من ذلك طلب منا نحن الاثنين أن نقرأ الفاتحة، ثم اعتذروا لنا وخلوا سبيلنا[26].

تَبَلْبَلْتْ

هو مكان مأهول في وسط صحراء نوميديا، على بعد نحو مائتي ميل من الأطلس ومائة ميل جنوب سجلماسة. وهناك ثلاثة قصور عامرة بالسكان[27]، وأراضيها الصالحة للفلاحة مغروسة بالنخيل، الماء فيها قليل وكذلك اللحم، وتؤكل فيها النعام والوعول التي تصاد. ورغم أن القوم يتجرون مع بلاد السودان فإنهم فقراء لكونهم خاضعين للأعراب[28].

تُدْغَة

إقليم صغير على مجرى ماء صغير يحمل نفس الاسم. ويكثر فيه التمر والخوخ والعنب والتين، وهناك نحو أربعة قصور وعشر قرى يسكنها

---

(26) لم تعد تعرف آثار أم العفن إلّا باسم إِغْرَمْ معناه قصر بالبربرية. لكن غديراً على بعد بضع مئات من الأمتار شمال هذه الآثار ما زال يحمل اسم أم العفن، لأن الأعراب كانوا يجيؤون إليه بكثرة ليغتسلوا فيه. وتقع هذه الآثار على بعد 60 كلم جنوب سجلماسة على الضفة اليسرى لواد غريس.

(27) هذه القصور هي الحالية: شرايعية وزكرى ومخلوف.

(28) تبعد تبلبلت في الحقيقة عن الأطلس بنحو 500 كلم. وبـ 350 كلم عن سجلماسة جنوباً.

أناس فقراء، جلهم فلاحون ودباغون. ويبعد هذا الإقليم عن سجلماسة بنحو أربعين ميلاً[29].

فَرْكْلَة

دائرة أخرى مأهولة على نهر صغير، يكثر فيها كذلك التمر وغيره من الفواكه، لكن الحبوب لا تنبت فيها إلا بقدر قليل جداً. وهناك ثلاثة قصور وخمس قرى بعيدة بنحو مائة ميل عن الأطلس وستين ميلاً عن سجلماسة. وسكانها خاضعون للأعراب[30].

تَزَرِينْ

منطقة جميلة، تقع كذلك على نهر صغير، بعيدة بنحو ثلاثين ميلاً عن فركلة، ومائة ميل عن الأطلس. ينتج هذا الإقليم التمر بكثرة، ويشمل خمس عشرة قرية وستة قصور وآثار مدينتين لا يعرف اسمهما. ومن هناك جاءت تسميته، لأن تزرين تعني المدن في لغة الأفارقة[31].

بني كُومِي

دائرة أخرى على واد كبير، نخلها كثير جداً، وسكانها فقراء يزاولون بفاس كل أنواع المهن الحقيرة. يجمعون أرباحهم في سنة ويشترون بها فرساً يسوقونه إلى بلادهم، ثم يبيعونه إلى التجار الذاهبين إلى بلاد السودان.

---

(29) وقع خلط هنا للكاتب، إذ فركلة هي التي تقع على بعد نحو 90 كلم غرب سجلماسة. أما تُدغة فما زالت أبعد منها غرباً. فلا يمكن تحديد الواحة التي ينطبق عليها هذا الوصف من بين هاتين الواحتين.

(30) انظر: عن فركلة كتابنا **الحركة الفكرية**، ج 2 : ص 527.

(31) خلط المؤلف الذي كان يجهل اللغة البربرية بين تزرين، أي شجر التين، وتدرين، أي الدور، ثم أطلقت على المداشر. وتزرين المرسومة في خرائطنا تقع على بعد نحو مائة كلم جنوب غرب فركلة، في السفح الجنوبي لجبل صغرو.

وفي هذه الدائرة ثمانية قصور صغيرة وأكثر من خمس عشرة قرية بعيدة عن سجلماسة بنحو مائة وخمسين ميلاً إلى جهة الجنوب الشرقي[32].

قصرا مْزَالَقْ وبُوعْنَانْ

قصران في صحراء نوميديا، على بعد نحو خمسين ميلاً من سجلماسة. وسكانها أعراب يعيشون دائمًا في الفقر والبؤس، لا ينبت في هذه الأراضي أي نوع من الحبوب، وليس بها سوى القليل من النخيل.

وهذان القصران على ضفة واد كْير[33].

القْصَيّــــر

مدينة صغيرة في صحراء نوميديا على بعد نحو عشرين ميلاً من الأطلس، فيها معدن رصاص ومعدن كحل، يستخرج السكان هذين المعدنين ويحملونهما إلى فاس. ولا ينبت شيء حول هذه البلدة[34].

---

(32) تتوالى قصور بني كومي على بعد نحو 250 كلم جنوب شرق تفلالت على نحو 20 كلم على طول ززفانة ــ لا واد كيرــ. لقد اضمحلّت خمسة من بين القصور الثمانية التي ذكرها المؤلف وعوّضت بأخرى، منها تغيت المشهور بألوانه الساحرة. انظر كتابنا **الحركة الفكرية**، ج: 2، ص 625 - 626.

(33) لا يعرف مزالق، وإنما يقع بوذنيب على واد كير بنفس البعد المذكور هنا. أما بوعنان فليس على كير، بل على رافده واد بوعنان. والقصر واقع على بعد بضعة كيلومترات من هذا المركز شمالاً.

(34) لقد اضمحلّ القصير لكن موقعه يمكن أن يكون هو حاسي القصير. ويحمل مجرى نهر جاف قريباً من هناك اسم واد القصير، وكتلة التلال المجاورة اسم عرق القصير. والثنية الواقعة شرقاً التي ينفذ منها إلى نجد حمادة كير اسم ثنية القصير. وحيث إن حاسي القصير يوجد على بعد نحو 70 كلم. جنوب شرق سجلماسة، فيجب تصحيح المسافة بـ120 ميلاً من الأطلس، وهي المسافة بين القصير ومدخل الخنك حيث كان ولا شك يمر الرصاص والكحل المحمولان إلى فاس.

بني بَصْري

إقليم مأهول، توجد به نحو ثلاثة قصور في سفح الأطلس، وتكثر فيه الفواكه، لكن لا ينبت فيه نخيل ولا حبوب. وهناك منجم حديد يزوّد جميع إقليم سجلماسة. وبعض قرى هذا الإقليم خاضعة لأمير دبدو، وجميع السكان يشتغلون في المنجم[35].

وَكْـــدَة

إقليم بعيد عن سجلماسة بنحو سبعين ميلاً إلى الجنوب[36]، فيه ثلاثة قصور كبيرة وقرى عديدة، كلها على واد كُير[37]. لا ينبت فيه إلا القليل من القمح، لكن تمره كثير. يرسل السكان بضائعهم إلى بلاد السودان، وكلهم خاضعون للأعراب.

فكِّيك

فكِّيك عبارة عن ثلاثة قصور في وسط الصحراء يحيط بها عدد كبير من النخيل. وتنسج النساء ثياباً من الصوف على شكل أغطية السرير، لكنها دقيقة رفيعة حتى يظن أنها حرير، وتباع بثمن مرتفع في مدن بلاد البربر كفاس وتلمسان. والرجال أذكياء جداً يتعاطى بعضهم التجارة في

---

(35) تقع قصور بني بصري في أعلى واد عيسى الذي هو من الفروع المكوّنة لواد بوعنان، أحد روافد كير. وهي بعيدة عن دبدو بأكثر من 200 كلم جنوباً، وبنحو 30 كلم جنوب غرب مركز تلسينت. وتوجد حالياً خمسة من قصور بني بصري، والقصور القديمة الثلاثة خربة قرب القصور الحالية لآيت يحيى وعيسى، ولآيت عيسى وعلي، ولتخوالت. ولم يبق إلا آثار معادن الحديد قرب هذه القصور بعد انقطاع عرقها.

(36) بل 170 ميلاً إلى الشرق لا إلى الجنوب.

(37) إن القصرين الوحيدين الباقيين في هذه الواحة يوجدان على واد بشار الذي لا صلة بينه وبين كير، وهما وكدة، وبشار البعيد عنها بستة كيلومترات في جهة الجنوب الغربي.

بلاد السودان، ويرحل البعض الآخر إلى فاس لدراسة الآداب. وإذا نال أحدهم الإجازة عاد إلى نوميديا وأصبح إماماً أو خطيباً. لذلك كان جميع الفكّيكّيين أثرياء. وهذه القصور على بعد نحو مائتين وخمسين ميلاً شرقي سجلماسة[38].

تَسَبِتْ

إقليم مأهول في صحراء نوميديا على بعد نحو مائتين وخمسين ميلاً شرق سجلماسة ومائة ميل من الأطلس، يضم أربعة قصور وقرى عديدة في تخوم ليبيا، على الطريق المؤدّية من فاس وتلمسان إلى مملكة أكْدز في بلاد السودان. سكانه فقراء جداً، لا تنبت أرضهم غير التمر وقليل من الشعير. بشرتهم سوداء، إلا أن نساءهم جميلات سمراوات.

تِيكُورارين

تيكُورارين[39] منطقة مأهولة في صحراء نوميديا، بعيدة بنحو مائة وعشرين ميلاً عن شرق تسبت، حيث يوجد ما يقرب من خمسين قصراً وأكثر من مائة قرية بين حدائق النخيل. وسكان هذه المنطقة أغنياء لأنهم اعتادوا الذهاب كثيراً بسِلعهم إلى بلاد السودان. وهنا مجمع القوافل، لأن تُجَّـار بلاد البربر ينتظرون تجار بلاد السودان، ثم يذهبون جميعاً.

لهذه البلاد أراض كثيرة صالحة للزراعة، لكن يلزم سقيها بماء البئر وتسميدها بالسماد، لأنها جافة وهزيلة جداً. ولذلك يسكن أهل

---

(38) قصور فكّيكْ كثيرة أهمها سبعة. انظر الصديق بن العربي، المغرب، ص 120 - 121، وكتابنا الحركة الفكرية، ج: 2، ص 511.

(39) معناه بالبربرية المعسكرات، ويعرّب فيقال كرارة، انظر كتابنا الحركة الفكرية، ج: 2، ص 629.

تيكورارين الغرباء في منازلهم بدون أجر ليحصلوا على سماد الخيل ورجيع الناس، حتى إن أكبر ما يسيء به الغريب لمضيفه أن يتغوّط خارج بيته، فإذا رآه رب البيت يفعل ذلك اغتاظ وصاح به قائلاً: «ألا يوجد كنيف في داري حتى تخرج لقضاء حاجتك؟!». واللحم مرتفع الثمن لعدم إمكان وجود الماشية من جرّاء جفاف البلاد. فليس بتيكورارين سوى بعض الماعز الذي يربّ من أجل اللبن. ويؤكل لحم الجمال التي تشترى من الأعراب الواردين على الأسواق التي تقام بهذه المنطقة، وهي جمال معطلة لم تعد صالحة للركـوب. ويُستعمل أيضاً في هذا الغذاء البائس الشحم المالح الذي يأتي به تجار فاس وتلمسان ويجنون منه أرباحاً طائلة.

كان بعض اليهود الأغنياء يقيمون بتيكورارين، ثم تدخّل أحد فقهاء تلمسان[40] فأدّى ذلك إلى نهب أموالهم وتقتيل معظمهم من طـرف السكان. حدث ذلك في العام الذي طرد فيه الملك الكاثوليكي اليهود من اسبانيا وصقلية[41].

وتدبير الشؤون بأيدي بعض رؤساء الفرق. وكثيراً ما يتقاتلون بينهم ويتطاحنون، إلا أنهم لا يمسّون الغرباء بسوء. ويؤدّون عادة إتاوة صغيرة إلى الأعراب ويخضعون لسلطتهم.

مِزَابْ

مزاب منطقة مأهولة في قفار نوميديا على بعد نحو ثلاثمائة ميل شرق تيكورارين وعلى نفس المسافة من البحر المتوسط[42]. تشتمل على ستة

---

(40) محمد بن عبد الكريم المغيلي مؤلف كتاب ما يجب على المسلمين من اجتناب الكفّار، الذي أثار ضجة فكرية كبرى في أقطار المغرب. انظر تفاصيلها في كتابنا الحركة الفكرية، ج: 1، ص 268 - 270.

(41) المرسوم المتعلق بطرد اليهود من اسبانيا مؤرخ في 3 مارس 1492 (3 جمادى الأولى 897).

(42) بل على بعد نحو 600 كلم جنوب البحر المتوسط و700 كلم من كرارة.

قصور وعدة قرى(43)، سكانها أغنياء. وهي أيضاً رأس خط تجاري يلتقي فيه تجار الجزائر وبجاية بتجّار أرض السودان، غير أن أهل مزاب يؤدّون الإتاوة إلى الأعراب ويخضعون لهم.

تقُرْتْ

مدينة قديمة بناها النوميديون على جبل في شكل نتوء، يمر في سفحها نهر صغير يقطعه جسر متحرّك كما يوجد ذلك في أبواب المدن. وهي مسوّرة بسور من الطوب والطين، ما عدا من جهة الجبل فإن صخوره تحميها. وتقع هذه المدينة على بعد نحو خمسمائة ميل جنوب البحر المتوسط، وثلاثمائة ميل من تيكُورارين(44).

وفي تقرت نحو ألفين وخمسمائة كانون. دُورها مبنية بالآجر المشوي والنيء حاشا الجامع فإنه وحده مبني بالحجر المنحوت الجميل. وهي عامرة بالصنّاع والنبلاء الأغنياء الذين يملكون حدائق النخيل. لكن القمح منعدم فيها، ويُستورد من قسنطينة في مقابل التمر. ويحب أهل تقرت الغرباء جداً، ويستضيفونهم في بيوتهم بالمجان، ويفضّلون أن يزوّجوا بناتهم للغرباء من أن يزوّجوهن أهل البلاد. ومن عادتهم أن يمنحوهن مهراً مكوّناً من عقارات، كما هو الشأن في أوربا. ويقدّمون أيضاً هدايا هامة إلى

---

(43) وادي ميزاب أو بلاد ميزاب، هكذا يسمّيها أحمد توفيق المدني في كتاب الجزائر، وذكر أن الخوارج الإباضية تلاحقوا بوادي ميزاب بعد انقراض دولة بني مدرار بسجلماسة، ودولة تيهرت، وكانوا قد التجأوا إلى بلاد وارجلان (= وركلة) واريغ فضاقت بهم، ورأوا أن جبال بني مصعب = وادي ميزاب أحسن ملجأ لهم وأمنع حصن لأجيالهم. فتلاحقوا بها وتكوّنت بذلك في عصور متعاقبة ما يعرف ببلاد ميزاب السبع، وهي عرداية (العاصمة) وبني يزقن، ومليكة، وبنورة، والعطف، وبيريان، والقرارة.
انظر النظام الاجتماعي بوادي ميزاب في كتاب الجزائر، ص 109 - 121.

(44) لا توجد سوى 330 ميل بين تقرت والبحر المتوسط، والطريق الأقرب من تقرت إلى تيميمون مروراً بوركلة والقليعة يقدّر بنحو 550 ميلاً.

الغرباء، ولو كانوا يظنّون أنهم لن يعودوا إليهم أبداً، وذلك لفرط كرمهم. كانت تقرت تقرت أولاً خاضعة لملوك مراكش، ثم لملوك تلمسان، وأخيراً لملك تونس الذي تؤدّي له خمسين ألف مثقال في السنة، شريطة أن يأتي بنفسه لجبي الخراج. وقد ذهب إليها ملك تونس الحالي مرتين. وتوجد حول تقرت عدة قصور وقرى وأماكن مأهولة على طول مسيرة ثلاثة أيام أو أربعة، وكلها خاضعة لأمير تقرت الذي أصبح يجبي منها مائة وثلاثين ألف مثقال. ولهذا الأمير حرس قوي من الفرسان ورماة القذائف والبنادق الأتراك، يعطيهم أجراً مناسباً حتى يبقى كل واحد منهم في خدمته عن طيب خاطر. وهو شاب شهم كريم اسمه عبد الله، اتّصلتُ به فوجدتهُ في تمام الظرف ولين العريكة، كثير الانشراح عطوفاً على الغرباء[45].

وَرْكْلَة

مدينة أزلية بناها النوميديون في صحراء نوميديا، لها سور من الآجر النيء ودُور جميلة، وحولها نخل كثير. ويوجد في ضواحيها عدة قصور وعدد لا يحصى من القرى. الصنّاع فيها كثيرون، وسكانها أغنياء جداً، لأنهم في اتّصال مع مملكة أكدز، منهم عدد كبير من التجّار الأجانب الغرباء عن البلد، لاسيما من قسنطينة وتونس، يحمّلون إلى وركلة منتجات بلاد البربر ويستبدلونها بما يأتي به التجّار من بلاد السودان.

القمح واللحم نادران جداً، وتؤكل الجمال والنعام. وأغلب الناس سود لا بسبب المناخ ولكن لأن لهم جواري سوداوات يتسرون بهن، فيأتين بأولاد سود. وأهل وركلة كرما ظرفاء، يستقبلون الغرباء استقبالاً حسناً، لأنهم لا يملكون غير ما يأتيهم به هؤلاء، كالقمح واللحم المالح والشحم والمنسوجات والأقمشة والأسلحة والسكاكين، وكل ما يحتاجون إليه على الإجمال.

---

(45) انظر عن أرض تقرت، أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص 182 وما بعدها.

لورڤلة أمير يشرّفونه كالملك، يعيل نحو ألف فارس من حرسه، ويجبى إليه من إمارته مائة وخمسون ألف مثقال، ويؤدّي إلى جيرانه الأعراب خراجاً مرتفعاً[46].

(46) انظر عن وركلة كتاب الجزائر لأحمد توفيق المدني، ص 244 - 245.

إقليم الزّابْ

يقع هذا الإقليم في وسط مفازات نوميديا، ويبتدىء غرباً من تخوم مسيلة، ويحدّه شمالاً جبال مملكة بجاية، ويمتد شرقاً إلى بلاد الجريد التي توافق مملكة تونس، وجنوباً إلى القفاز التي تقطعها الطريق المؤدّية من تقرت إلى ورگْلة. وهذه المنطقة شديدة الحرارة رملية، لا يوجد بها إلا يسير من الماء وقليل من الأراضي الصالحة لزراعة الحبوب، لكن عدد حدائق النخل بها لا يُحصى. يشمل الإقليم خمس مدن وعدداً كثيراً من القرى. وسنصف المدن حسب ترتيبها.

بِسْكِـرَة

مدينة عريقة في القِدم، أسّست أيام كان الرومان يحكمون بلاد البربر. وخربت بعد ذلك، ثم أعيد بناؤها لما دخلت الجيوش الإسلامية إلى افريقيا. وهي الآن عامرة كما ينبغي، وسورها من الآجر النيء. أما السكان فمؤدّبون لكنهم فقراء، لأن أراضيهم لا تُنتج شيئاً غير التمر.

وقد تعاقب على حكم هذه المدينة رؤساء كثيرون. فكانت مدة خاضعة لملك تونس حتى وفاة الملك عثمان[47]، فثارت المدينة حينئذ بإيعاز

---

(47) هو أبو الحسن عثمان المتوفى في شهر شوال 893/ شتنبر 1488.

من إمامها الـذي نصب نفسه أميـراً عليها. ولم يستـطع ملك تونس استرجاعها منذ ذلك الحين. تكثر فيها العقارب التي يقتل لسعها حالاً، ولذلك يغادرها السكان في الصيف للإقامة في ممتلكاتهم خارجها إلى شهر نونبر[48].

البُـرْج

البرج مدينة على بعد أربعة عشر ميلاً غـرب بسكرة[49]، وهي متحضّرة كثيرة السكان. يوجد بها عدد كبير من الصنّاع، لكن الأغلبية من الفلاحين، ونظراً لقلة الماء بها فإن كل فلاح على انفراد يجلب الماء إلى حقله ساعة أو ساعتين من نهار حسب سعة أرضه، وذلك من القناة التي تمدّ الحقول. ولهؤلاء الفلاحين ساعات مائية يملؤونها، وعندما تفرغ يكون وقت السقي المخصص لهم قد انتهى، ولا يحق للمستفيد من الماء أن يحتفظ به حينئذ. وكثيراً ما تهيج الخصومات بينهم بسبب ذلك ويسقط القتلى[50].

نَفْطَـة

هذه مدينة، أو بالأحرى مكان مأهول مقسّم إلى ثـلاثة قصـور عظيمة، لاسيما القصر الذي توجد به القصبة. أظن أن الرومان هم الذين أسّسوا نفطة حسبما فيها من البناءات. ورغم كثرة سكانها فليس لها إطلاقاً طابع مدينة متحضّرة. وكان سكانها عادة من كبار الأغنياء لوجودهم في تخوم ليبيا على الطريق المؤدّية إلى بلاد السودان. لكنها دخلت منذ ما يقرب

---

(48) انظر عن بسكرة قديماً وحديثاً، أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص 197 - 198.
وقد ضبطها ياقوت في **معجم البلدان** (2 :182) بكسر الكاف.

(49) بل 24 ميلاً.

(50) انظر عن البرج المسمّى أيضاً برج بوعريرج، أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص 197.

من مائة سنة في ثورة دائمة ضد ملك تونس. فحاربها الملك الحالي، واحتلّها ونهبها وقتل الكثير من أهلها وهدم أسوارها، حتى تحوّلت القصور الثلاثة اليوم إلى قرية واحدة. يمر بالقرب منها جدول ماء يميل إلى السخونة[51].

طولْقَة

مدينة بناها النوميديون[52]. يحيط بها سور حقير، ويمر قربها جدول ماء ساخن. تنتج أراضيها كثيراً من التمر وقليلاً من القمح. سكانها فقراء هم أيضاً، ومثقلون بالإتاوات من قِبَل الأعراب وملك تونس، لكنهم في غاية البخل والكبر، ينظرون إلى الغرباء نظرة السوء[53].

دُوسَّن

مدينة أزلية من بناء الرومان في النقطة التي تتاخم فيها مملكة بجاية صحراء نوميديا. وقد خربت لما دخل جنود المسلمين إلى افريقيا، لأنه كان بداخلها كونت روماني مع عدد كبير من الشجعان لم يرض إطلاقاً بتسليم المدينة إلى القائد العربي؛ بحيث إن الحصار دام عاماً إلى أن احتلت عنوة وقُتل جميع الرجال وأُسر النساء والأطفال، ثم أُضرمت فيها النيران فاحترقت المنازل، لأن الأسوار المبنية بحجر ضخم لم يمكن هدمها، ولكنها تبدو مخرّبة في واجهتين لا أدري أكان ذلك بآلة أو بزلزال. وتظهر قرب

---

(51) نفطة مدينة قريبة من توزر، زارها أبو سالم العياشي ووصفها في رحلته (ج: 2، ص 409). وربما كان مقصود المؤلف هنا قرية أوماش البعيدة بنحو 20 كلم إلى الجنوب.

(52) ذكر أحمد توفيق المدني في كتاب الجزائر (ص 222) أن بها آثار معاقل رومية بيزنطية.

(53) انظر عن واحة طولقة وآبارها الفوّارة وما يجاورها من واحات، المصدر السابق في نفس الصفحة.

المدينة آثار كأنها مقابر، وعندما ينزل المطر يعثر فيها الصيادون على قطع غليظة من الذهب والفضة مع صور ومفاتيح لم يستطع أحد أن يفسّر لي معناها[54].

(54) تحتوي قرية دوسن البعيدة عن البرج بنحو 28 كلم على آثار رومانية، لم يقع التعرّف على أهميتها إلا أخيراً بفضل التصوير الجوي.

بلاد الجريد

يمتد هذا الإقليم من تخوم بسكرة إلى تخوم جزيرة جربة، ويبعد جزء منه كثيراً عن البحر المتوسط، كقفصة، وتوزر الواقعتين على مسافة ثلاثمائة ميل بالداخل[55]. وهذه البلاد شديدة الحرارة كثيرة الجفاف، لا تنبت فيها حبوب، وإنما تنتج كمية وافرة من التمر الجيد الممتاز الذي يحمّل إلى شاطىء تونس بكامله. ويشمل الإقليم عدداً من المدن التي سنذكرها:

تَــوْزر

مدينة عتيقة بناها الرومان في صحراء نوميديا على جدول ماء صغير يأتي من بعض الجبال من جهة الجنوب. وكانت أسوارها جميلة متينة تحيط بأرض شاسعة، لكن المسلمين خرّبوها وخرّبوا في نفس الوقت عدة قصور جميلة لم تعد اليوم سوى أنقاض موحشة[56]. والسكان أغنياء بعقاراتهم

---

(55) بل لا تبعد قفصة عن ميناء محرس إلا بنحو 217 كلم، ولا توزر عن ميناء قابس إلا بنحو 211 كلم.

(56) ربما لم يزر الوزان توزر وإنما استقى معلوماته ممن أعطاه أخباراً غير صحيحة، أو خانته الذاكرة، وإلا فمياه توزر من عيون تنبع من الرمل وتجتمع خارج البلد في واد متّسع تتشعّب منه جداول كثيرة، وكان افتتاح توزر صلحاً على يد حسان بن النعمان سنة 79 هـ ولم يخرّبها العرب هي ولا غيرها من القرى التي دخلت في طاعتهم دون كبير إصرار ومقاومة. انظر وصف توزر وتاريخها مفصلاً في رحلة **التجاني**، ص 157 - 172.

وأموالهم، لأنهم يقيمون في مدينتهم أسواقاً عديدة يقصدها الناس من مختلف القبائل النوميدية والبربرية. وهم مقسّمون إلى قسمين يفصل بينهما النهر الصغير، يسمّى القسم الأول فَطْناسة[57] وينتمي إليه كل شريف ونبيل بالمدينة، ويسمّى ثانيهما مِرْداس ويتكوّن من أعراب بقوا في المدينة منذ أن فتحها المسلمون[58]. وهذان القسمان يعيشان في عداء، وقليلاً ما يطيعان ملك تونس الذي يعاملهم بشدة عندما يجيء إلى توزر، خصوصاً الملك الحالي.

مدينة قَفْصَة

قفصة مدينة قديمة بناها الرومان، وبقيت في أيدي دوقاتهم إلى أن جاء عقبة قائد عثمان[59] فحاصرها، وفتحها المسلمون ودمّروا أسوارها. لكنهم لم يستطيعوا تدمير القصبة التي هي حقاً عجيبة، لأن علو جدرانها يبلغ خمسة وعشرين ذراعاً وسمكها خمسة أذرع، وهي مبنية بالحجر العظيم المنحوت كحجر الكوليزى بروما. وأعيد بناء الأسوار بعد ذلك، وأخذت المدينة تسترجع طابعها كمدينة متحضّرة، إلى أن جاء المنصور ملك مراكش وخليفتها، فأمر بهدم السور مرة أخرى وجزء من جدار القلعة. والسبب في ذلك أنه كان قد بقي في هذه الناحية أمير من أسرة ملك لمتونة، يحكم البلاد ويعيث فساداً في الساحل التونسي بمساعدة

---

(57) تقع فطناسة في الجهة الأخرى لشط الجريد في ناحيته الجنوبية ببلاد نفزاوة.

(58) هناك مرداس رياح أي الهلاليون، ومرداس سليم من بطون بني سليم، لذلك لا يتعارض ما سبق أن ذكره المؤلف في الكتاب الخامس من وجود فرقة مرداسية في ضواحي عنّابة مع ما ذكره هنا.

(59) والي عثمان الذي غزا افريقية وهاجم قفصة هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري ــ أخو عثمان من الرضاع ــ وذلك عام 26هـ. انظر أحمد الناصري، **الاستقصا**، ج: 1، 66-67.

الأعراب[60]. وكان المنصور قد جاء مرة أولى بجيوشه إلى هذه البلاد فسارع الأمير المذكور إلى مغادرة المنطقة والدخول إلى الصحراء مع بعض الأعراب[61]. فاكتفى المنصور باستسلام الإقليم إليه ورجع إلى مراكش. وما كاد يصل إليها حتى طلع الأمير من الصحراء وطرد ولاة المنصور. فأعاد المنصور الكرّة بعد بضع سنوات وجاء بجيش جرّار إلى قفصة، فوصلها وفوجىء الأمير وهو داخل القلعة، فهاجمه المنصور بدون هوادة. وكان الدفاع سهلاً لأن أسوار المدينة كانت كافية لصد هجوم جيوش افريقيا كلها؛ لكن الأمير المسكين لم تكن له مؤن في القلعة، فاضطر يوماً إلى محاولة خروج مسلّح مع أبنائه وأوليائه، فحاربوا كلهم إلى أن مزّقتهم السيوف. وعند ذلك أمر المنصور بهدم إحدى واجهات القلعة، وعين ولاة ومستخدمين في الإقليم، ثم عاد إلى المغرب ومعه رؤوس الفتنة من الأعراب الذين تسبّبوا في ثورة البلاد.

وعاد اليوم عمران قفصة كاملاً، لكن ليس فيها سوى بناءات متواضعة، باستثناء بعض المساجد. أزقّتها واسعة جداً، وكلها مرصفة بالحجر الأسود كنابل وفلورنس، والسكان متحضّرون لكنهم فقراء لأنهم مثقلون بالإتاوات من قِبَل ملك تونس. وفي وسط المدينة عيون بُنيت عليها أحواض مستطيلة عميقة واسعة، تحيط بها الجدران، إلا أن بين الجدران

---

(60) يشير إلى بني الرند أمراء قفصة من قبل المرابطين، وقد استبدّ بنو الرند بقفصة بعد سقوط الدولة المرابطية، لكن عبد المؤمن بن علي استنزلهم لما غزا افريقية، ثم رجعوا إلى قفصة فغزاهم ابنه أمير المؤمنين يوسف عام 576 وقتل القائم منهم بها. انظر **الاستقصا**، ج: 2، 136-137.

(61) اختلط الأمر على الحسن الوزان، فالثائر الذي طارده يعقوب المنصور هو علي بن اسحاق المسوفي المعروف بابن غانية. وكان بنو غانية أمراء من قبل المرابطين على الجزائر الشرقية: ميورقة ومنورقة ويابسة. وبعد انقراض الدولة المرابطية كانت ثورة بني غانية بالمغربين الأوسط والأدنى من أخطر الثورات التي واجهها الموحّدون. انظر تفاصيل ذلك عند أحمد الناصري، **الاستقصا**، ج: 2، 142 وما بعدها؛ والوزير السراج، **الحلل السندسية**، ج: 4، ص 1006.

والأحواض فضاء يستطيع الناس أن يسيروا فيه ليغسلوا أجسادهم، لأن الماء ساخن، ويُشرب هذا الماء بعد ما يبرّد مدة ساعة أو ساعتين.

وهواء قفصة شديد الوخم، لذلك فإن نصف السكان مصابون بالحمّى على الدوام. وهؤلاء القوم فقراء وأشرار بالخصوص، لا يريدون مصادقة الغرباء، ولذلك تكرههم افريقيا كلها. ويوجد خارج المدينة عدد لا يُحصى من النخيل والزيتون والليمون. والتمر أجمل وأحسن وأغلظ ما يوجد في الإقليم كله. وكذلك الزيتون الذي يُصنع منه زيت جيد المذاق واللون. وفي قفصة أربعة أشياء من الطراز الأول: التمر والزيتون والقماش والفخار. يرتدي السكان لباساً لائقاً جداً، لكنهم ينتعلون شبه نعال من جلد الوعل عريضة جداً حتى يمكنهم إصلاحها عدة مرات.

وقد سبق أن ذكرنا مدينة الحامة وقابس وجربة عند الكلام على مملكة تونس.

نَفْزاوة

تتكوّن نفزاوة من ثلاثة قصور متقاربة[62]، كثيرة السكان لكنها مسوّرة بأسوار كئيبة تحيط بدُور أكثر منها كآبة، والأراضي تصلح للتمور، ولا تنبت أي نوع من الحبوب. والسكان فقراء لأن ملك تونس يثقل كواهلهم بالإتاوات وهم على مسافة نحو خمسين ميلاً من البحر المتوسط[63].

تاوَرْغَة

تاورغة مكان مسكون في تخوم دولة طرابلس على حدود صحراء برقة، توجد فيه ثلاثة قصور وبعض القرى مع نخل كثير. ولا تنبت فيه

---

(62) لم تكن بنفزاوة في أوائل القرن الثامن الهجري إلا قاعدتان، هما طرة، وبشرى. ذكرهما التجاني في رحلته، ص 142 - 153 وما بعدها.

(63) بل 100 ميل.

الحبوب. وحرمان السكان مما هو ضروري لهم لا يقل عن حرمانهم من المال، لمجاورتهم للصحراء وبُعدهم عن كل مركز متحضّر(64).

زْلِيطَنْ

زليطن(65) منطقة مسكونة على شاطىء البحر المتوسط، حيث القصور العديدة والنخيل الكثير. يتمتع السكان فيها برخاء نسبي، لأن موقعهم على جانب البحر يمكّنهم من الاتّجار مع المصريين والصقليين.

غَدَامِسْ

غدامس(66) منطقة كبيرة مسكونة، حيث القصور العديدة والقرى المأهولة، على بعد نحو ثلاثمائة ميل من البحر المتوسط. سكانها أغنياء، لهم بساتين نخل وأموال، لأنهم يتّجرون مع بلاد السودان. يديرون شؤونهم بأنفسهم ويؤدّون خراجاً إلى الأعراب. وكانوا من قبل خاضعين لملك تونس أي لخليفته في طرابلس. ويرتفع ثمن القمح واللحم في هذا المكان ارتفاعاً كثيراً.

فَزَّان

فزان هو الآخر منطقة كبيرة جداً مسكونة، فيها قصور عظيمة، وقرى كبيرة، كلها عامرة بناس أغنياء يملكون النخيل والأموال، ويجاورون

---

(64) تقع تاورغة على نحو 260 كلم شرق طرابلس و40 كلم جنوب ميناء مسراتة التي أشار إليها المؤلف في الكتاب الخامس، ولا ندري إن كانت هي صلتان التي تحدّث عنها التجاني في **الرحلة**، ص 22-23.

(65) تقع واحة زليطن الهامة ــ وكتبت في الأصل يزليطن ــ على نحو 160 كلم شرق طرابلس ونحو 60 كلم غرب ميناء مسراتة.

(66) ذكر غدامس ياقوت في **معجم البلدان**، ج: 6 ,268، وقال انها مدينة بالمغرب في جنوبه ضاربة في بلاد السودان. ويذكر في غزوات عقبة بن نافع الأولى قبل تأسيس القيروان أنه فتح غدامس عام 42هـ. انظر **الاستقصا**، ج: 1، ص 69.

كلّاً من أكْدز وصحراء ليبيا المتاخمة لمصر، على بعد مسيرة قرابة ستين يوماً من القاهرة. ولا يوجد بين فزان ومصر مكان مسكون من غير أوجلة الكائنة في صحراء ليبيا. ويحكم فزان أمير هـو بمثابـة القاضي الأول للشعب، يتصرف في جميع موارد البلاد لفائدة الجماعة، ويؤدّي بعض الخراج إلى جيرانه الأعراب. والخبز واللحم قليلان جداً في هذه البلاد أيضاً، فيؤكل لحم الجمل وهو كذلك مرتفع الثمن(67).

(67) ذكر ياقوت فزان في معجم البلدان، ج: 6، ص374، وقال انها ولاية واسعة بين الفيوم وطرابلس الغرب، ومدينتها زويلة السودان، والغالب على ألوان أهلها السواد.

صحارى ليبيا

صحراء صنهاجة

الآن وقد تكلمنا عن نوميديا، وهي القسم الثاني من افريقيا، سنحدثكم عن صحارى ليبيا المنقسمة إلى خمسة أقسام، كما ذكرنا ذلك في أول هذا الكتاب.

سنبدأ بصحراء صنهاجة[68] فنقول: ان هذه الصحراء شديدة الجفاف وعرة، تبتدىء عند المحيط غرباً وتمتد شرقاً إلى ملاحات تغزة، وتنتهي شمالاً في تخوم نوميديا، أي اقليم سوس عند أقا ودرعة. وتسير جنوباً حتى أرض السودان عند مملكتي ولاتة وتمبكتو. لا يوجد فيها ماء إلا على مسافة كل مائة أو مائتي ميل، بالإضافة إلى أنه مالح مر في آبار عميقة جداً، خصوصاً في الطريق المؤدية من سجلماسة إلى تمبكتو. وفي هذه الصحراء عدد كبير من الوحوش والحيات، كما سنذكر ذلك في محله. وفي هذه المنطقة فلاة خاصة وعرة جداً لا تسلك إلا بمشقة عظمى تسمى أزواد، لا ماء فيها ولا منزل طوال مسافة مائتي ميل بين بئر أزواد وبئر

---

(68) كتب في الأصل بالزاي بدل الصاد، وتحرّف فعلاً في بعض المناطق إلى زناكة. انظر: كتابنا **الحركة الفكرية**، ج 2:511. وكتاب **المغرب** للصديق بن العربي، ص 93.

أروان الذي هو على بعد مائة وخمسين ميلاً من تمبكتو، يموت فيها كثير من الناس حراً وعطشاً، كما قلته آنفاً فيما أذكر[69].

---

(69) هذا التقسيم مأخوذ من ابن خلدون الذي يقول عن برابرة الصحراء متعرضاً إلى مواقعهم: «واتصل بنيانهم على بلاد السودان إلى المشرق مناظر السلع العرب على بلاد المغربين وافريقية. فكدالة منهم في مقابلة ذوي حسان من المعقل عرب السوس الأقصى، ولمتونة وتريكة في مقابلة ذوي منصور وذوي عبد الله من المعقل أيضاً عرب المغرب الأقصى، ومسوفة في مقابلة زغبة عرب المغرب الأوسط، ولمطة في مقابلة رياح عرب الزاب وبجاية وقسنطينة، وتاركا في مقابلة سليم عرب افريقية...»، **تاريخ العبر** (طبعة بيروت) ج 6: ص 408.

فهذه المعلومات، مع غموضها، تحدد تقريباً موقع القبائل الملثمة بالنسبة لقبائل العرب المقيمة في الشمال. فكانت إذن تتعاقب من الغرب إلى الشرق: كدالة ولمتونة ونزقة ولمطة وتركا. فاتبع الوزان نفس الترتيب إلا أنه جمع كدالة ولمتونة تحت اسم زناكة، مبدلاً موقع لمطة وتركا جاعلاً منهما الأولين في الترتيب، عوض الآخرين، من الغرب إلى الشرق. وقد اتبع هذا التقسيم جميع واضعي الخرائط الذين استقوا من الوزان وشارحيه، ولم يأخذوا بعين الاعتبار نصوص المؤرخين السابقين له خصوصاً منهم ابن حوقل والبكري والادريسي وابن بطوطة وأبي الفداء الذين أفادونا بمختلف مواقع القبائل المغربية والتوارقية. وما عدا تحركات بعض القبائل التي حدثت في هذه الأثناء، فإن هذه المجموعات كانت تقريباً في المناطق التي تجدها فيها الآن. ولا ننس أن لطبيعة التراب دوراً هاماً في اختيار مناطق الرعي. وإذا كان الوزان قد خلط بعض الشيء الخرائط المأخوذة عن ابن خلدون إلا أنه أعطى بعض التفاصيل عن حدود مختلف الصحارى تفيد في التعرف على القبائل الصحراوية رغم غموضها. ونشير في هذا الصدد إلى أن لفظ «صحراء» المستعمل عند الوزان لا يعني دائماً القفر الذي لا ماء فيه ولا نبات، بل البلاد الخالية، وذلك لأسباب مختلفة نظراً لكونها مهجورة أو غير آمنة. وصحراء صنهاجة ــ حسب الوزان ــ كانت تشكّل مثلثاً يمس رأسه سوس، ويحدّ قاعدته خط تمبكتو ــ ولاتة ــ المحيط؛ ويحد المحيط جانبه الغربي، والخط سوس ــ تغازة ــ تمبكتو جانبه الشرقي. ومن المحتمل أن تكون المنطقة الواقعة بين تغازة والساورة ــ التي يضمها إلى صحراء ونزكة ــ مسكونة بسبب وجود الكتل الرملية العظيمة فيها. ومن الممكن أن أول معسكرات التوارق كانت ــ حسب ابن خلدون ــ في جهة الركان. وفي الواقع فإن إقليم زناكة كان يمتد سياسياً حتى أول واحات توات ويناسب الصحراء الغربية وأراضي الرعي الحالية للركيبات والبرابش ولمختلف القبائل العربية ــ المغربية ــ لتكنت وأدرار.

الصحراء التي يسكنها شعب وَنْزيكَة

تبتدىء الصحراء الثانية غرباً في تخوم تغزة، وتمتد شرقاً إلى تخوم الأيـر، وهو البلاد الخالية التي يسكنها شعب تاركة(70). تتاخم شمالاً صحراء سجلماسة وتبلبلت وبني كومي، وجنوباً صحراء كير(71) التي تناسب مملكة كوبر. وهذه الصحراء أكثر من السابقة وعورة ووحشة، يمر بها التجار الذاهبون من تلمسان إلى تمبكتو، ويقطعونها من أبعد طرفي قطرها، فتؤدي صعوبة المرور إلى موت العديد من الناس والدواب لفقدان الماء. وفي هذه المفازة بلاد خالية تدعى ككذم لا يوجد بها ماء مسيرة تسعة يام. فيتحتم الاكتفاء بالماء المحمول على الجمال، إلا ما يعثر عليه أحياناً من غدران ماء المطر، لكن ذلك، لا يقع إلّا بمحض الصدفة(72).

---

(70) تاركة: قبيلة من قبائل صنهاجة بالصحراء، ينسب إليها بلفظ تاركي، والجمع توارك، حُرِّف على لسان المشارقة إلى طوارق ــ بالطاء بدل التاء ــ ومنه حي تواركة المعروف بجوار القصر الملكي بالرباط لاختصاصهم بخدمة القصر منذ أجيال

(71) يمكن أن تقرأ بالكاف المعقودة «كير» ح واد كير، وبالغين «غير» = رأس غير الذي يصب عنده واد كير. .

(72) يشمل هذا التحديد إقليماً شاسعاً جداً، يمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الشرقي للصحراء. إلا أنه عندما يقول الوزان انه يتاخم صحراء سجلماسة وتخوم تغازة يقع هناك بعض الغموض، إذ لا ندري ما يناسب مثل هذا الاقليم. فأين كانت تنتهي صحراء سجلماسة؟ وأين كانت تبتدىء صحراء تبلبلت؟ لا نعرف عن ذلك شيئاً حيث إن هذين الاسمين لا يدلان اليوم سوى على أماكن معينة لا مناطق خالية. فيعتري النص خلط يبدو من خلاله جلياً أن الوزان اعتمد على النقل والأخبار، فهو يقول من جهة إن الاير تسكنه تاركة، وعندما يتعرض لهؤلاء يقول إن صحراءهم تبتدىء في تخوم الاير. ثم إنه عندما يتكلم عن مملكة أكدز لا يذكر ولو مرة واحدة اسم الأير مبيناً بذلك أنه ربما كان يجهل العلاقات العرقية الموجودة بين الرحل في هذه الكتلة وإخوانهم ونزكة وتاركة ولمطة. ولعل مرد هذه العلاقة بين تاركة والأير إلى كون الوزان استقى معلومات تشير إلى أن كلًا من الأير وتاركة كانا من أسرة واحدة. وفعلاً فإن عدداً من القبائل تنتسب إلى تاركة وقد أتت من فزان بعد الفتح العربي. وهذا مجرد افتراض لا يسمح بإدماج كل الأير في تاركة الوزان لكنه يبرر التباسه. أما «صحراء كير التي تناسب مملكة كوبر» فلا نرى أية مناسبة هناك: فلا وجود لكير في الناحية، وليس =

الصحراء التي يسكنها شعب تاركة

تبتدىء الصحراء الثالثة عند تخوم الأيـر غرباً وتمتد إلى قفر إيغيدي شرقاً، وتتاخم شمالاً مفازات توات وتيكْورارين ومزاب، وجنوباً المفازات

= كْوبر بصحراء البتة. وهذا الالتباس الأخير لا يعلل، سيما وأن الوزان يذكر أنه ذهب إلى كوبر، فلا يفهم أنه يصفه بالصحراء

الواقع ان المنطقة الخالية تحد في تخوم الأير، والناحية الواقعة شمال كُوبر بالخط الموصول تقريباً بآبار تماية وتكْدَّ ـ نْ ـ تسمت، وتكتّ ـ نْ ـ كولات، حيث ينبغي أن تنتهي بلاد ونزيكة.

ومن جهة أخرى فإن المعلومات حول طريق القوافل المؤدية من تلمسان إلى تنبكتو والمارة فعلاً بتوات وبئر. إ ـ نْ ـ زيزة وأدرار إيفوراس، وهي ذات الأخطار الكبيرة بدون شك، تضعنا في وسط أكثر إدراكاً، لأن المنطقة المخترقة هي منطقة التوارك تايطوك، فلا يوجد شعب ونزكة بكل معنى الكلمة. وقد ذكر فعلاً ابن خلدون ج 6، ص 371 ونزكة في جنوب المغرب الأقصى لكن هذا اللفظ غامض ويمكن أن يقرأ وتريكة (حسب المترجم دوسلان). ومن المحتمل أيضاً أن يكون هذا اللفظ تحريفاً لاسم إ ـ نْ ـ زيزة أو لاسم و ـ إ ـ نْ ـ زيزة ومعناهما ذوي إ ـ نْ ـ زيزة وقد يكون لقباً. وقد أخذ الوزان هذا اللفظ لابن خلدون جاعلاً منه ونزكة. ومن جهة أخرى فإ ـ نْ ـ زيزة ما هي إلا تحريف لإ ـ نْ ـ هِهاو، حسب نطق كل أهكار، ولإ ـ ن ـ ششاو، حسب نطق كل أدرار، ولإ ـ نْ ـ زيزاو، حسب نطق كل الأير، وهي بئر في الجبل الصغير الذي يحمل نفس الاسم، بين أدرار أهنت وأدرار إفوراس، والمذكورة في الخرائط تحت اسم إ ـ نْ ـ زيز. ونقطة الماء هذه ذات أهمية رئيسية في مواصلات القوافل بين توات والسودان وقد اشتهرت في خرائط القرون الوسطى تحت اسم آنية وأنزيكا. وأنسيشا، وأنزيش. وكانت القوافل تختلف إلى إ ـ نْ ـ زيزة، ومازالت تختلف إليها آتية من عين صالح وماوراءها شمالاً والذاهلبة إلى تدمكّة وتنبكتو وكّاو. وكانت نقطة الماء هذه في أراضي مرور تواركا تايطوق وكل أهنت الذين كانوا يسيرون حتى ركَان وولان كلما سمح لهم الرعي بذلك. وكانت الحالة كذلك في عهد ابن خلدون الذي تحدّث عنهم.

وماذا يمثّل خلاء كَكْدم؟ إننا نجد هذا اللفظ في شكل كُوكَدام عند الإدريسي، وكَوْكَدام عند أبي الفداء، وكَاكْدم عند ابن خلدون. وهو ـ حسب الإدريسي ـ مدينة أزوكي البربرية، وحسب أبي الفداء مدينة أخرى على بعد مسيرة ثمانية أيام شمال غربها وجبل آخر، وحسب ابن خلدون صحراء تسكنها مختلف فروع لمطة. ويبدو أن الصواب هو رواية الإدريسي.

القريبة من مملكة أكْدز. وليست صحراء تارڭة[73] هذه وعرة وخطيرة مثل سابقتيها. إذ يوجد فيها على مسافة كل يومين ماء جيد في آبار عميقة جداً، لا سيما في جوار الأيـر، وهو قفر معتدل نقي الهواء ينبت فيه الكلأ بكثرة[74]. وبعيداً من هناك قرب أكْدز[75] يوجد كثير من المَنّ، وهو شيء عجيب: يذهب الناس في الصباح الباكر ليجمعوا هذا المنّ فيملؤون به دِناناً ثم يبيعونه طرياً في أزقة أكْدز. والدنّ الذي سعته «بوكال»[76] يساوي «بيوتشيين» ويشرب هذا المنّ ممزوجاً بالماء ويكون شراباً ممتازاً. ويجعل أيضاً في الحساء، ويبرد كثيراً. لذلك لا يمرض الغرباء بأكْدز كما يقع لهم بتمبكتو ذات الهواء الوخيم.

وتمتد هذه الصحراء من الشمال إلى الجنوب، على طول ثلاثمائة ميل.

---

(73) إن شعب تارڭة مذكور في النصوص العربية منذ القرن الرابع الهجري / العاشر م، وتارڭة كلمة بربرية معناها قناة، ويطلق في لهجة توارك الشمال - وهي تمهاك ــ على فزان. وأطلق العرب هذا الاسم على السكان الملثمين.

(74) مساحة هذه الصحراء عظيمة حيث أنها تمتد من الشمال إلى الجنوب من مزاب إلى تخوم الأير. وتتصل من جهة أخرى إلى ربى إكْيدي وتوات وڭرارة. فلا يمكن أن تكون سوى أرض مرور توارك الهكـار، ويبدو أن الوزان ارتكب خطأ في التوجيه إذ جعل الأيـر في الغرب وإكُيدي في الشرق، بينما الصواب هو العكس.

وتناسب هذه الصحراء لمطة ابن خلدون حيث يجعلها جنوب الزاب وإقليم قسنطينة. فعكس الوزان ــ كما قلنا ــ موقع القبيلتين. ولم يقع كبير تغيير في موقع هذه المجموعات الكبيرة: فقد ذكر الإدريسي أزڭار في جبل طنطانو الذي هو تسِّيلي، وقد اجتاز ابن بطوطة بلاد الهڭار وبلاد كهار، ويمكن تأويلهما بكل أهار. أما ابن خلدون فأفادنا أن هجرة هوارة أعطت اسمها إلى هڭار (أهڭار).

(75) الوزان هو أول من ذكر مدينة أكْدز. وقد اختلفت الروايات في تاريخ تأسيسها: فحسب مرمول، أنها أسست سنة 1460، وحسب رواية محلية سنة 1430، وفي رواية أخرى سنة 1502.

(76) «بوكال» كيل ايطالي سعته 1,823 ليتر.

الصحراء التي يسكنها شعب لمطة

تبتدىء الصحراء الرابعة عند إغيدي المذكورة آنفاً، وتمتد إلى تخوم القفر الذي يسكنه شعب برداوة، وتتاخم شمالاً قفار تكُرت وورگلة وغدامس، وجنوباً حتى المفازات الممتدة إلى كانو مملكة بلاد السودان. وهذه الصحراء جافة وخطيرة على التجار الذين يجتازونها، كحال الذين يذهبون من قسنطينة إلى بلاد السودان(77). ويدعي سكان هذه الصحراء

---

(77) بما أنها محددة هكذا فإن بلاد لمطة ـ وهي في الواقع بلاد تاركة ـ تناسب أراضي مرور كل أجِّر، مع التحفظ بأنها لا تمتد غرباً حتى إكِّيدي. وقد ذكر الكاتب هذا الاسم عرضاً عندما وقع له خلط مع تاركة. فكان لمطة الحقيقيون ـ وهم كل هكار ـ يذهبون حتى إلى أكّيدي، لا تاركة. وكان أجّر يصلون ـ استثنائياً ـ إلى حدود تدمايت لكنهم لا يتعدون أبداً قطب إ ـ نْ ـ كطارة. وبلاد برداوة هي بلاد تبو، وهذا الحد الشرقي صحيح، وكذلك الشمالي المعبر عنهما بقفري وركلة وغدامس. أما الحد الجنوبي فتنقصه الدقة، لكن لفظ «المفازات الممتدة إلى كانو»، ويمكن أن يطابق التينيرى الفاصل بين تسيلي والأير الذي يقطع فعلاً عند الذهاب إلى كانو، وكما يمكنه أن يطلق على القفر في جنوب هكار والذي يخترقه التوارك في طريقهم إلى تمسنة وكانو ورغم بعض الغموض فإنهم فعلاً «كل أجِّر» بعد تصحيح الخلط بين لمطة وتركة.

وقد ذكر لمطة المؤلفون العرب منذ القرن الثالث الهجري / التاسع م، ويجعلهم اليعقوبي ـ الذي كان يكتب عام 889/276 م ـ حول زويلة فزان في اتجاه أوجلة وأجدابية، وهم أول من فرُّوا أمام هجوم العرب. يقول ابن خلدون إنهم إخوة لصنهاجة وأوربة وجزولة وأزداجة، وأبناء عمومة لهوارة من جدتهم المشتركة تيسكي العرجاء. ويضيف أن البعض منهم كان يسكن في جوار صنهاجة الملثمين، والبعض الآخر في القفار جنوب تلمسان وافريقية. ويبدو أنهم ساهموا في أول تعمير هكار قبل وصول هوارة. وكان النبلاء العريقون عند كل هكار يحملون اسم لومّيت، وهو من نفس أصل إلمتيين، الأمر الذي يبرر وجود لمطة قديماً في هذه البلاد. ومن الممكن أن عناصر من هذه القبيلة دخلوا من بعد إلى السودان حيث أطلق عليهم اسم لمطة، مع أن مؤلف كتاب **تاريخ السودان** يذكر ص42 أنهم أتوا من المغرب في القرن الحادي عشر. أما لمطة الغرب فقد أشار إليهم الجغرافي ابن حوقل ـ منذ القرن الرابع / العاشر م ـ في ناحية واد نون. وكانت عاصمتهم نول لمطاطة حيث توجد الآن واحة أسرير قرب كلمين. وقد تركوا ذكراً لهم في إقليم من أقاليم شمال فاس، أثناء تحولاتهم مع =

فعلاً أن إمارة ورگلة تنتهك حرمة إقليمهم، ويعلنون العداء ضد أمير ورگلة، ويسلبون جميع التجار الذين يلاقونهم في الصحراء، لكن أهل ورگلة يقتلونهم بلا شفقة ولا رحمة[78].

الصحراء التي يسكنها شعب برداوة

تبتدىء الصحراء الخامسة غرباً من حيث تنتهي السابقة، وتمتد شرقاً إلى قفر أوجلة، وتتاخم شمالاً مفازات فزان وبرقة، ممتدة جنوباً إلى تخوم مفازة بورنو. الأرض شديدة الجفاف في هذه الناحية. ولا يمكن اختراق هذه البلاد بسلام. فأهل غدامس وحدهم يستطيعون ذلك لأنهم أصدقاء لبرداوة، يأخذون من فزان المؤن والثياب وغير ذلك مما هو ضروري للسفر[79].

* * *

أما باقي صحارى ليبيا، أي التي تمتد من أوجلة إلى النيل، فيسكنها الأعراب وشعب يدعى لواتة، وهو افريقي أيضاً[80].

= المرابطين. وقد قتل من بقي منهم في البلاد أو انضموا إلى عرب معقل فأصبحوا «تكنة» بلاد نون.

(78) يطلق هذا المقطع هنا على «كل أجَّر» كما يمكن أن يطلق على «كل هكّار» لأن علاقات أولئك وهؤلاء مع شعامبة ورگلة كثيراً ما كانت من أسوأ العلاقات.

(79) أطلق اسم برداوة على سكان برداي في تبستي، ثم شمل «تِدة». وقد تتعدى كثيراً الحدود المذكورة هنا تبستي. ومهما يكن من أمر فإن شعب برداوة يطابق تماماً «تدة» أو «تبو»، وقد سبق للمقريزي أن ذكرهم معتبراً إياهم بربراً. ولعل الوزان أخذ منه ذلك، لأن ابن خلدون لم يذكرهم.

(80) شعب لواتة هذا هو لوبيم المذكور في التوراة، ولَبو ولَبْتَايْ عند اليونان، ولُوَاتة عند الرومان، وليفاتيس عند كوريُّوس. وقد لعب اللواتيون دوراً هاماً في تاريخ مصر التي هاجموها طوراً وخدموها طوراً آخر، إلى مجيء العرب. واللواتيون هم الذين أطلقوا اسمهم على ليبيا. ويجعل ابن خلدون من جدهم المسمى لوا بن زديك بن مدِّغِس منتسبين هكذا إلى البربر البتر. وكانوا يقطنون، عند قدوم العرب، إقليمًا بسيرينايكة =

وهنا ينتهي وصف صحارى ليبيا. ويليه وصف بعض الأماكن المسكونة فيها.

سُرْت

سرت مدينة عتيقة أسسها المصريون حسب رواية بعضهم، والرومان حسب رواية آخرين، ويرى غيرهم أنها من بناء الأفارقة. ومهما يكن من أمر فهي الآن خربة، يقال إن المسلمين هم الذين خربوها، مع أن المؤرخ ابن رقيق يعزو ذلك إلى الرومان. فلا يشاهد بها سوى آثار صغيرة من الأسوار(86).

بَرْدَاوَة

برداوة(87) ناحية مسكونة، توجد في قلب صحراء ليبيا، على بعد نحو خمسمائة ميل من النيل، ثلاثة قصور، وخمس أو ست قرى، فيها نخل كثير ينتج كمية وافرة من التمر الجيد. وهذه القصور الثلاثة اكتشفها منذ ثمانية عشر عاماً دليل اسمه عمار، ضلّ الطريق لمرض أصابه في عينيه. ولما لم يكن أحد غيره في القافلة يعرف الطريق، ظل يسير في الأمام على جمله ويأمر بأن يناولوه شيئاً من الرمل بعد قطعِ كل ميل فيشمه. وهكذا لما اقتربت القافلة من هذا المكان بأربعين ميلاً قال: «اعلموا أننا

= يقابل ناحية برقة. وهاجر بعض بطون لواتة شطر الغرب حتى المحيط ــ ولعل ذلك كان قبل الإسلام ــ والبعض الآخر بعد الفتح الإسلامي. وقد ساهم الكثير من قبائلهم في تعمير الأير، ومن جملتهم سدراتة.

(86) بل كانت سرت عامرة مزدهرة بالتجار في القرن الخامس الهجري، حسبما ذكره البكري في **المسالك والممالك**. (بنقل ياقوت في **معجم البلدان**، ج 5: ص 62-63). وقال إنها مدينة كبيرة على سيف البحر، عليها سور من طوب، وبها جامع وحمام وأسواق، ولها ثلاثة أبواب: قبلي، وجنوبي، وباب صغير إلى البحر، وليس حولها أرباض، ولهم نخل وبساتين وآبار عذبة وجباب كثيرة. ثم ذكر السكان ووصفهم بأقبح النعوت نثراً وشعراً، وذكر لهجتهم التي يتراطنون بها.

(87) مجموعة واحات كفرة.

قربنا من مكان مأهول!». فلم يثق به أحد لعلمهم أنهم كانوا على بعد أربعمائة وخمسين ميلاً من مصر، فأخذوا يتساءلون إن كانت القافلة راجعة إلى أوجلة، إلا أنهم في اليوم الثالث أشرفوا على هذه القصور. فذهل أهل البلاد من مجيء الغرباء، ودخلوا قصورهم وغلّقوا أبوابها وامتنعوا من تقديم ماء الشراب إلى القافلة. فأصابها من ذلك جهد كثير لأن الآبار كانت داخل القصور. وبعد معركة خفيفة استولى أصحاب القافلة على القصور، وتزودوا بالماء الكافي، ثم تابعوا سفرهم.

الواحات

الواحات منطقة مسكونة على بعد نحو مائة وعشرين ميلاً من مصر في صحراء ليبيا، فيها ثلاثة قصود وعدد من القرى وبساتين النخيل. سكانها سود البشرة، أنذال بخلاء، لكنهم أغنياء لوجودهم بين مصر وكَاوكَاو. لهم رئيس شبه ملك، ومع ذلك فإنهم يؤدون خراجاً إلى جيرانهم الأعراب[88].

---

(88) لقد جعل المؤلف الواحات في نوميديا في الكتاب الأول. فالسكة الحديدية الواصلة بين وادي النيل وقاعدة واحة الخارجة طولها 195 كلم. فتطلق الواحات مبدئاً على سلسلة الواحات المتباعدة في منخفض صحراء ليبيا، أقصاها شمالاً واحة سيوة المحتوية قديماً على معبد أمون الشهير الذي زاره الإسكندر ذو القرنين. لكن هذا الاسم أطلق بصفة خاصة على الواحتين الموغلتين في الجنوب، الداخلة (بالنسبة لصحراء ليبيا)، والخارجة في الجنوب الشرقي لأنها أقرب إلى النيل.

وكانت هذه الواحة المقر المفترض للموتى عند المصريين القدماء: «التوا» وتوجد نفس الكلمة في البربرية القديمة كما يدل على ذلك تصغيرها «توات» في الصحراء الغربية. ولا شك أنه أعطى الاسم اليوناني أوازيس وربما الاسم العربي واج. ويبدو أن الكاتب لم يقصد هنا سوى واحة الخارجة وهي الباب الحقيقي المؤدي إلى مصر من السودان الغربي منذ قديم الزمان. كما تشهد بذلك الآثار الموجودة هناك. وقد سبق لهيرودوس أن أشار إلى أهميتها. وابن حوقل أول مؤلف عربي معروف تكلّم عن تجارتها، قبل القرن التاسع م. مع غانة والمغرب.

القسم السابع

بلاد السودان

بـلاد السودان

لم يكتب الجغرافيون القدماء مثل البكري والمسعودي شيئاً عن بلاد السودان باستثناء الواحات وغانة، إذ لم يكن يعرف شيء عن غيرهما من بلاد الزنوج في ذلك العصر؛ ولكنها اكتشفت بعد سنة 380 هـ، لأنّ لمتونة وجميع سكان ليبيا أسلموا على يد داعية حملهم بالإضافة إلى ذلك على فتح بلاد البربر كلها[1]. فبدأ الناس، منذ ذلك الوقت يختلفون إلى هذه البلاد ويتعرفون عليها.

يسكن هذه البلاد كلهـا قوم يعيشـون كالبهـائم، لا ملوك لهم ولا أمراء ولا جمهوريات ولا حكومات ولا عادات، يكادون لا يعرفون زرع الحبوب، ويلبسون جلود الغنم. وليس لأحد منهم امرأة خاصة به، وإنما يرعون الماشية في النهار أو يخدمون الأرض، ثم يجتمعون في الليل،

---

(1) يشير إلى عبد الله بن ياسين الذي اتخذ رابطة في حوض السينغال في أوائل القرن الخامس الهجري، جمع فيها المرابطين من لمتونة الصنهاجيين، فنشروا الإسلام هناك قبل أن يؤسسوا دولة المرابطين ويشيدوا عاصمتهم مراكش؛ لكن الإسلام انتشر في الصحراء وما وراءها من بلاد السود قبل هذا التاريخ، بداية من الفتح الإسلامي لبلاد شمال إفريقيا في منتصف القرن الأول للهجرة.

انظر حسن ابراهيم حسن، **انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى**، ص 2 وما بعدها، وأحمد الناصري، **الاستقصا**، 7:2 وما بعدها.

عشرة إلى اثني عشر رجلاً وامرأة في كوخ، ويضاجع كل واحد من تعجبه أكثر من غيرها، مرتاحين نائمين على جلود النعاج.

لا يحارب هؤلاء القوم أحداً، ولا يخرجون من بلادهم، بعضهم يعبدون الشمس ويسجدون لها بمجرد ما يرونها تبرز في الأفق، وبعضهم يعبدون النار كأهل ولاتة، والبعض الآخر مسيحيون على طريقة المصريين، وهم سكان ناحية كَاوكَاو. وقد حكم هؤلاء الزنوج يوسف (بن تاشفين) ملك مراكش ومؤسسها، ومعه شعوب ليبيا الخمسة، فعلموهم الشريعة الإسلامية والمبادىء الضرورية لسلوكهم في الحياة. فاعتنق الكثير منهم الإسلام، وبدأ تجار بلاد البربر حينئذ يذهبون إلى هذه البلاد ليتجروا فيها حتى تعلموا لغاتهم.

واقتسمت شعوب ليبيا الخمسة هذه البلدان خمس عشرة قسمة، فنال كل شعب ثلاث قسم منها. والحقيقة أن ملك تنبكتو الحالي، وهو أبو بكر أسكيا من الجنس الأسود، كان قد عين قائداً أعلى من قبل ملك تنبكتو وكَاغو سني علي الذي هو من أصل ليبي[2].

وبعد موت سني علي ثار أبو بكر على أبنائه وقتلهم، ثم خلص جميع الشعوب السود من ربقة رؤساء قبائل ليبيا، بحيث إنه استولى على عدة ممالك في ظرف ست سنوات. ولما فرغ من نشر السلام والهدوء في مملكته

---

(2) هناك حاكمان من أسرة سني يدعى كل منهما سني علي ــ ويكتبه السودانيون بالياء: سني، وبدونها: سن ــ أولهما (يعرف بعلي كلن) هو مؤسس دولة سني بعد قضائه على دولة آل ضياء الليبيين أمراء سنغاي عام 1335/735، وهو سني علي بير (أي الكبير) الظالم الفاجر الخارجي؛ وآخر آل سني الذي ثار عقب وفاته محمد أسكيا مؤسس دولة الأسكيين حكام المنطقة إلى مجيء جيوش أحمد المنصور. واستمرت دولة آل سني هذه من عام 735-1335 إلى عام 1493/898، تعاقب على الحكم خلالها أربعة عشر أميراً.

انظر: عبد الرحمان السعدي، تاريخ السودان، ص 5 وما بعدها + ص 71 وما بعدها.

رغب في الحج إلى مكة، وأنفق في هذا الحج كل ماله، واقترض خمسين ألف مثقال.

تمتد هذه الممالك الخمس عشرة المعروفة كلها لدينا على طول ضفتي النيجر وروافده[3]، وتقع بين قفرين عظيمين يبتدىء أحدهما عند نوميديا وينتهي في هذه البلاد، والآخر في الجنوب يمتد إلى البحر المحيط. وهناك مناطق كثيرة جداً، لكن معظمها غير معروفةٍ لدينا، سواء بسبب طول السفر وصعوبته، أو بسبب تنوع اللهجات والمعتقدات؛ وذلك ما يمنعها من إقامة علاقات مع البلدان المعروفة عندنا، ويمنع هذه البلدان كذلك من إقامة علاقات معها. ومع ذلك فإن هناك بعض العلاقات مع الزنوج الذين يعيشون على ساحل المحيط.

مملكة وَلاَتَة

مملكة صغيرة خاملة بالنسبة لسائر ممالك السودان. فليس لها من الأماكن المسكونة سوى ثلاث قرى كبيرة وأكواخ متفرقة بين حدائق النخل. وتبعد هذه القرى بنحو ثلاثمائة ميل جنوب نون، وخمسمائة ميل شمال تنبكتو، ومائة ميل من المحيط[4].

ولما كانت شعوب ليبيا، تسيطر على هذه الناحية، جعلوها مقر البلاد الملكي، فأدى ذلك بالكثير من تجار بلاد البربر إلى الوفود عليها[5]؛ لكن التجار

---

(3) يعتقد المؤلف ــ كسائر الجغرافيين العرب القدماء ــ أن النيجر يأتي من التشاد ويصب في المحيط عند مصب السنغال.

(4) في الحقيقة 1900 كلم. جنوب نون و450 كلم. غرب تنبكتو و900 كلم. من المحيط.

(5) يبدو فعلاً أن ولاتة (إيولاتن باللهجة المحلية) هم فرع من مسوفة الذين يتنقلون في الجزء الصحراوي الواقع شمال هذه الناحية، كانوا لا يقومون بقيادة القوافل التجارية القاطعة للصحراء وحمايتها فحسب. بل شاركوا في حكم البلاد، ومنهم أخذت قرية بيرو اسم إيولاتن ثم ولاتة، ففي ربيع الأول عام 753/ ابريل 1352 عندما مر الرحالة ابن بطوطة بها كان يحكمها أسود باسم ملك مالي واقتبل ابن بطوطة.

تركوا ولاتة شيئاً فشيئاً منذ عهد سني علي الذي كان رجلاً عظيماً وذهبوا إلى تنبكتو وكَاغو، بحيث إن أمير ولاتة أصبح فقيراً لا سلطة عليها.

يتكلم أهل هذه البلاد لغة تسمى سنغاي[6] وهم أناس في غاية السواد والخسة، لكنهم ظرفاء جداً لا سيما مع الأجانب. يؤدي الأمير الذي يحكمهم الخراج إلى ملك تمبكتو، لأن هذا الملك جاء مرة إلى البلاد بجيشه ففرّ أمير ولاتة في الحين راجعاً إلى أهله في القفار. ورأى ملك تمبكتو أنه لا يستطيع ضبط البلاد كما يجب، لأن هذا الأمير سيخلق له متاعب بمساعدة أهله الصحراويين، فاتفق معه على أن يؤدي إليه خراجاً معيناً، ورجع الأمير إلى ولاتة، كما عاد الملك إلى تنبكتو.

ونمط معيشة أهل ولاتة وعاداتهم كنمط وعادات جيرانهم القاطنين بالصحراء. لا تنبت هذه البلاد إلاّ القليل من الحبوب، كالدخن، وحب آخر مستدير أبيض يشبه الحمص ولا يوجد بأوربا[7]، واللحم نادر الوجود جداً. ومن عادة النساء والرجال أن يتلثموا ويغطوا وجوههم. ولا يوجد في هذه الناحية أي تنظيم متحضر، فلا حاشية ولا قضاة، ويعيش القوم في البؤس الشديد.

مملكة غِينْيَا

مملكَة يسميها التجار الأفارقة كُنَاوَة، والأهليون جيني، ويطلق عليها البرتغاليون ومن لهم خبرة بهذه المناطق في اوربا غينيا[8]. تتاخم المملكة

---

(6) سنغاي: قبيلة كانت تسكن النيجر حول حدود الغابات الاستوائية أولاً، ثم طلعت إلى الشمال وأسست حوالي القرن الأول الهجري دولة عرفت أطوار القوة والضعف، وتدهورت أوضاع سنغاي قبل أن يتولى أمرها الاسيكون كما سبقت الإشارة إلى ذلك. واللغة التي سماها الوزان سنغاي، يقصد ولا شك لهجة هذه القبيلة. أما اليوم فليس إلا العربية في ولاتة.

(7) لعله يقصد الذرة البيضاء.

(8) لعل المؤلف يقصد كُيني ـ أو جيني كما يكتبها السودانيون ـ المدينة المشهورة في حوض النيجر جنوبي تنبكتو.

السابقة، مع وجود مسافة نحو خمسمائة ميل[9] بينهما عبر الصحراء. تقع ولاتة في الشمال، وتنبكتو في الشرق، ومالي في الجنوب. وتمتد طول النيجر على مسافة نحو مائتين وخمسين ميلاً، ولها جزء على المحيط حيث يصب النيجر في البحر[10].

أما الشعير والروز والماشية والسمك والقطن فتوجد بكثرة كاثرة. ويحقق أهل البلاد أرباحاً هائلة في تجارة قماش القطن مع تجار بلاد البربر الذين يحملون إليهم الكثير من الثياب الأوربية والنحاس والصفر والسلاح مثل الخناجر. والعملة الرائجة عند هؤلاء السودانيين هي الذهب غير المسكوك، وكذلك قطع الحديد لشراء أشياء تافهة كاللبن والخبز والعسل. وتزن هذه القطع رطلاً أو نصف رطل أو ربعه.

ولا تنبت في هذه الناحية أية شجرة مثمرة، فلا وجود لأية فاكهة غير التمر المستورد من ولاتة أو نوميديا. ولا مدينة فيها ولا قصر ما عدا قرية واحدة كبيرة يسكنها الملك والأئمة والفقهاء والتجار والأعيان، وجميع الدور التي يسكنونها كالأكواخ، مملوطة الحيطان بالطين ومغطاة بالتبن.

يرتدي أهل هذه القرية لباساً حسناً، ويتلثمون بلثام كبير من قطن أسود وأزرق يغطون به حتى رأسهم، لكن الأئمة والفقهاء يتلثمون بلثام أبيض. وأخيراً فإن هذه القرية تشكل شبه جزيرة خلال ثلاثة أشهر في العام، في يوليوز وغشت وشتمبر، لأن النيجر يفيض في هذه المدة تماماً كما يفيض النيل.

---

(9) المسافة بين ولاتة وجني 450 كلم فقط.

(10) خطّأ المعلقون في الترجمة الفرنسية المنقول عنها المؤلف الحسن الوزان بتأويل كلامه هذا إلى أنه يقصد مصب نهر السينغال. مع أنه يمكن أن يقصد مصب النيجر الحقيقي في المحيط عند خليج غينيا، بل وهو الأنسب لتسميته وسياقه.

ويأتي تجار تنبكتو في هذه الفترة حاملين بضائعهم في زوارق صغيرة ضيقة جداً مصنوعة من نصف جذع شجرة مجوفة، تجري بهم نهاراً، ويربطونها ليلاً في الضفة ليناموا على الأرض.

كانت هذه المملكة في القديم خاضعة لأسرة من أصل ليبي، لكن في عهد الملك سني علي أصبح صاحب هذه المملكة خاضعاً له. ولما فقد سني علي مملكته على يد خلفه أسكيا، أخذ وسجن في كَاغو حتى مات، وصار يحكم هذه المملكة أحد نواب أسكيا.

مملكة مالي

تمتد هذه المملكة[11] على طول أحد فروع النيجر في مسافة نحو ثلاثمائة ميل متاخمة المملكة السابقة من جهة الشمال، والقفر مع جبال وعرة من جهة الجنوب. وتحدها غرباً غابات مهجورة تمتد إلى المحيط، وشرقاً إقليم كاغو. وفي هذه البلاد قرية عظيمة تضم نحو ستة آلاف كانون وتسمى مالي[12] أطلق اسمها على سائر المملكة. يسكنها الملك وحاشيته، ويكثر في البلاد الحب واللحم والقطن. ويوجد في هذه القرية عدد كثير من الصناع والتجار المقيمين، والطارئين الذين يعيرهم الملك عناية أكثر من غيرهم. والسكان أغنياء بفضل تجارتهم، إذ يزودون غينيا وتمبكتو بكثير من المنتجات. ولهم مساجد كثيرة وأئمة، وأساتذة يدرسون في المساجد لعدم

---

(11) كتب في الأصل «ملي» وكذلك يكتبها السعدي وغيره من المؤرخين السودانيين، وهي المملكة العظيمة التي كونها شعب الماندينغو وبلغت أوج عظمتها في القرن التاسع الهجري / 14 م.

انظر: تفاصيل مملكة مالي عند عبد القادر زبادية، **مملكة سنغاي**، ص١٢ وما بعدها.

(12) من المحتمل أن يكون الأمر يتعلق بنياني وهي قرية على نهر سنكراني قرب التقائه بالنيجر. وقد نقلت عاصمة مالي عدة مرات.

وجود المدارس. وهم أكثر تحضراً وذكاء واعتباراً من بين جميع السود، لأنهم كانوا من السابقين إلى اعتناق الإسلام، فحكمهم عند إسلامهم أكبر أمراء ليبيا وهو عم ليوسف (بن تاشفين) ملك مراكش[13]. ودام الحكم في عقبه إلى عهد أسكيا، فأصبح آخرهم خاضعاً له ومثقلاً بالضرائب إلى حد أنه لا يستطيع إطعام أسرته.

تَنْبُكْتُو

اسم هذه المملكة حديث، وتنبكتو[14] اسم مدينة بناها ملك يدعى منسا سليمان عام 610 للهجرة، على بعد نحو اثني عشر ميلاً من أحد فروع النيجر[15].

ودُور تنبكتو عبارة عن أكواخ مبنية بأوتاد مملوطة بالطين ومسقوفة بالتبن. وفي وسط المدينة مسجد مبني بالحجر المركب بالطين والجير على يد مهندس أندلسي من مدينة المانا[16]، وقصر كبير من بناء نفس المعلم[17] يسكنه الملك، ودكاكين كثيرة للصناع والتجار، لاسيما دكاكين نساجي

---

(13) كان يوسف بن تاشفين ابن عم لأبي بكر بن عمر اللمتوني، فاتح بلاد السودان، الذي زوج إحدى بناته لعاهل المندينغو آنذاك.

(14) يكتبها السودانيون والصحراويون هكذا: «تنبكت» ويزيدون أحياناً الياء بعد التاء الأولى «تينبكت». ذلك ما يوجد عند السعدي في تاريخ السودان والولاتي في فتح الشكور، وغيرهما.

(15) منسا معناها السلطان. وقد اتخذ أمراء الماَنْدِينغو لقب منسا ابتداء من القرن السابع الهجري/13 م. وقد فصل السعدي في تاريخ السودان الكلام في تأسيس تنبكتو في أواخر القرن الخامس الهجري على أيدي التوارق، والتطورات التي عرفتها عمرانياً وبشرياً وسياسياً إلى عصره (منتصف القرن الحادي عشر/17 م). انظره في صفحة 20 وما بعدها.

(16) كذا بالأصل المنقول عنه. ولعله تحريف لاسم مدينة موله (Mula).

(17) لفظ «المعلم» الوارد هنا أنسب من لفظ المهندس السابق، اعتباراً لاصطلاح مؤرخي الغرب الإسلامي القدماء، بل ولما يجري على الألسنة في المغرب حتى اليوم.

أقمشة القطن. وتصل أيضاً إلى تنبكتو أقمشة أوربـا يحملها تجار بلاد البربر.

ما زالت نساء المدينة محتجبات باستثناء الجواري اللائي يبعن كل المطعومات. والسكان أغنياء مترفون، لا سيما الأجانب المقيمين في البلاد، حتى إن الملك الحالي زوج اثنتين من بناته من أخوين تاجرين لغناهما. وتوجد بتنبكتو عدة آبار ماؤها عذب، بالإضافة إلى ما يصل إلى المدينة من ماء في قنوات عند فيضان النيجر؛ والحبوب والمواشي كثيرة جداً، بحيث إن اللبن والسمن يستهلكان فيها بكيفية مفرطة؛ لكن الملح قليل جداً، لأنه يستورد من تغزة البعيدة عن تنبكتو بنحو خمسمائة ميل.

كنت في هذه المدينة عندما كان الملح يساوي هناك ثمانين مثقالاً. ويملك الملك خزينة كبيرة من النقود والسبائك الذهبية، تزن الواحدة منها ألفاً وثلاثمائة رطل. والبلاد الملكي على قدر كبير من النظام والأبهة. فإذا ذهب الملك من مدينة إلى أخرى مع حاشيته ركب جملاً، وسيقت الخيل أمامه بأيدي السيافين، وفي الحرب يعقل السيافون الابل ويمتطي جميع الجنود الجياد. وكلما أراد شخص أن يخاطب الملك جثا بين يديه وأخذ التراب وحثاه على رأسه وكتفيه، وهذه طريقة الاجلال عندهم، لكنها لا تفرض إلا على من لم يسبق لهم أن خاطبوا الملك قط، أو على السفراء. وللملكة قرابة ثلاثة آلاف فارس، وعدد لا يحصى من الراجلين الحاملين لقسي مصنوعة من خشب (الفنُويْ) البرية، تمرق منها سهام مسمومة. وإنما يحارب هذا الملك الأعداء من جيرانه، ومن يمتنعون من أداء الخراج إليه. وإذا انتصر باع في تنبكتو كلَّ من أسره في القتال حتى الأطفال.

لا يولد في هذه البلاد من الخيل غير بعض البراذين الصغيرة التي يستعملها التجار في أسفارهم، وأرباب الحاشية في تجوالهم في المدينة. أما الجياد فتأتي من بلاد البربر، تصل مع القافلة ثم تعرض بعد عشرة أيام

أو اثني عشر يوماً على الملك ليأخذ منها العدد الذي يريده ويدفع فيه ثمناً مناسباً.

هذا الملك عدو لدود لليهود، لا يريد أن يقطن أحد منهم في المدينة. وإذا علم أن تاجراً من بلاد البربر يخالطهم أو يتجر معهم صادر أمواله[18]. وفي تنبكتو عدد كثير من القضاة والفقهاء والأئمة، يدفع الملك إليهم جميعاً مرتباً حسناً، ويعظم الأدباء كثيراً. وتباع أيضاً مخطوطات كثيرة تأتي من بلاد البربر، وتدر أرباحاً تفوق أرباح سائر البضائع.

تستعمل قطع الذهب الخالص بدلاً من العملة المسكوكة، والودع لشراء الأشياء التافهة، وهو صدف مستورد من بلاد فارس، تساوي أربعمائة منه مثقالاً واحداً، وتساوي الأوقية الرومانية من الذهب عندهم ستة مثاقيل وثلثي مثقال.

وقد فُطر أهل تنبكتو على المرح، وتعوّدوا على التجول في المدينة بين الساعة العاشرة ليلاً والواحدة صباحاً، وهم يعزفون على آلات الطرب ويرقصون. ولأهل المدينة عدد كثير من الرقيق ذكوراً وإناثاً يعملون في خدمتهم. وكثيراً ما تتعرض تنبكتو لخطر الحريق، فقد احترق نصفها في ظرف خمس ساعات أثناء إقامتي بها في رحلتي الثانية. كانت الريح عاتية، وبدأ سكان النصف الآخر للمدينة ينقلون أثاثهم خشية أن يحترق النصف الآخر.

ولا يحيط بتنبكتو أي بستان أو حديقة.

---

(18) الإشارة هنا إلى أثر اتصال الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي بملك تنبكتو الحاج محمد أسكيا حوالي عام 1502/908 في شأن طغيان اليهود ونقضهم عهد الذمة. انظر تفاصيل ذلك عند محمد ابن عسكر، **دوحة الناشر**، 130-132، وفي كتابنا: **الحركة الفكرية**، 1 :268 وما بعدها.

مدينة كَبْرَة

كبرة[19] مدينة كبيرة على شكل قرية مسورة، بعيدة بنحو اثني عشر ميلاً من تنبكتو على النيجر[20]. ومنها تنقل البضائع في السفن إلى غينيا ومالي. ولا تختلف دورها وسكانها عن الدور والسكان الذين ذكرناهم آنفاً. والسود بها من مختلف الأجناس، لأنها الميناء الذي يقصدونه بزوارقهم من مختلف الجهات.

وقد أرسل إليها ملك تنبكتو نائباً عنه ليسهل على السكان الاستقبالات الملكية، ويعفيهم من عناء قطع مسافة اثني عشر ميلاً[21].

كان هذا النائب عندما كنت في كبرة أحد أقارب الملك، يدعى أبا بكر ويلقب بركَما. وكان شديد السواد إلا أنه جليل القدر بذكائه وكثرة إنصافه.

والشيء الذي تتضرر منه هذه المدينة كثيراً هو الأمراض المنتشرة الناتجة عن حالة الأطعمة المتناولة فيها، كالسمك واللبن والزبد واللحم

---

(19) كتبت في الأصل بدون حركة على الباء (كبرة) وشكلت في هامش الترجمة الفرنسية المنقول عنها بفتح الباء (كبرة) وذكر هوداس في ترجمته كتاب تاريخ السودان لعبد الرحمن السعدي (ص 25، هامش 2) أن الشكل الناقص في المخطوط يدل على أن ينطق بها «كبيرة» لا «كبرة» وقد كتب في النص العربي (ص 13) «كابر».

(20) ليست كبرة على النيجر بالذات، لكن ـ كما قيل آنفاً ـ على فرع من هذا النهر. ولا تفصل المدينتين سوى 7 كلم على طريق البر. أما بواسطة القناة التي تمكن من الدخول إلى تنبكتو أيام ارتفاع المياه ـ أي من منتصف دجنبر إلى منتصف فبراير ـ فالمسافة 17 كلم، وهذا يدل على أن المؤلف ذهب من مدينة إلى أخرى في هذه الحقبة ولعل ذلك كان عام 1513-1512/918.

(21) وهو كبرة كوي المكلف بأمن الميناء والسهر على حمل البضائع من كبرة إلى تنبكتو، إما بواسطة الحمالين أو الحمير في فصل الجفاف، وإما بالزوارق أيام ارتفاع المياه.

المزوج بعضها ببعض. ونصف المواد الغذائية الموجودة بتنبكتو مستورد تقريباً من كبرة[22].

كَاغو وممتلكاتها

كَاغو مدينة عظيمة كسابقتها، أي غير مسورة، بعيدة بنحو أربعمائة ميل عن تنبكتو إلى جهة الجنوب الشرقي. دورها قبيحة على العموم، إلا أن البعض منها جميل جداً حيث يسكن الملك وحاشيته، وسكانها تجار أغنياء يتجولون دائمًا في المنطقة بسلعهم. ويأتي إليها عدد لا يحصى من السود حاملين معهم كمية وافرة من الذهب ليشتروا بها أشياء مستوردة من بلاد البربر وأوربا، لكنهم لا يجدون أبداً ما يكفي منها لانفاق ذهبهم، فيعودون دائمًا إلى بلادهم بنصفه أو ثلثه. والمدينة متحضرة جداً بالنسبة لتنبكتو. الخبز واللحم فيها كثيران جداً، لكن الخمر والفواكه منعدمان. حقاً إن البطيخ والخيار والقرع الجيد والأرز توجد فيها بكميات ضخمة، وآبار الماء العذب عديدة. وهناك ساحة يباع فيها أيام السوق عدد لا يحصى من الرقيق ذكوراً وإناثاً، تساوي الفتاة بنت خمس عشرة سنة نحو ستة مثاقيل، وكذلك الفتى تقريباً؛ ولا يساوي الأطفال الصغار إلا نصف هذا الثمن بالتقريب، وكذلك العبيد المسنون. وللملك قصر خاص معد لعدد عظيم من النساء والجواري والعبيد، والخصيان المكلفين بحراسة هؤلاء النساء. وله أيضاً حرس كثير مؤلف من الفرسان والراجلين المسلّحين بالقسي. وبين الباب العام والباب الخاص ساحة كبيرة مسورة، في كل جانب من جوانبها رواق مخصص للاستقبالات. ورغم أن الملك يفصل بنفسه في جميع قضاياه فإن له عدداً من المساعدين الموظفين، كالكتاب والمستشارين والقواد والأمناء.

(22) ليست المواد الغذائية في الواقع أردأ من غيرها، لكن هواء كبرة رديء من أجل الحمى التي تسببها كثرة البعوض.

إن موارد المملكة عظيمة لكن مصارفها أعظم، فالحصان الذي يساوي عشرة مثاقيل بـأوربا يباع هناك بأربعين إلى خمسين مثقالاً، وأبسط قماش أوربـا يباع بأربعة مثاقيل للكنة[23] والقماش الرفيع مثل «المنتشينو» و«المينمو» يباع بخمسة عشر مثقالا، أما القماش البندقي الرفيع كالقرمزي والبنفسجي والأزرق فيصل إلى ثلاثين مثقالاً. وأقبح سيف أوربـي لا يزيد ثمنه على ثلث مثقال، يساوي هناك أربعة مثاقيل أو ثلاثة على الأقل، وكذلك المهاميز والأعنة، وجميع أدوات الخياطة والعطارة باهظة الأثمنة، تساوي «دسيمة»[24] الملح مثقالاً محلياً.

ويتكون باقي المملكة من مداشر وقرى يعيش فيهـا الفلاحـون والرعاة، مرتدين جلود النعام في الشتاء. أما في الصيف فيمشون عراة حفاة، غير أنهم يسترون عوراتهم بمئزر صغير، وينتعلون أحياناً بنعال جلد البعير.

يعيش هؤلاء القوم في جهالة جهلاء، حتى لا تكاد تعثر في مسافة مائة ميل على واحد منهم يعرف القراءة والكتابة، لكن الملك يعاملهم بما يستحقون، فلا يترك لهم إلا ما يسدون به رمقهم لكثرة ما يثقل به كاهلهم من الضرائب.

مملكة كُوبَرْ

تقع هذه المملكة على بعد نحو ثلاثمائة ميل شرق مملكة كَاغو[25]، ويقطع المار بين هاتين المملكتين مفازة لا يوجد فيه إلا القليل من الماء لبعدها عن النيجر بنحو أربعين ميلاً. وتوجد هذه المملكة بين جبال

(23) الكنة مقياس إيطالي قدره نحو ميترين.

(24) «الدسيمة»: مكيال ايطالي قدره عشرة أرطال.

(25) الواقع أن كَوبر الذي يشكل إقليمًا يحد نيجيريا الانجليزية (سابقاً) يوجد على بعد 1000 كلم جنوب شرق كَاغو.

شاهقة[26] تضم عدداً كبيراً من قرى يسكنها رعاة الغنم والبقر، لأن فيها كمية وافرة من هذه الأنعام لكنها قصيرة القامة. والناس متحضرون جداً على العموم، فيهم عدد كبير من نسّاجي القماش، ولا سيما الإسكافين الذين يصنعون أحذية كالتي كان ينتعلها الرومان في القديم؛ وتصدر هذه الأحذية إلى تنبكتو وكَاغو. ويكثر فيها العسل والأرز، ونوع من الحب لم أره قط في إيطاليا، وأظن أنه موجود باسبانيا. وعندما يفيض النيجر يغمر جميع السهول ويحيط بهذه الأماكن المسكونة، فيزرعون حسب عادتهم الحب على الماء[27]. ومن بين هذه الأماكن قرية عظيمة تضم ستة آلاف كانون، ويسكنها التجار الكَوبريون أو الأجانب، كانت من قبلُ دار مُقام الملك وحاشيته، ذلك الملك الذي أسره وقتله في أيامنا هذه أسكيا تنبكتو[28]، كما أنه خصى أحفاده وجعلهم خدَمة في قصره. فاستولى على هذه المملكة وعين والياً عليها من قبله وأثقل كاهل السكان بالضرائب، وكانوا قديماً يحققون أرباحاً تجارية طائلة، فأصبحوا الآن فقراء، ونقص عددهم أكثر من النصف؛ لأن أسكيا أخذ من البلاد عدداً كثيراً من الناس، احتفظ ببعضهم أسرى واستخدم البعض الآخر كعبيد له.

أَغَدَسْ ومملكتها

أغدس مدينة مسورة بناها الملوك المحدثون في تخوم ليبيا. وهي مدينة السود التي تكاد تكون أبهى من مدن البيض باستثناء ولاتة. دورها متقنة البناء جداً على نمط دور بلاد البربر، لأن جميع سكانها تقريباً من التجار

(26) ليست في الواقع سوى كتل جبلية صغيرة ناتئة هنا وهناك لا يتعدى علوها 100 متر.

(27) لا يتعلق الأمر بالنيجر البعيد بمآت الكيلومترات، وإنما المراد أحد روافده.

(28) يقصد أسكيا الحاج محمد الذي غزا عام 1513/919 كشن = كاتسيا (من بلاد الحوصا في نيجريا الشمالية الآن)، ويمكن أن تكون هذه الحملة العسكرية وصلت إلى كَوبر وأطاحت بأميرها: انظر: **تاريخ السودان**، ص 68 من النص العربي، وص 129 من الترجمة الفرنسية.

الأجانب. وأهل البلاد فيها قليلون جداً، يعملون صناعاً أو جنوداً للملك المدينة. ولكل تاجر عدد كبير من العبيد يخدمونه كحراس له في الطريق المؤدية من كانو إلى بورنو التي تعيث فيها فساداً قبائل لا تحصى ضاربة في الصحراء. وهم قوم يشبهون أفقر البوهيميين ويهاجمون التجار على الدوام ويفتكون بهم، لذلك يأخذ التجار معهم عبيداً مسلحين كما يجب بالرماح والسيوف والقسي، وبدؤا اليوم يستعملون الأسلحة النارية[28م] وبذلك لا يتمكن هؤلاء اللصوص من عمل أي شيء ضدهم. وبمجرد ما يصل تاجر إلى المدينة يستعمل هؤلاء العبيد في مختلف الأشغال ليكسبوا معاشهم، ويحتفظ بعشرة أو اثني عشر منهم لخدمته الخاصة وحراسة بضائعه.

ينفق ملك أغدس على حرس مهم، ويعيش في قصر بوسط المدينة، لكن جيشه مؤلف من البدويين والصحراويين، لكونه في الحقيقة من هذه الشعوب الليبية، وقد يخلعه هؤلاء أحياناً ويعوضونه بأحد أقربائه، إلا أنهم لا يقتلونه. ويعين ملكاً لأغدس من يرضي أهل الصحراء أكثر من غيره.

وفي باقي المملكة، أي سائر المنطقة الجنوبية، يقبل الناس على تربية الماعز والبقر، ويعيشون في أكواخ من أغصان الأشجار ومن حصر يحملونها على الثيران عند ارتحالهم لينصبوها في مراعي ماشيتهم كما يفعل الأعراب. ويحصل الملك على موردهام من الإتاوات التي تؤدى على البضائع الأجنبية ومنتجات البلاد، لكنه يؤدي نحو مائة وخمسين ألف مثقال كخراج لملك تنبكتو[29].

(28 م) هذه أول إشارة إلى استعمال الأسلحة النارية بهذه المنطقة.

(29) في الترجمة الفرنسية المنقول عنها تعليق مطول هنا حول خضوع أغدس لأسكيا ملك كاغو، واختلاف مترجمين فرنسيين في نقل أعلام جغرافية مكتوبة بالعربية في كتب تاريخ السودان للسعيد وكعتي وغيرهما لم نر فائدة في نقله أو تلخيصه، وإنما نحيل فقط على المصادر العربية المطبوعة، مثل تاريخ السودان لعبد الرحمان السعدي، ص 75 وعبد القادر زبادية، **مملكة سنغاي**، ص 38.

كَانُو

كَانو إقليم كبير على بعد نحو خمسمائة ميل شرقي النيجر، يضم عدة شعوب يسكنون القرى ويعيشون من تربية الغنم والبقر أو من فلاحة الأراضي التي تنبت كثيراً من الحب والأرز والقطن. وفيه جبال خالية من السكان مكسوة بالغابات مليئة بالعيون. وفي هذه الغابات كثير من شجر البرتقال والليمون البري، ينتج فواكه لا يختلف مذاقها عن مذاق الشجر المغروس.

وفي وسط الاقليم مدينة استمد الاقليم منها اسمه، يحدق بها سور مبني بالركائز والطين، والدور مبنية بنفس المواد. والسكان صناع متحضرون وتجار أغنياء. كان ملكهم في القديم ذا شوكة قوية له حاشية هامة وعدة فرسان، بحيث إنه أخضع لسلطته ملك زَكْزكْ وملك كاتسينا، إلّا أنّ أسكيا ملك تنبكتو تظاهر بإنجاد هذين الملكين وأمر بقتلهما غيلة واستولى على مملكتهما. ثم بعد ثلاث سنوات أعلن الحرب على ملك كَانو وأرغمه بعد حصار طويل على أن يتزوج إحدى بناته ويؤدي له ثلث مورده كل سنة، ويترك في المملكة عدداً من الأمناء والجباة لاستيفاء حقه من الضرائب.

كاتسينا ومملكتها

كاتسينا مملكة مجاورة للسابقة من جهة الشرق مشتملة على عدة جبال[30]، وأراضيها وعرة لكنها جيدة للشعير والدخن. والسكان شديدو سواد البشرة، أنوفهم كبيرة شنيعة، وشفاههم غليظة. وجميع الأماكن المسكونة في هذه البلاد قرى من أخصاص قبيحة المنظر، لا يتعدى سكان أيّ واحد منها ثلاثمائة كانون، وهنا يجتمع الفقر والدناءة. وكان لهؤلاء

---

(30) ليست في الواقع سوى تلال صخرية قليلة الا رتفاع.

القوم في القديم ملك يحكمهم، لكن أسكيا قتله وأفنى نصف الشعب وتمكن من المملكة كما قلناه آنفاً.

زَكْزَكْ ومملكتها

هذه بلاد تتاخم كَانو من جهة الجنوب الشرقي، لكنها تقع على بعد نحو خمسين ميلاً من كاتسينا. سكانها أغنياء يتعاطون التجارة في المنطقة كلها. قسم من هذا الاقليم شديد الحر، والقسم الآخر شديد البرد إلى حد أن السكان لا يطيقون تحمل الشتاء. فيتخذون في أرض أكواخهم مواقد كبيرة يوقدون فيها كثيراً من الجمر يضعونها تحت أسرتهم المرتفعة فينامون عليها. ومع ذلك فإن الأرض تنتج الثمار، وتكثر فيها المياه والحبوب. وتشبه الدور والقرى مثيلاتها المذكورة آنفاً. وكان في هذه البلاد ملك مستقل إلا أن أسكا قتله واستولى على ملكه هو الآخر.

زَنْفَرَى

هذه ناحية متاخمة لسابقتها من جهة الشرق، تسكنها عدة شعوب حقيرة بدائية، ويكثر في البلاد الحب والأرز والدخن والقطن. وأهل زنفرى طوال القامة لكنهم سود البشرة لدرجة لا توصف، وجوههم وحشية طويلة، وهم إلى البهائم أقرب منهم إلى الإنسان، وقد سمَّ أسكيا ملكهم، وأباد قسمًا منهم[31].

مملكة وانْكُرَة

وانكُرة إقليم متاخم للإقليم السابق من جهة الجنوب الشرقي[32]، يسكنه شعب كبير يحكمه ملك يستطيع أن يعبىء سبعة آلاف رجل مسلح

---

(31) توجد في الواقع زنفرا أو زمفرا جنوب كَوبر وشمال غرب كاتسينا التي تفصله عن زكزك أكثر جنوباً. والوزان أول من ذكر سكان هذه البلاد المجهولي الأصل.

(32) ليست ونكُرى هذه إمبراطورية مالي ــ كما يعتقد بعضهم ــ بل هي دولة نشأت في بلاد الحوصة في القرن السابع الهجري /13 م، وقد ضمتها إليها مملكة كاتسينا النامية.

بالقسي وحوالي خمسمائة فارس من الغرباء، ويستخرج مورداً كبيراً من رسوم السلع والضرائب التجارية. وجميع الأماكن المسكونة قرى من أخصاص، باستثناء واحد هو أكبر وأجمل من الأخرى. والسكان أغنياء جداً لأنهم يذهبون بسلعهم إلى البلدان النائية، ويجاورون من الجنوب البلاد التي يوجد فيها الذهب بكمية وافرة. أما الآن فلا يستطيعون القيام بتجارة خارجية لوجود عدوين قويين شرسين، هما أسكيا في الغرب، وملك بورنو في الشرق. ولما كنت في بورنو حشد ملكها ابراهيم جيشه كله لمهاجمة ملك وانكُرة، لكنه لما اقترب من هذه المملكة علم أن عمر أمير كَاوكًا يستعد للزحف على بورنو، فعدل حيناً عن مشروعه وقفل راجعاً إلى مملكته. وكان ذلك من حسن حظ ملك ونكَّرى. ويضطر تجار ونكَرى عندما يتوجهون إلى بلاد الذهب إلى اجتياز جبال عالية وعرة لا تستطيع الدواب أن تمر بها. فيتخذون الطريقة الآتية، وهي أن يحمل الخدم على رؤوسهم البضائع وما يحتاجون إليه في قشور قرعٍ عريضة عميقة، ويستطيع كل خادم أن يقطع عشرة أميال وأكثر حاملاً على رأسه مائة رطل. ورأيت منهم من يقطع هذه المسافة مرتين في نفس اليوم، ولم يبق على رأسهم شعر بسبب الوزن الثقيل الذي تعودوا على حمله، وينقلون زيادة على البضائع المؤن لسادتهم ولجميع العبيد المسلحين لحراسة التجار.

بورنُو ومملكته

بورنو[33] إقليم كبير يتاخم وانكُرَة غرباً، ويمتد شرقاً على مسافة نحو خمسمائة ميل، ويبعد بنحو مائة وخمسين ميلاً عن منبع النيجر[34]؛ كما يتاخم جنوباً صحراء سات[35] وشمالاً الفلوات المقابلة لبرقة. ولهذا

---

(33) هو إقليم لنيجريا الشمالية الحالية.

(34) ذكر المؤلف في القسم الأول أن النيجر ينبع في قفرسا ومن بحيرة كبيرة، أي من التشاد.

(35) سبق قلم بل ساو.

الاقليم مواقع متنوعة، فبعض النواحي جبلية، والأخرى مؤلفة من سهول حيث توجد قرى عديدة يسكنها قوم متحضرون وتجار أجانب من السود والبيض. أما الملك فيسكن أعظم هذه القرى مع جنوده.

يسكن الجبل رعاة يرعون الماعز والبقر. ويزرع فيه أيضاً الدخن وبعض الحبوب الأخرى المجهولة عندنا. يسير أهل البلاد عراة في الصيف بمآزر من جلد، ويتدثرون في الشتاء بجلود الغنم، ويفترشونها كذلك. وهم بشر لا ديانة لهم لا نصرانية ولا يهودية ولا إسلامية، بل لا إيمان لهم كالبهائم، يشتركون في النساء والأولاد. وحسب ما سمعته من أحد التجار الذي كان يعيش في هذه البلاد ويفهم لغتهم، ليس لهم أسماء خاصة كما لغيرهم. فإذا كان شخص طويل القامة دُعي بالطويل، وإذا كان قصير القامة دُعي بالقصير، وإذا كان منحرف البصر دُعي بالأحول، وهكذا دواليك حسب الأعراض والخاصيات.

يحكم هذا الاقليم أمير شديد البأس من برداوة الشعب الليبي(36)، له زهاء ثلاثة آلاف فارس وما يشاء من الراجلين، لأن الشعب كله في خدمته، يقوده حيثما شاء، ولا يفرض عليه أي خراج ما عدا عشر ما تنتجه الأرض. ولا مورد لهذا الملك غير ما يحصل عليه من نهب وقتل الأعداء من جيرانه القاطنين فيما وراء قفر ساو، وعددهم لا يحصى. وكانوا قديماً يقطعون هذا القفر مشياً على الأقدام ويجتاحون مملكة بورنو بأسرها، لكن الملك الحالي لهذه البلاد جاء بتجار من بلاد البربر ليأتوه بخيل يستبدلونها بعبيد، يأخذون مقابل كل فرس خمسة عشر أو عشرين عبداً، فكان يشن الغارة على العدو بهذه الخيل، ويترك التجار ينتظرون إلى عودته. وربما مكثوا في انتظاره شهرين أو ثلاثة أشهر، وهم على نفقة في هذه المدن.

---

(36) نذكر أن المؤلف يجعل من برداوة بيضاً من نفس جنس التوارق، بينما هم سود من جنس تيد الخاص. تقول الروايات المحلية إن تيدا الآتين من كانم دمروا ساو وضموها إليهم، ثم أنشؤوا كانوري أو برنوان.

وعند عودته يجلب معه أحياناً من العبيد ما يكفي لأداء المبلغ الواجب للتجار، وأحياناً يضطر التجار إلى انتظار السنة الموالية لأن الملك لم يكن له من العبيد ما يفي بالثمن، فهذه الغارة لا يمكن القيام بها دون خطر إلا مرة في السنة.

ولما ذهبت إلى هذه المملكة وجدت فيها عدة تجار مستائين راغبين في ترك هذه التجارة وعدم الرجوع إلى هذه البلاد أبداً، لأنهم كانوا ينتظرون قبض الثمن منذ سنة. ورغم ذلك فإن الملك يتباهى بثروته وبالخزينة العظيمة التي يملكها. وقد رأيت كل ما يجهز به خيله من ركابات ومهامز وأعنة وشكيمات كلها من الذهب، وكذلك القصع والأواني التي يستعملها للأكل والشرب معظمها كذلك من الذهب. والسلاسل، حتى سلاسل كلاب الملك، كلها من الذهب الخالص، ومع ذلك فإن هذا الرجل ــ كما قلنا ــ شديد البخل يفضل دفع الثمن رقيقاً على دفعه ذهبا.

يسيطر على ممالك عديدة، لكن البيض يسمون جميع البلدان التي يحكمها بورنو، وذلك لقلة الخبرة الكافية التي تمكن من معرفة خاصة بهذه البلاد، وذلك ما حدث لي بالأخص، لأنني لم أقضِ في هذا الاقليم أكثر من شهر تقريباً[37].

كَاوْكَا ومملكتها

يتاخم هذا الاقليم بورنو غرباً، ويمتد شرقاً إلى حدود مملكة نوبيا الواقعة على النيل، وينتهي جنوباً بصحراء تتاخم أيضاً منعرجاً للنيل، ويسير

---

(37) من المحتمل أن يكون البرنويون من بربر غاوة الذين ينسبهم ابن خلدون إلى هوارة، والذين أشار إليهم الإدريسي حول الأير (تينشمان)، ويكونون وفدوا على برنو حوالي القرن الثالث الهجري / 9م، حيث امتزجوا بسودان ساو ونتج عنهم الكانوري. ودامت مملكة برنو إلى عام 1893/1311 حيث سقطت تحت قبضة السلطان رباح.

شمالاً إلى صحراء سرت وتخوم مصر، ثم يمتد من الغرب إلى الشرق على طول نحو خمسمائة ميل، وعلى نفس المسافة عرضاً بالتقريب[38].

لا توجد هناك حضارة ولا معرفة بالآداب ولا حكومة، والسكان أغنياء لا سيما الجبليين منهم، يسيرون حفاة في الصيف ولا يرتدون أي لباس غير شبه سروال من الجلد يستر عورتهم. دورهم أكواخ من أغصان الشجر، كثيراً ما تحترق عند هبوب أدنى ريح خفيفة، ولهم عدد وافر من الغنم والبقر يقومون على تربيتها.

وقد عاش هؤلاء القوم أحراراً مدة طويلة، إلا أن عبداً زنجياً من هذه البلاد سلبهم حريتهم منذ مائة سنة، كان قد جاء به سيده إلى هناك، وهو أحد التجار الأغنياء. فلما وجد العبد نفسه قريباً من منزله قتل سيده بينما كان نائماً مطمئناً، واستولى على أمواله المؤلفة من أحمال عدة جمال وثياب وأسلحة، وعاد إلى بيته وقسم كل ذلك بين أهله وأصدقائه. وبعد أن اشترى بعض الخيل من تجار بيض، أخذ يقوم بشن الغارات على بلد أعدائه، وكان ينتصر عليهم دائماً لأن رجاله كانوا مسلحين بأسلحة حديثة، بينما لم يكن لأعدائه غير قسي رديئة من الخشب. فجمع عبيداً كثيرين استبدلهم بخيل مجلوبة من مصر، وتضاعف عدد جنوده. فأطاعوه جميعاً وعدوه رئيساً وأميراً لهم.

وخلفه ابنه بعد موته، ولم يكن أقل منه شجاعة وإقداماً. ثم جاء بعده أحد إخوته المسمى موسى، وخلفه أحد أحفاده المدعو عمر، وهو الأمير الحالي، فوسع كثيراً رقعة أملاكه، ونال صداقة سلطان القاهرة

---

(38) هذه الحدود مبالغ فيها، لأن مملكة بولالا المعروفة باسم كَاوكَا تتاخم في الغرب نحو كانم مع مملكة برنو، لكن فيما عدا ذلك لم تكن حدودها معروفة: ففي الشرق حيث انتهت مملكة نوبيا منذ 1504/909 تسربت القبائل العربية حتى دَرْفور، وفي الشمال تقف هذه المملكة عند صحراء يسكنها تيبو، وفي الجنوب تصطدم بمجموعة قبائل بلاد شاري وروافده.

ورعايته بفضل هداياه ومجاملاته، وحصل منه على الأسلحة والأقمشة والخيل التي كان يدفع فيها ضعف ثمنها متظاهراً بالسخاء، حتى جعل تجار مصر لا يقصدون غير بلاطه. ويفد عليه عدد كثير من فقراء القاهرة حاملين بعض الهدايا الجميلة النادرة فيدفع إليهم ضعف ثمنها، وكان لا يخرج من عنده أحد إلا وهو به مغتبط جذلان؛ ويعامل المثقفين، لاسيما آل البيت، بكثير من الاعتبار والإعزاز. وكنت حاضراً عندما وفد عليه رجل من دمياط وأهدى إليه فرساً في غاية الجمال وسيفاً تركيا، وزردا وبندقية، وبعض المرايا الجميلة، وسبحات من المرجان وبعض السكاكين، يقدر ثمنها كلها في القاهرة بخمسين مثقالاً. فأعطاه الملك في مقابل ذلك خمسة عبيد وخمسة جمال وخمسمائة مثقال من سكة البلاد، بالإضافة إلى نحو مائة من أنياب الفيل العظيمة.

النُّوبَة ومملكتها

تتاخم مملكة النوبة[39] المملكة السابقة، أي مفازاتها نحو الغرب. وتمتد على طول النيل متاخمة قفر القرعان[40] جنوباً وأراضي مصر شمالاً.

لا يمكن الذهاب في السفن من النوبة إلى مصر، لأن ماء النيل ينتشر في السهول وهو قليل العمق بحيث يعبره الناس والبهائم خوضاً بالاقدام.

في هذه المملكة مدينة رئيسية تدعى دُمْقُلَة[41]، وهي كثيرة السكان، يبلغ عدد كوانينها قرابة عشرة آلاف. لكن دورها كلها قبيحة

---

(39) كتب في الأصل الفرنسي «نوبيا» والاسم العربي نوبة كما جاء في معجم البلدان (323:8) وهي مملكة نصرانية جنوب مصر، دمرها العرب في أوائل القرن الثامن الهجري/ 14 م وما تزال في الجنوب مملكة نصرانية أخرى (ألوا).

(40) القرعان هو الاسم الذي أطلقه العرب على دازا من مجموعة تيدا ـ دازا القاطنين حالياً شمال بحيرة تشاد وفي الشمال الشرقي إلى بوركو وإينديي.

(41) كتبت في الترجمة الفرنسية دنقلة ـ بالنون ـ وأصلها الميم كما في **معجم البلدان** (323:8).

مبنية بأعمدة طويلة وبالطين. والسكان أغنياء متحضرون، لأنهم يزاولون في القاهرة وسائر مدن مصر تجارة القماش والسلاح وغير ذلك من البضائع المختلفة[42]. وفي باقي المملكة قرى على ضفتي النيل يسكنها الفلاحون. وتكثر الحبوب في بلاد النوبة كلها، وكذلك السكر، إلا أنهم لا يحسنون طبخه فيعود أسود كريهاً. ويكثر في دمقلة قطاط الزباد وخشب سانغو[43]، وكذلك العاج، لأنهم يصطادون كثيراً من الفيلة. ويوجد بها أيضاً كثير من السم الزعاف، حتى إن مقدار حبة واحدة منه إذا اقتسم على عشرة أشخاص قتلهم في ظرف ربع ساعة، وإذا تناول الإنسان حبة واحدة مات بعدما ينطق بالشهادة. ويساوي هذا السم مائة مثقال للأوقية، ولا يباع للأجانب إلا بالضامن، وحتى باليمين أنهم لن يستعملوه في النوبة. ويؤدي المشتري إلى الملك مبلغاً يعادل ثمن السم، لذلك لا يستطيع أحد بيعه سراً خشية عقوبة الإعدام. وملك النوبة في حرب دائمة، تارة ضد القرعان الذين هم من جنس شبيه بجنس البوهيميين الذين يعيشون عيشة ضنكاً في الصحراء ولا يفهم أحد لغتهم، وتارة ضد نوع آخر من قوم يعيشون أيضاً في الصحراء لكن في القسم الشرقي مما وراء النيل. ويمتد القفر حتى البحر الأحمر نحو تخوم السواكن. ويتكلم هؤلاء القوم لغة أظن أنها ممزوجة بالكلدانية وقريبة جداً من اللغة التي يتكلم بها في السواكن وإيثوبيا العليا حيث يُوجد مُقام الراهب يوحنا. وهذا الجنس يُدعى البُجَة، وهم رعاع يرتدون لباساً رديئاً، وفقراء يعيشون من ألبان إبلهم ولحومها، ومن الصيد الوحشي. ويتقاضون أحياناً بعض الإعانات المالية من أمير السواكن أو أمير دمقلة.

---

(42) يسمي العرب النوبيين بربرا، وهم زنوج، ويمكن أن يكونوا هجناء منذ عصور قديمة.

(43) شبه الأبنوس.

وكان لهم في القديم على البحر الأحمر مدينة عظيمة اسمها زبيد[44] لها ميناء، يقابل مباشرة ميناء جدة[45] الواقعة على بعد أربعين ميلاً[46] من مكة. لكن هؤلاء القوم منذ مائة سنة مضت نهبوا قافلة كانت تحمل سلعاً ومؤناً لمكة، فاغتاظ ملك مصر وبعث في البحر الأحمر أسطولاً استولى على مدينة زبيد وميناءها ودمرهما[47]. وكانت المدينة وميناؤها تعطيانه دخلاً قدره مائتا ألف (دينار) أشرفي. ففر البُجَة والتجأوا إلى دمقلة والسواكن حيث حصلوا على بعض معاشهم؛ إلا أن ملك السواكن بعد ذلك هزمهم هزيمة شنعاء، بمعونة أتراك مسلحين بالبنادق والقسي، بحيث إنه قتل من هؤلاء الرعاع الذين كانوا يعيشون عراة أكثر من أربعة آلاف في معركة واحدة. وسيق ألف منهم إلى السواكن حيث قتلهم النساء والأطفال.

هذا كل ما استطعت أن أكتبه ملخصاً عن بلاد السودان، ولا يمكن إعطاء تفاصيل أكثر عنها، لأن كل واحدة من هذه الممالك الخمس عشرة تشبه الأخرى من حيث طبيعة البلاد والحضارة والعادات وأسلوب العيش، ويحكمها أربعة ملوك. وسأتابع حديثي الآن عن مصر.

---

(44) زبيد مدينة شهيرة باليمن، ولعل المراد هنا عيذاب التي ذكر ياقوت في **معجم البلدان** (6: 246) انها بليدة على ضفة بحر القلزم وهي مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد.

(45) كتب في أصل الترجمة الفرنسية «زيدن».

(46) بل 55 ميلاً.

(47) لم يعثر على آثار عيذاب، فبقي موقع المدينة غير واضح.

القسم الثامن

مصر

البحر المتوسط
برلوس
دمياط
تنيس
رشيد
بوقير
برنبال
فوة
ديروط
الإسكندرية
البحرية
سمنود
دمنهور
بوصير
الريف
الخانقة
القاهرة
الجيزة
منف
الفيوم
بني سويف
المنية
منفلوط
أسيوط
أخميم
المنشية
جرجة
الخيام
قنى
النيل
إسنا
أسوان
البجة

مصـــر

إقليم مصر المشهور كثيراً يحدّه غرباً صحاري برقة ونوميديا وليبيا، ويتاخم شرقاً المفازات الواقعة بين النيل والبحر الأحمر، ويصل شمالاً إلى البحر المتوسط، كما يتاخم جنوباً إقليم البُجَة[1] والأماكن التي يحتلّونها على النيل. ويبلغ طوله بين البحر المتوسط وبلاد البجة نحو أربعمائة وخمسين

(1) البُجَة: قوم مساكنهم بين النيل والبحر. تكلم عنهم المؤرخون والجغرافيون العرب القدماء، كالمسعودي في **مروج الذهب**، والإصطخري في **المسالك والممالك**، وابن حوقل في **صورة الأرض** وغيرهم. وتحدث عنهم عن مشاهدة أحمد بن أبي يعقوب ابن واضح الأخباري في كتابه **تاريخ اليعقوبي**، (ج: 1، ص 217-218) فذكرهم ضمن ممالك الحبشة والسودان، وقال إن للبجة عدة ممالك ذكر منها ستًّا، أولها من حد أسوان إلى حد بركات، وهم الجنس الذي يقال لهم نقيس، وحاضرتهم تدعى هجر، ولهم قبائل وبطون كما هو الشأن عند العرب ــ وذكرها ــ، وقال إن في بلادهم معادن التبر والجوهر والزمرّد، وهم مسالمون للمسلمين، والمسلمون يعملون في بلادهم في المعادن.

ملاحظة: أمدّني الزميل الدكتور عبد العال الشامي استاذ الجغرافيا بكلية الآداب بجامعة الكويت ــ جزاه الله خيراً ــ بمجموعة من الملاحظات والمراجع المتعلقة بجغرافية مصر، لاسيما ملحق رسالته في الماجستر عن **مصر عند الجغرافيين العرب فيما بين القرنين الثالث والتاسع للهجرة**، ومصوّر ملحق كتاب **التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار** لمحمد الأسدي بتحقيق الدكتور عبد القادر طليمات، وذلك على أثر لقائنا في المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول بالرياض، في صفر 1399/ يناير 1979، وأنا يومئذ مشتغل بتنقيح الجزء الثاني من **وصف افريقيا** الذي أتممت مع الدكتور محمد الأخضر آنذاك ترجمته عن الفرنسية، وقدّمنا الجزء الأول للمطبعة. وقد تفضّل الدكتور عبد =

ميلاً، ويكاد عرضه يكون منعدماً، لأنـه لا يشكّل سـوى القليل من الأراضي المزروعة الموجودة على ضفاف النيل الجاري بين جبال يابسة محاذية للصحاري المذكورة. ولمصر في الحقيقة بعض العرض قرب البحر المتوسط، لأن النيل ينقسم إلى فرعين على بعد ثمانين ميلاً في عالية القاهرة: أحدهما، وهو الغربي، يلتحق أخيراً بالفرع الرئيسي الذي يتولّد عنه[2]. وينقسم النيل مرة أخرى على بعد نحو 60 ميلاً[3] عن سافلة القاهرة إلى فرعين، أحدهما يسير إلى رشيد والآخر إلى دمياط. وينفصل عن نيل دمياط فرع جديد يتحوّل إلى بحيرة[4]، إلا أنه يبقى مضيق يصل البحيرة بالبحر، وتقع عليه مدينة تِنّيس الأزلية[5]. وإذا كانت مصر يزداد عرضها، فلأن النيل يتفرّع بهذه الكيفية كما ذكرنا. وإقليم مصر كله عبارة عن سهل خصيب بالحبوب والخضر، فيه مراع ممتازة للمواشي، وكمية لا تحصى من الدجاج والأوز.

يكاد يكون جميع سكان هذه البلاد سُمراً، إلا المدنيين فإن بشرتهم بيضاء، يرتدون لباساً حسناً ضيقاً مخيطاً عند الصدر مفتوحاً من هناك إلى الأرجل مع أكمام ضيّقة أيضاً. ويضعون على رؤوسهم عمامة كبيرة

= العال ــ مشكوراً ــ بالإجابة شفوياً عن بعض المشاكل التي طرحتها عليه، ثم بعث إليّ بهذه المجموعة من الوثائق التي أفدت منها كثيراً في مراجعة القسم المتعلّق بمصر من هذا الكتاب.

(2) ليس للنيل في الحقيقة فرعان، لكن ينفصل عنه على بعد 193 ميلاً عالية القاهرة ــ لا 80 ميلاً ــ فرع ملتو مواز شيئاً ما للنهر، وهو بحر يوسف الذي كان قديماً يلتحق بأحد فرعي دلتا النيل في سافلة القاهرة الذي يسقي فرع منه الفيوم.

(3) سبق قلم عوض 16 ميلاً.

(4) هي بحيرة المنزلة.

(5) تنيس ــ بكسر التاء والنون المشددة ــ مدينة في بحيرة المنزلة بالنيل (جزيرة في بحر مصر ــ بتعبير ياقوت) ذكر أخبارها مفصّلة ياقوت في **معجم البلدان**، ج: 2، ص 419 وما بعدها.

ملفوفة على قلنسوة من نسيج الصوف والوبر، وفي أرجلهم شبه نعال على الشكل العتيق. وينتعل القليل منهم أحذية مثنى جانب منها تحت القدم. ولباسهم في الصيف ثوب من القطن مخطّط بالألوان، وفي الشتاء يحشى الثوب بالقطن ويسمّى الهبر. أما الشخصيات المهمة والتجّار فيرتدون ملابس أوربية.

المصريون فضلاء ظرفاء، وأكثر من ذلك أسخياء. يستعملون في غذائهم كثيراً من اللبن والجبن الطري، لكنهم يستهلكون أيضاً كثيراً من اللبن الحامض أو من اللبن الذي يخثّرونه بوسائلهم الخاصة. ويملّحون جبنهم كثيراً فلا يستسيغ الغريب الذي لم يتعوّد ذلك مايستلذّونه من طعام. ويضعون اللبن الحامض في كل أنواع الحساء عندهم تقريباً.

أقسام إقليم مصر

قسمت مصر إلى ثلاثة أقسام في عهدنا هذا، أي منذ أن أخذ المسلمون يسيطرون على هذا الإقليم، فما بين القـاهرة ورشيـد يسمّى الريف، أي الساحل، ومن عالية القاهرة إلى تخوم البُجَة يسمّى الصعيد، أي الأرض، والجزء الواقع على فرعي النيل الذاهب إلى دمياط وتنيس يدعى البحيرة نسبة للبحر.

وهذه الأقسام الثلاثة غزيرة الإنتاج خصبة جداً. لكن الصعيد ينتج على الخصوص الحبوب والخضر والمواشي والطيور والكتّان، بينما ينتج الريف الفواكه والأرز، والبحرية القطن والسكر وبعض الفواكه المسمّاة بالموز ــ موزى بالإيطالية ــ. وسكان الريف ومصر البحرية أكثر تحضّراً من سكان الصعيد، لأن هاتين الناحيتين أقرب إلى البحر ويختلف إليهما الأجانب القادمون من بلاد البربر وأوربـا والشام. أما سكان الصعيد الذين يعيشون داخل الأراضي فلا يرون الغرباء أبداً لـوجودهم وراء القاهرة، والغرباء ــ ما عدا بعض الأثيوبيين ــ لا يذهبون إلى تلك البلاد.

أصل المصريين ونَسَبهم

يرجع أصل المصريين، كما كتبـه موسى[6]، إلى مصـرائيم بن

(6) يشير إلى ما كان يعتقده اليهود من كتابة موسى لأسفار التوراة.

كوش بن حام بن نوح[7]. وأطلق العبرانيون على الناحية وسكانها نفس الاسم وهو مصرائيم[8]، ويسمّي العرب أيضاً جميع الناحية مصر، لكنهم يدعون السكان أقباطاً، ويقولون إن قبطاً أول من استولى على البلاد وبنى فيها دُوراً. وأهل البلاد أنفسهم يدعو بعضهم بعضاً بهذا الاسم. لكن لم يبق من هؤلاء المصريين الحقيقيين إلا من يوجد فيها حالياً من المسيحيين، واعتنق سائرهم الإسلام وانتسبوا إلى العرب والأفارقة.

دامت مملكة مصر خاضعة للمصريين مدة طويلة، وهم الفراعنة الذين كانوا ملوكاً أقوياء عظماء، كما تشهد بذلك آثار المبـاني الأنيقة العجيبة. وما زال التاريخ يتحدّث عنهم وعن البطالسة.

ثم سقطت مملكة مصر في يد الرومان اثر زواج. . . .[9] التي كانت ملكة وقتذاك مع قائد روماني كبير، كما يذكره التاريخ.

وتنصّر المصريون بعد ظهور المسيح. إلا أن مصر استمرت كجزء من الامبراطورية الرومانية. ولما انحلّت هذه الامبراطورية تحوّلت مصر إلى امبراطورية القسطنطينية، واهتمّ الأباطرة كثيراً بالمحافظة على هذه المملكة.

وأخيراً بعد ظهور محمد ــ عليه السلام ــ غزا المسلمون مملكة مصر وفتحها عمرو بن العاص قائد جيش عربي باسم الخليفة الثاني عمر، فترك للسكان حرية الديانة ولم يفرض عليهم غير الخراج.

وبنى عمرو بن العاص على ضفة النيل مدينة صغيرة يسمّيها العرب الفسطاط، ويعني في لغتهم الخيام، لأن عمراً عندما قام بحملته وجد المكان خالياً تماماً من السكان، مهملاً، فاضطر الجيش إلى الإقامة تحت

---

(7) في سفر التكوين، الفقرة 6، أن مصرائيم هو ابن حام وأخو كوش. وقد كتبت في الترجمة الفرنسية المنقول عنها بالنون مصرائين.

(8) كانت عبارة مصري في الواقع تسمية بابلية.

(9) هنا بياض لأن المؤلف لم يتذكّر اسم كليوباترا.

الخيام، ويدعو الشعب هذه المدينة مصر العتيقة ــ أي القديمة ــ وذلك بالنسبة للقاهرة التي هي مدينة جديدة ــ إن صحّ التعبير ــ.

ويتوهّم كثير من المفكّرين النابهين اليوم، سواء منهم المسلمون والمسيحيون واليهود، أن مصر كانت المدينة التي يسكنها فرعون موسى وفرعون يوسف، والحقيقة أن عاصمة فرعون كانت في الجزء الافريقي من مصر، أي على ذراع النيل المار غرباً[10] حيث توجد الأهرام. ويشهد ذلك الكتاب المقدّس ــ إن صحّ التعبير ــ في سفر التكوين عندما يذكر أن اليهود استُخدموا في بناء أبتون، وهي مدينة شيّدها الفراعنة في عهد موسى، وهي أيضاً على الضفة الافريقية على بعد نحو خمسين ميلاً جنوب القاهرة، على ذراع النيل المذكور الواقع غرب الفرع الرئيسي للنهر[11]. وهناك حجة أخرى على أن مدينة فرعون كانت في الموقع الذي ذكرته، هو أنه يوجد في مفترق فرعي النيل[12] بناء عريق في القِدَم يسمّى قبر يوسف، وبه دُفن قبل أن ينقل اليهود جثته إلى مقبرة أسلافه[13]، فلا علاقة إذن بين القاهرة والأماكن المجاورة لها، وبين مدن الفراعنة القدماء.

---

(10) هو بحر يوسف

(11) جاء في سفر الخروج (1 :11) ــ لا في سفر التكوين ــ أن بني اسرائيل شيّدوا مدينتي بيتوم ورمسيس لاستعمالها كخزانين لفرعون، ولم تكن بيتوم واقعة على بحر يوسف، بل عرفت بتل الرتابة في وادي الاسماعيلية. فظنّ الكاتب أنها مدينة الفيوم البعيدة على الأقل بـ60 ميلاً من القاهرة ــ لا بـ50 ميلاً ــ بأقصر طريق.

(12) بل لبحر يوسف.

(13) من المحتمل أن يكون المقصود أثر مدفن فرعون أمنيميس الثالث القريبة من هرم الهوارة، على بعد نحو 6 كلم جنوب شرق مدينة الفيوم، وليس هذا إلا معبد التيه الشهير.

ومعلوم أن النبلاء عند قدماء المصريين كانوا يسكنون الصعيد في عالية القاهرة في المدن المسمّاة الفَيُّوم ومَنْف[14] وإخْمِيم[15] وغيرها من المدن الشهيرة. لكن بعد احتلال الرومان لمملكة مصر، تجمع أعيان البلاد كلهم في الريف على الساحل، حيث الاسكندرية ورشيد. ويوجد فيه حتى اليوم عدة أماكن تحمل أسماء لاتينية. ولما انتقلت الامبراطورية من روما إلى اليونان تراجع هؤلاء النبلاء شيئاً فشيئاً إلى مصر البحرية، واتخذ نائب الامبراطور من الاسكندرية دار مقام له.

وعندما قدِمت جيوش المسلمين إلى مصر أقامت تقريباً في وسط المملكة للوصول إلى هدفين اثنين: إخماد الفتن في جزئي المملكة، والتحرّز من المسيحيين الذين كانوا يخشونهم كثيراً لو مكثوا في مصر البحرية.

خاصّيات مناخ مصر وتغيّراته

الهواء مضرّ جداً شديد الحر، والسماء لا تمطر في هذا القطر إلا نادراً، وتسبّب الأمطار عدة أمراض: فمن الناس من يصابون بالحمّى والنزلة، ومنهم من تنتفخ خصيهم بكيفية مشوّهة يعجب منها الناظرون، ويعزو الأطباء ذلك إلى استهلاك الجبن المالح ولحم الجاموس.

وفي الصيف تلتهب البلاد بسبب الحرارة المفرطة. وتفادياً لذلك يبنون في جميع المدن مدخنات عالية لها فتحة في أعلاها وأخرى في أسفلها تناسب حجرات المنازل، فتدخل الريح من أعلى وتخرج من أسفل حاملة معها بعض البرودة. ولولا ذلك لما أمكن العيش لشدة الحر الذي

---

(14) هي منفيس القديمة عند الإغريق، ومنفي عند الأقباط، على بعد 25 كلم جنوبي القاهرة، وقد عفت آثارها العظيمة إلا القليل، بين قريتي بدرشين وسقارة على ضفة النيل اليسرى.

(15) كتب في الأصل اشمين، وهي على الضفة اليمنى للنيل على بعد نحو 520 كلم في عالية القاهرة بطريق النهر.

لا يُحتمل. ويأتي الطاعون أحياناً فيذهب بعدد لا يُحصى من الناس، لاسيما في القاهرة، حيث يموت منه أحياناً اثنا عشر ألف شخص في اليوم. أما داء الإفرنج فلا أظن أنه توجد في العالم بلاد أخرى يجتاحها أكثر من هذه البلاد، فيشاهد في القاهرة عدد كثير من الناس قد أعطبهم أو أتلفهم هذا الداء.

ويكون الحصاد بمصر في أوائل أبريل، والدراس في فترتين: إحداهما في أبريل أيضاً، والثانية في ماي، فلا تبقى أية حبة في البوادي قبل حلول العشرين من ماي.

يبدأ فيضان النيل في منتصف يونيو[16] ولا يدوم سوى أربعين يوماً. ومدة تراجعه أربعون يوماً كذلك[17]. وأثناء هذه الثمانين يوماً تكون جميع مدن مصر وقراها شبيهة بالجزر، لا يمكن الانتقال فيها من مدشر إلى آخر إلا بالزوارق. ويمكن حينئذ بكل سهولة أن يحمّل على الجرمات[18] العظيمة التي يستطيع بعضها حمل ستة آلاف أو سبعة آلاف كيل «مدجي» من الحبوب، بالإضافة إلى بضع مئات من الغنم.

ولا يمكن لهذه الجرمات أن تسير في النهر بمثل هذه الحمولة إلا إبّان فيضان النيل نزولاً مع مجرى المياه، ولا تكاد وهي فارغة تستطيع السير صعداً ضد تيار النهر. ويتوقّع المصريون بالضبط عند فيضان النيل ما يمكن أن يكون عليه ثمن القمح طوال السنة كلها، كما سأشرح ذلك عندما سأتعرّض لجزيرة النيل الواقعة تجاه المدينة القديمة بصدد مقياس النيل.

---

(16) في القاهرة.

(17) يستمر التراجع في الحقيقة إلى فَيضان السنة الموالية، لكن النهر يبدأ في النقصان بعد مدة يتفاوت طولها، والتقريب حوالي 26سبتمبر ــ أي 70 يوماً من ابتداء الفيضان ــ ثم يعود إلى مجراه في شهر نونبر.

(18) الجرمات: زوارق النيل، والواحدة جرمة.

وليس غرضي أن أحدّثكم عن جميع مدن مصر، لأن كتّابنا غير متّفقين عليها فيما بينهم. فلا يقبل بعضهم أن يضم جزء من مصر إلى افريقيا، بينما يرى البعض الآخر خلاف ذلك، ويؤكّد الكثيرون أن الجزء الموالي لصحارى بلاد البربر ونوميديا وليبيا تابع لافريقيا. وترى طائفة أخرى أن جميع الأماكن الواقعة على الفرع الرئيسي للنيل افريقية، وأن غير الواقعة عليه ليست بافريقية، كمَنْف والفَيُّوم وسمنّود، ودمنهور، وبرلس، وتِنّيس، ودمياط. وذلك هو أيضاً رأيي لعدة أسباب معقولة، ولذلك فإني لا أذكر سوى المدن الواقعة على الفرع الرئيسي للنهر.

مدينة بوصير

بوصير مدينة عتيقة بناها المصريون على ساحل البحر المتوسط، بعيدة بنحو عشرين ميلاً[19] غرب الاسكندرية. وكانت محاطة بأسوار متينة، وفيها دُور في غاية الجمال. وما زال حولها حتى الآن عدد من مغارس النخيل، لكن لا أحد يعتني بها، لأنه لما احتلّ المسلمون الاسكندرية ونهبوها، ترك السكان مدينتهم وهربوا مسرعين إلى المكان المسمّى بالبحيرة[20].

الاسكندرية، مدينة مصر الكبرى

أسّس مدينة الاسكندرية، كما هو معروف، الاسكندر ذو القرنين، بناها حسب تخطيطات مهندسين مشهورين ماهرين في موقع جميل على رأس داخل في البحر المتوسط، يبعد بأربعين ميلاً عن النيل إلى جهة الغرب.

---

(19) بل 40 ميلاً في الحقيقة على طريق محطة السكة الحديدية الحالية لباهيج وهي آثار تبوزيريس ماكنا.

(20) تسمى الآن بحيرة مريوط، من الاسم اليوناني القديم ماريوتيس. واحتلّ الاسكندرية ملك قبرص بيير الأول في 24 محرم 766/10 أكتوبر 1365.

وكانت الاسكندرية بدون شك أشرف المدن كلها لأهميتها وجمال قصورها ومنازلها، واحتفظت بشهرتها هذه زماناً طويلاً إلى أن سقطت في أيدي المسلمين[21].

ومنذ ذلك الحين أخذت أهمية الاسكندرية تقل على مر السنين، وفقدت شرفها القديم، لأنه لم يعد أي تاجر من اليونان أو أوربا يستطيع أن يتّجر فيها، فكادت تخلو من السكان. إلى أن جاء أحد خلفاء المسلمين الأذكياء، فزعم كذباً أن محمداً ﷺ خصّ في بعض أحاديثه بكثير من الفضائل أهل الاسكندرية، ومن يأتي إليها يوماً للرباط في سبيل الله، أو لبذل الصدقات. فلم يمض غير زمن يسير حتى عمّرها بالسكان وبالغرباء عن البلد وبأقوام من أجناس شتى جاؤوا لتحصيل تلك الفضائل، واتخذوا جميعاً مساكن لهم في أبراج السور، وبنوا مدارس لطلاب الآداب، وزوايا عديدة لمن أتى من النسّاك.

والمدينة مربّعة الشكل، لها أربعة أبواب: أحدها في الشرق جهة النيل، والآخر في الجنوب نحو البحيرة، والثالث في الغرب جهة صحراء برقة، والرابع نحو البحر حيث يوجد الميناء[22]. وفيه كان يقيم الحرس والماكسون الذين يفتشون الناس حتى في سراويلهم، لأن الدنانير نفسها حسب مكس هذه البلاد يؤدّى عنها قدر في المائة كما لو كانت سلعاً. ويوجد قرب الأسوار زيادة على ذلك بابان تصل بينهما محجة، وبرج حصين في مدخل مرسى يسمّى مرسى البرج ترسو فيه أجمل السفن وأهمها، كسفن

---

(21) في 28 شوال عام 21/29سبتمبر 642.

(22) كانت المدينة المسوّرة على شكل مستطيل، وكان باب البحرية شمالاً يفضي إلى المرسى القديم ــ أو المرسى الغربي ــ، وباب رشيد شرقاً في طريق النيل، وفي الجنوب الباب المسمّى عند المصريين باب السدرة وعند الأوربيين الفلفل في طريق بلاد البربر، والباب الرابع وهو أيضاً في الجنوب يؤدّي إلى المقبرة.

البندقية وجنوة وصقلية وغيرها من السفن الأوربيـة [23]. وتأتي عادة إلى الاسكندرية أيضاً سفن فلاندرا وانجلترا وبسكاي والبرتغال وسائر سواحل أوربـا، لكن أكثرها سفن إيطالية، لاسيما سفن اليُّوي وصقلية. وكذلك السفن اليونانية ــ أي التركية ــ التي تقصد كلها هذا المرسى لتحتمي فيه من القراصنة والعواصف. وهناك مرسى آخر يدعى مرسى السلسلة، ترسو فيه السفن الآتية من بلاد البربر وجربة وغيرها من البلدان.

وتوجد داخل المدينة ربوة عالية جداً تشبه ربوة «تستاتشيـو» في روما[24] يُعثر فيها على عدد من الأواني العتيقة، وهي في الواقع كومة مصطنعة[25]، في أعلاها بُريج يقيم فيه باستمرار رقيب يرقب السفن التي تمر، ويتقاضى أجراً عن كل سفينة أعلم بها موظفي المكس. وإذا نام أو ذهب للتفسّح وجاءت سفينة لم يعلم بها مستخدمي المكس حُكم عليه بغرامة تبلغ ضعف أجره وتُسلّم إلى بيت المال.

وجميع دُور الاسكندرية تقريباً مبنية على خزانات ماء محدَودبة مدعمة بأعمدة وأقواس يصل ماء النيل إليها. فعند الفيَضان يأتي الماء بواسطة قناة اصطناعية محفورة في السهل من النيل إلى الاسكندرية، ويدخل مارّاً تحت سور المدينة ليصب في الخزانات كما ذكرنا.

وفيما يتعلّق بموارد الاسكندرية، فإن المدينة تقع في وسط مفازة من الرمال، بحيث أنها لا تملك أرضاً زراعية ولا كروماً ولا حدائق. فالقمح

---

(23) لم يبق للمحجة وأبوابها أثر، أما البرج فقد بناه السلطان سيف الدين قايتباي الأشرف (1468 - 1496) في شبه الجزيرة، حيث كان المنار المشهور الذي دمّره نهائياً زلزال منتصف القرن الثامن الهجري/ 14 م.

(24) ربوة مكوّنة من الأنقاض، علوّها 35 متراً قرب نهر التبر جنوب رومة.

(25) كان في الاسكندرية آنذاك كومتان داخل المدينة، وكومة خارجها، تسمّى الداخليتان كومة الديمة ــ أي تحت الأرض (؟) ــ وكومة الديك، وتسمّى الخارجية كـومة الشقف ــ أي الخزف المكسور ــ. ويُفترض وجود الأشياء الأثرية في كومة الديمة.

يجلب إليها من مسافة أربعين ميلاً، ويوجد قرب القناة التي تحمل ماء النيل مزارع صغيرة للخضر، لكن منتجاتها مضرّة على الأصح، لأنه في الوقت الذي يأكلها الناس يصاب معظمهم بالحمّى وغيرها من الأمراض. وعلى بعد نحو ستة أميال غرب المدينة توجد بناءات عريقة في القِدَم، من بينها عمود في غاية الضخامة والارتفاع، يسمّى بالعربية عماد الصواري. وقد سطّر فعلاً في الكتب المتعلقة بعجائب الدنيا أن فيلسوفاً أيام الاسكندر يدعى بطليموس شيّده لتأمين المدينة من العدو[26]، وجعل في أعلاه مرآة كبيرة من الفولاذ، بحيث أن كل سفينة تمر بالقرب منها تحترق حالاً إذا كشفت المرآة. لكن هذه المرآة تلفت أيام دخول المسلمين إلى افريقيا، وتذكر الأسطورة أن سبب إتلافها يهودي فركها بالثوم[27].

ما زال يوجد من بين سكان الاسكندرية عدد كبير من أولائك المسيحيين الذين يُدعَون اليعاقبة. لهم كنيسة خاصة بهم أعيد بناؤ ها عدة مرات وبقيت إلى يومنا هذا. وقد دفن فيها رفات سان مارك الإنجيلي الذي اختطفه غدراً عام 829 م تجار من البندقية وحملوه إلى هذه المدينة. وهؤلاء اليعاقبة كلهم تجار وصنّاع يؤدّون الجزية إلى ملك القاهرة. ولا يفوتنا أن نذكر هنا داراً صغيرة قصيرة كأنها معبد، تقع بين الأنقاض في قلب المدينة وتشتمل على ضريح يقدّسه المسلمون ويعظّمونه، ويوقدون الأنوار حوله صباح مساء، يقال إنه قبر الاسكندر الكبير الذي كان نبيئاً وملكاً حسبما جاء في القرآن المنزل على محمد (عليه السلام)[28]. ويأتي عدد كثير من

---

(26) يقع هذا العمود في الحقيقة على بعد نصف ميل جنوب غرب باب السدرة. واسمه العربي يمكن أن يدل على صواري السفن أو الأعمدة أي السواري. ويبدو أنه شُيّد عام 392 م على شرف الامبراطور ديوكليسيان. ويدعى بالفرنسية عمود بومبي.

(27) كان ارتفاع عمود الصواري يبلغ 30 متراً، وقد خلط المؤلف في أسطورة المرآة الحارقة بين عمود الصواري ومنار الاسكندرية.

(28) جاء في الترجمة الفرنسية المنقول عنها عبارة «حماقة محمد» ولا نشك في أنها من إضافة رامزيو أو غيره من نقلة هذا الكتاب المتعصبين. ونشير إلى أن القرآن لم يذكر

الأجانب من كل فج عميق ليشهدوا هذا القبر ويتعبدوا فيه ويتركوا صدقات جسيمة.

وأكفّ عن ذكر أشياء أخرى كثيرة ومهمة حتى لا يتضخم حجم الكتاب فيصبح مملاً ومنفراً للقارىء.

أبوقيـــر

أبوقير مدينة صغيرة عتيقة مبنية على ساحل البحر المتوسط، بعيدة بنحو ثمانية أميال(29) شرق الاسكندرية. وهي الآن خربة، وما زال الكثير من آثار أسوارها باقياً، وفي موقعها مزارع نخيل يتغذّى من تمرها مساكين يسكنون أكواخاً منعزلة. ويشاهد برج على ساحل خطير يتحطم فيه عدد من السفن القادمة ليلاً من الشام، لأنها لا تحمل على متنها أحداً يعرف كيفية الدخول إلى مرسى الاسكندرية، فترتمي على الشاطىء بسبب الظلام. ولا يوجد حول هذا المكان سوى سهل رملي حتى النيل.

رشيد التي يسمّيها الإيطاليون روزيطو

رشيد مدينة تقع على النيل في الضفة الأسيوية، بعيدة عن المصب بثلاثة أميال(30)، بناها عبد لأحد الخلفاء كان نائباً عنه بمصر(31). فيها

الاسكندر وإنما ذكر ذا القرنين، واختلف المفسّرون في حقيقة أمره أهو الاسكندر المقدوني أم غيره من ملوك اليمن؟ والراجح عندهم أنه عبد صالح آتاه الله علمًا كثيراً، وملكاً كبيراً.

(29) في الواقع أكثر من 14 ميلاً.

(30) بل على الضفة اليسرى ـ الضفة الافريقية ـ على نحو 7 كلم. من البحر في ذلك العهد. وقد تضاعفت المسافة بسبب الطمي الذي يجرفه النيل.

(31) رشيد مدينة عتيقة، إلا أنه أعيد بناؤها عام 255/870 في حقبة أحمد بن طولون والي مصر المستقل، وكان أبوه عبداً لأحد الخلفاء.

دُور جميلة وقصور مشيّدة على ضفة النهر، وسوق كبير عامر بالصنّاع والتجّار، بالإضافة إلى مسجد في غاية الجمال، حسن المنظر، تفضي بعض أبوابه إلى السوق، وبعضها الآخر إلى النهر، حيث ينزل إليه بدرج عجيبة. ويوجد الميناء أمام المسجد. ومن عادتهم أن تجتمع فيه بعض الجرمات التي تحمل السلع إلى القاهرة.

إلا أن هذه المدينة غير مسوّرة، وهي أقرب إلى قرية كبيرة منها إلى مدينة. وتحيط بها عدة مصانع يخبط فيها الأرز بأدوات خاصة من خشب. وأظن أنه يُقشّر فيها ويُنقّى في كل شهر أكثر من ثلاثة آلاف كيل «مودجي» من الأرز. وفي خارج المدينة في شبه قرية عدد كثير من البغال والحمير يكتريها من يريد الذهاب إلى الاسكندرية. ومن اكترى واحداً منها، ليس عليه إلا أن يترك الدابة تسلك به أقصر السبل وتحمله إلى المنزل، ثم ليس عليه إلا أن يتركها. وهذه الدواب سريعة إلى حد أنها تقطع أربعين ميلاً فيما بين الصبح والعصر، متبعة دائمًا ساحل البحر، بحيث إن الأمواج تضرب أحياناً حوافرها.

وحول رشيد عدد من بساتين النخل وأراض صالحة لزراعة الأرز. والسكان أليفون ظرفاء مع الأجانب، يقضون معهم وقتاً ممتعاً عن طيب خاطر. وفي المدينة حمام جميل جداً مشتمل على عدد من سقايات الماء البارد والحار، لا يوجد حقاً مثله جمالاً وراحة في مصر كلها. كنت برشيد عندما مرَّ بها عظيم الترك سليم لدى عودته من الإسكندرية[32]. فأبى إلّا أن يرى هو وأقرب الناس إليه هذا الحمام، وأظهر سروراً كبيراً حصل له من ذلك.

مدينة أَنْثِيُوسْ

أنثيوس مدينة بناها الرومان على ضفة النيل الآسيوية. وتشاهد فيها حتى اليوم كتابات لاتينية عديدة على صفائح من المرمر. وهي مدينة

---

(32) في إحدى الجمادين 923 / يونيه 1517.

متحضرة يسكنها قوم يشتغلون بكل الصناعات، وباديتها غنية جداً بالأرز والقمح. ولها نخيل كثير، يمتاز أهلها بحلمهم وبشاشتهم، ومن عادتهم جميعاً أن يحملوا الأرز إلى القاهرة ويحصلوا على أرباح طائلة.

بَرِنْبَالْ

برنبال مدينة قديمة مشيدة على النيل في الضفة الآسيوية، أسست في العصر الذي تنصر فيه سكان مصر. وهي جميلة جداً يعمها الرخاء لا سيما الأرز. والذين يدرسونه أجانب معظمهم من بلاد البربر، يتقاضون أجراً أكثر من ثمن الأرز، ويعيشون حياة ماجنة، ولذلك تتوافد كل عاهرات مصر تقريباً على برنبال، يجلبهن هؤلاء الدراسون، بحيث إن هؤلاء العمال يكونون منهوكي القوى دائماً، وتتحول جميع أرباحهم إلى هؤلاء النساء.

مدينة طِيبَة

مدينة أزلية مشيدة على النيل في ضفة بلاد البربر. يختلف المؤرخون فيما يخص مؤسسيها: فيدعي بعضهم أنهم المصريون، ويرى البعض الآخر أنهم الرومان، ويقول غيرهم إنهم الإغريق. وتوجد فيها فعلاً حتى الآن عدة كتابات بالحروف اللاتينية واليونانية والمصرية. ولا تزيد كوانينها اليوم على ثلاثمائة، لكنها مزدانة بدور جميلة. ويكثر فيها القمح والأرز والسكر، وذلك النوع من الفاكهة المسمى بالموز، وهو جيد. وفيها بعض التجار والصناع، لكن معظم السكان فلاحون. وعندما يتجول الإنسان في المدينة نهاراً لا يشاهد إلّا النساء اللواتي لا يقل لطفهن عن جمالهن. ومزارع النخيل كثيفة حول المدينة، بحيث لا يبصرها القادم إلّا عندما يصل إلى قرب الأسوار، وهناك أيضاً عدد كثير من أشجار العنب والتين والخوخ، تُحمل من ثمارها إلى القاهرة كمية عظيمة.

وما زالت باقية خارج المدينة آثار عديدة لبناءات عتيقة، من أعمدة ونقوش وجدران مبنية بالحجر المنحوت الضخم. ونظراً لأهمية أنقاضها يمكن التقدير بأنها كانت حاضرة كبيرة جداً[33].

مدينة فُوَّة

مدينة قديمة بناها المصريون على الضفة الآسيوية للنيل، بعيدة بنحو خمسة وأربعين ميلاً جنوب رشيد. وهي كثيرة السكان، متحضرة ومزدهرة جداً. وللتجار والصناع فيها دكاكين جميلة، لكن أزقة السوق ضيقة. يحب السكان الهناء والحبور، وللنساء الحرية المطلقة بحيث إنهن يقضين النهار حيث طاب لهن، ويعدن مساء إلى منازلهن دون أن يسألهن أزواجهن عن أي شيء.

وفي خارج المدينة حارة ـ أو ربض على الأصح ـ حيث تسكن العاهرات اللائي يشكلن جزءاً هاماً من السكان. ومغارس النخيل حول فوة كثيرة جداً. والتربة صالحة لقصب السكر وللقمح أيضاً، لكن القصب الذي ينبت في هذه الأرض يعطي السكر الجيد. ويستخرج بدلاً منه نوع من العسل يشبه الدبس يستهلك في مصر كلها لعدم وجود العسل فيها.

جزيرة الذَّهَب

تقع هذه الجزيرة مباشرة تجاه فُوة في وسط النيل[34]، وأرضها مرتفعة بحيث توجد فيها جميع أنواع الأشجار المثمرة، ماعدا شجر

(33) لم يكن يعرف في عصر المؤلف موقع مدينة طيبس الشهيرة، لكن هذا الوصف لا ينطبق على أية بلدة في الضفة اليسرى لفرع النيل هذا. أما في الضفة اليمنى التي يسميها المؤلف آسيوية فتقع قرية مطوبي، مطوبيس اللتين يقترب اسمهما من اسم طيبس، والأنقاض العتيقة الوحيدة غير الهامة لسايس على عالية مطوبيس.

(34) إن النيل في الحقيقة ينحرف نحو الغرب قبل وصوله إلى فوة ويفصل نحو الشمال فرعاً صغيراً يحيط في الضفة اليمنى قبل فوة بقطعة من الأرض مكوناً هكذا جزيرة.

الزيتون. وتحتوي على ضيعات عديدة وقصور جميلة[35]، إلّا أنه لا يمكن رؤيتها بسبب كثافة النخيل وغيره من الأشجار. أرضها صالحة لقصب السكر والأرز. ويشتغل جميع السكان في زراعة الأرض أو حمل بضائعهم إلى القاهرة.

المَحَلّة

المحلة[36] مدينة بناها المسلمون على النيل في الضفة الآسيوية. سورها رديء، وهي عامرة جداً، لكن سكانها في معظمهم نساجون أو زراع، يملكون كمية عظيمة من الإوزّ يبيعونها في القاهرة، والتربة المحيطة بالمدينة صالحة للقمح والكتان، ويقل الأدب والأنس عند أهل المحلة.

مدينة دَيْرُوط

ديروط مدينة عريقة بناها الرومان في الضفة الافريقية للنيل. وهي غير مسورة، وعامرة جداً ومزدانة بالدور الجميلة المتقنة البناء، أرباضها كبيرة مليئة بالدكاكين الجميلة، وفيها أيضاً مسجد جميل. وسكانها أغنياء جداً لأنهم يملكون كثيراً من مزارع قصب السكر، وتدفع الجماعة نحو مائة ألف (دينار) أشرفي سنوياً للسلطان عن صناعة السكر. وفي ديروط مصنع كبير جداً يشبه القصر توجد فيه المعاصر والمراجل لاستخراج السكر وطبخه، ولم أر قط في أي مكان آخر مثل هذا العدد من العمال المستخدمين في هذه الصناعة. وسمعت من أحد موظفي الجماعة أنه ينفق يومياً نحو مائتي (دينار) أشرفي على هؤلاء العمال.

---

(35) كانت قبل بضع سنوات ملكاً شخصياً لأولى زوجات السلطان الغوري.

(36) توجد بمصر مدن عديدة يسمى كل منها المحلة، وقد فصل الكلام فيها ياقوت في معجم البلدان، ج 7 : ص 397.

مَحَلَّةُ قَيْس

مدينة حديثة شيدت في العصر الإسلامي على الضفة الافريقية للنيل فوق تل مرتفع. وجميع الأراضي الزراعية عالية بحيث إن المزارع عبارة عن كروم، لأن النيل لا يستطيع أن يدركها عند فيضانه. وتزود هذه المدينة القاهرة بالعنب الطري طوال نصف موسمه. وهذه البلدة متحضرة قليلاً، وجميع سكانها تقريباً ملاحون، لأنهم لا يملكون إلّا القليل من الأراضي الزراعية[37].

* * *

(37) ذكر ياقوت في معجم البلدان، ج 7 : ص 196 أن قيسا قرية بمصر في غربي النيل بعد الجيزة، سميت بذلك لأن فتحها كان على يد قيس بن الحارث المرادي.

مدينة القاهرة العظمى العجيبة

من المشهور المؤكد أن القاهرة إحدى كبريات مدن العالم العجيبة، وسأصف لكم بالتفاصيل مظهرها وموقعها، تاركاً جانباً كل الأكاذيب التي تذاع عنها هنا وهناك.

فلنبدأ باسمها. فالقاهرة كلمة عربية لكنها محرفة في اللغات الأوربية، ومعناها: التي تقهر[38]، ومؤسسها في العصور الحديثة عبد من الصقالبة يدعى جوهر الكاتب، كما أظن أنني ذكرته في القسم الأول من هذا الكتاب[39].

والواقع أن المدينة ــ أعني المدينة المسورة ــ تضم نحو ثمانية آلاف كانون. وفيها تسكن الأسر الكريمة، وتتدفق الثروات الواردة من كل جهة، ويوجد المسجد الجامع الشهير المعروف بجامع الأزهر، أي اللاّمع.

تقوم المدينة في سهل عند قدم جبل يسمى المقطم، على بعد نحو

---

(38) تقول الرواية التقليدية إنه أطلق هذا الاسم على المدينة لأنها بنيت عند طالع كوكب مارس ــ القاهر بالعربية ــ لأن الكوكب مارس كان ماراً عندما شرع في بناء سورها.

(39) بدأ هذا التأسيس حسب المقريزي يوم السبت 23 جمادى الثانية عام 359 هـ/ 30 أبريل 970 م.

ميلين من النيل، وتحدق بها أسوار جميلة متينة ذات أبواب بديعة مصفحة بالحديد، أشهرها ثلاثة: واحد يسمى باب النصر في الجهة الشرقية باتجاه الصحراء التي يقطعها الذاهب إلى البحر الأحمر، وآخر يدعى باب زويلة[40] يفضي إلى النيل وإلى المدينة القديمة، وثالث يعرف بباب الفتوح ويؤدي إلى بركة كان يجتمع فيها الحجيج قبل ذهابهم في القافلة، وإلى الممتلكات المزروعة.

وفي المدينة عدد كثير من الصناع والتجار، يقيمون بالأخص في زقاق يمتد من باب النصر إلى باب زويلة. وهناك يوجد معظم نبلاء القاهرة، وعدد من المدارس التي تثير الإعجاب بأبعادها وحسن بنائها وزخرفتها، وكذلك عدد من المساجد المنسجمة البديعة، منها جامع الحاكم ثالث الخلفاء الشيعيين الذين تولوا الحكم بالقاهرة[41]. وهناك أيضاً عدد لا يحصى من المساجد الأخرى المعروفة، لكن لا حاجة إلى ذكرها واحداً واحداً، بالإضافة إلى عدة حمامات مبنية بفن معماري عظيم.

ويضم حي يسمى بين القصرين دكاكين يباع فيها اللحم الناضج، وهي نحو ستين دكاناً، كلها مجهزة بأوان من قصدير، وتباع في أخرى مياه مصنوعة من جميع أنواع الأزهار، مذاقها رفيع جداً، ولذلك يشرب منها جميع النبلاء، ويحفظها الباعة في قوارير جميلة جداً من الزجاج أو القصدير مصنوعة بشكل فني. وتأتي بعدها دكاكين أخرى تباع فيها حلويات معروضة بطريقة مسنة، ومختلفة عما يباع عادة في أوربا، وهي نوعان، نوع بالعسل وآخر بالسكر. ثم يأتي الفاكهانيون الذين يبيعون الفواكه المجلوبة من الشام، كالإجاص والسفرجل والرمان، إلخ... مما لا ينبت

---

(40) سمي باسم جنود جيش جوهر الآتين من زويلة ربض المهدية بتونس.

(41) تولى الحُكمَ الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله المنصور من عام 386 إلى 1020-996/411 . وجامع الحاكم اليوم خراب.

في مصر. وبين هذه الدكاكين دكاكين أخرى مبعثرة تباع فيها الفطائر والبيض المقلي والجبن المقلي. وقرب هذه الدكاكين حي يسكنه الصناع الذين يزاولون مختلف المهن الشريفة. وبعيداً من هناك توجد المدرسة الجديدة التي بناها السلطان الغوري الذي هلك في الحرب ضد سليم امبراطور الترك[42]. وبعد هذه المدرسة تأتي فنادق القماش، ويضم كل فندق كمية كبيرة من الدكاكين. تباع في الفندق الأول منسوجات أجنبية من الطراز الأول، كقماش بعلبك الذي هو من القطن المتناهي في الدقة، وقماش الموصل ـ أي نينوى ـ[43] الذي يدهش بدقته وصلابته، ويتخذ منه جميع الشخصيات والأعيان قمصانهم والغطاء والخمار الذي يضعونه على العمامة. ثم تأتي الفنادق التي يباع فيها أجمل قماش ايطاليا، مثل الطلس الدمقسي، والمخمل، و(طفطة) الخَزّ الصقيل، والديباج. وأستطيع أن أؤكد أنني لم أر مثلها في ايطاليا حيث تصنع.

وبعيداً من هناك توجد فنادق الثياب الصوفية المستوردة كذلك من جميع بلاد أوربا، كأجواخ البندقية وميورقة، وأجواخ (المرش) الايطالية. وتباع بعيداً من هناك أيضاً الشملات الخ...[44] ونصل شيئاً فشيئاً إلى باب زويلة لنجد كذلك عدداً لا يحصى من الصناع، وقرب هذا الزقاق فندق يسمى خان الخليلي حيث يقيم التجار الفرس. ويشبه هذا الفندق قصر أمير كبير: فهو مرتفع كثيراً متين البنيان، له ثلاث طبقات، في الطابق الأرضي حجرات يقتبل فيها التجار زبناءهم ويتجرون في السلع الثمينة.

---

(42) كان السلطان الأشرف قانصوه الغوري قد أمر ببناء مدرسة تمت عام 1503/908 وبجانبها قبره الذي تم في السنة الموالية، ويعدّان من أجمل بنايات القاهرة، وقد هلك في 26 رجب 25/922 غشت 1516 في معركة مرج دابق قرب حلب إثر سقوطه عن فرسه ولم يعثر على جثته.

(43) ذلك لأن نينوى قريبة من الموصل.

(44) منسوجات من شعر نوع خاص من الماعز تربى خصوصاً في قونيا بآسيا الصغرى. وكان هذا الشعر ناصع البياض ناعمًا كالخز.

ولا يملك في هذا الفندق مستودعات إلّا التجار الذين لهم موارد عظيمة. وتشتمل سلعهم على التوابل والأحجار الكريمة ومنسوجات الهند كالكريب إلخ. . .

وفي الجانب الآخر من الزقاق الرئيسي حي يقيم فيه بائعو العطور كالزباد والمسك والعنبر وصمغ جاوة. وهذه المواد كثيرة حتى إنه إذا أراد أحد أن يشتري من تاجر أوقية من المسك عرض عليه مائة رطل، وهذا شيء مدهش. وعلى جانب من هذا الزقاق الرئيسي ما يُفضي إلى حي يباع فيه الورق الجميل الصقيل. والتجار الذين يبيعون هذا الورق يبيعون أيضاً الأحجار الكريمة، يحملها دلال من دكان إلى دكان معلناً الثمن للمزاد.

وعلى نفس الزقاق ما يفضي إلى حي الصاغة، وهم يهود تمرُّ بين أيديهم ثروات عظيمة، ويقيم في حي آخر تجار يبيعون بالتقسيط كمية وافرة من المنسوجات الفاخرة التي استلموها من أهل المدينة ومن الأعيان. وليست هذه المنسوجات قباءات ولا سترات ولا خمارات، بل هي قطع عجيبة ذات قيمة فائقة. وقد شاهدت من جملتها هناك زينة خباء أو شبكة صيد سوداء مخيطة بالإبرة، مغطاة كلها بشبكة من الجواهر. قال لي البائع إن الجواهر تزن خمسة وأربعين رطلاً مصرياً، وبيعت الزينة وحدها بدون الجواهر بعشرة آلاف (دينار) أشرفي. ورأيت في هذه الدكاكين عدة أشياء أخرى بأثمان مماثلة.

وفي القاهرة بيمارستان كبير بناه بيبرس أول سلطان من المماليك(45)، له دخل يبلغ مائتي ألف (دينار) أشرفي، وهو مفتوح للجميع، يجد فيه المريض كل التسهيلات والعلاجات الطبية، وجميع

---

(45) ليس بيبرس، سلطان المماليك الرابع، هو الذي أسس هذا البيمارستان، بل السلطان السابع منهم المنصور سيف الدين قلاوون الذي حكم من عام 677 إلى 1279/690 إلى 1290 . وقد أنهى البناء ولده عام 1293/692 . واضمحل البيمارستان، لكن بقي الجامع والمدرسة تحت اسم جامع ومدرسة قلاوون.

ما يحتاج إليه حتى الشفاء. لكن إذا مات فيه أحد آلت جميع أمواله إلى البيمارستان.

الرَّبَضُ المعروف بباب زْويلَة

وهو ربض كبير جداً يضم نحو اثني عشر ألف كانون، يبتدىء عند باب زويلة، ويمتد غرباً على مسافة ميل تقريباً، وجنوباً إلى قلعة السلطان، وشمالاً إلى الربض المعروف بباب اللوق[46]. وسكان ربض باب زويلة هذا من الطبقة الراقية كأهل المدينة. وللكثير منهم دكان في الربض ومسكن في المدينة أو عكس ذلك. ويشتمل الربض على عدد من المساجد والزوايا والمدارس، وبالأخص المدرسة الشهيرة التي أسسها السلطان حسن. وهي عالية القباب متينة البنيان بشكل عجيب، حتى إنه إذا حدث أن ثار سلطان على سلطان آخر، فان الذي لا يحتل القلعة إذا عمل بحذق على الاستيلاء على المدرسة تحصن فيها وهاجم منها القلعة التي فيها السلطان الآخر، لأن المدرسة لا تبعد عنها بأكثر من نصف مرمى بندقية[47].

الرَّبَضُ المعروف بجامع طُولُون

هو ربض آخر يتاخم السابق شرقاً، ويمتد غرباً إلى الخرائب المجاورة للمدينة القديمة. وهذا الربض بناه قبل أن تبنى القاهرة المدعو طولون، وهو مولى لأحد خلفاء بغداد ونائبه بمصر. كان رجلاً حكيمًا حذراً، ترك المدينة القديمة وأقام في هذا الربض، وبنى فيه قصراً فخمًا عظيمًا، وجامعاً لا يقل

---

(46) كان هذا الربض في الجانب الغرب ــ شمال ــ غربي، بين باب زويلة والنيل.

(47) هذا البناء من أجمل بناءات القاهرة بل العالم، شيده السلطان الناصر سيف الدين حسن (حكم مرتين من عام 748 إلى 752/1347-1351 . ثم من عام 755 إلى 762/1354-1361) تماماً في نفس الوقت الذي شيدت فيه ثانية جوهرة الفن المعماري وهي المدرسة البوعنانية بفاس.

عنه فخامة. وفي هذا الربض عدد كثير جداً من الصناع والتجار، لا سيما من بلاد البربر.

رَبَضُ باب اللُّوق

هو أيضاً ربض كبير على بعد نحو ميل من سور القاهرة، ويضم نحو ثلاثة آلاف كانون، وسكانه صناع وتجار من كل صنف. فيه ساحة كبيرة يوجد بها قصر فسيح ومدرسة عجيبة بناهما مملوك اسمه يزبك، كان فيما مضى مستشاراً لأحد السلاطين، وسميت الساحة من أجل ذلك الأزبكية(48). يجتمع فيها عادة جميع سكان القاهرة كل يوم جمعة بعد الصلاة والخطبة، لأنهم يجدون في ذلك الربض بعض المسليات القبيحة كالحانات والعاهرات. ويتجمع أيضاً في هذه الساحة عدد كبير من البهلوانيين، وبالأخص من يرقصون الإبل والحمير والكلاب، وهو منظر ممتع حقاً.

واليكم مثلاً مشهد الحمار: فبعد أن يرقص البهلواني حماره قليلاً يخاطبه مبيناً له أن السلطان يعتزم القيام ببناء كبير واستخدام جميع حمر القاهرة لحمل الجير والحجر وكل الضروريات. فيسقط الحمار حيناً على الأرض وينقلب رافعاً قوائمه في الهواء، نافخاً بطنه مغمضاً عينيه كأنه ميت. فيأخذ المهرج أمام المشاهدين في التفجيع على فقدان حماره طالباً منهم المساعدة لشراء حمار آخر. وبعد جمع التبرعات يتابع قائلاً: «لا تظنوا أن حماري مات! فالشره يعرف فقر مولاه، فيتماوت لأشتري له علفاً بما أعطيته». ثم يلتفت إلى الحمار ويطلب منه أن يقف، لكنه لا يتململ ولا

(48) هي ساحة الأزبكية الشهيرة التي تحتلها الآن البساتين، وهي مركز القاهرة الحديث. كان الأمير يزبك قائداً رئيسياً للسلطان الأشرف سيف الدين قايت باي. وقد اضمحلت البنايات المذكورة. أما الجامع المدرسي المشيد عام 1496/901 فكان جديداً تقريباً أيام المؤلف.

يبدي أدنى حراك رغم ما ينهال عليه من ضربات العصا. فيستأنف الرجل كلامه المنمق قائلاً: «سادتي، ليكن في علمكم أن السلطان أصدر المرسوم الآتي: على جميع سكان القاهرة أن يخرجوا غداً لحضور دخوله المظفر. ويأمر جميع نساء الطبقة العليا وكل حسناوات القاهرة أن يركبن حميراً جميلة ويطعمنها شعيراً ويسقينها من ماء النيل العذب!». ما كاد المهرج يفوه بهذه الكلمات حتى قفز الحمار على قوائمه متصنعاً الزهو متظاهراً بالسرور والبشر، ويتابع المضحك قائلاً: «حقاً إن رئيس الحي طلب مني أن أعيره حيواني الظريف لامرأته العجوز الشمطاء» وحينئذ يغض الحمار طرفه وكأنه ذو ذكاء إنساني، ويأخذ في المشي متصنعاً العرج كما لو كان كسيحاً، فيقول له سيده: «إذن تعجبك الشابات؟» فيطرق الحمار رأسه وكأنه يجيب بنعم. فيتابع المهرج قائلاً له: «هيا! هنا الكثير من الشابات. فأرنا من أعجبتك أكثر!» فيدور الحمار مسرعاً حول حلقة المشاهدين، ويوجد من بينهم دائماً بعض النساء المتفرجات، فيختار أحسنهن ويتوجه نحوها ويلمسها برأسه فيصيح الجمهور على الفور: «إيه! يا ذات الحمار!» استهزاء بالمرأة. ثم يقفز مضحكنا على حماره ويمضي إلى مكان آخر.

وهناك نوع آخر من البهلوانيين لهم طويرات صغيرة مربوطة إلى علبة على شكل خوان، تستخرج منها هذه الطويرات بمنقارها رقعاً كتب فيها فأل حسن أو قبيح. وعلى من يرغبون في معرفة مستقبلهم أن يضعوا فلساً «كواطرينو» واحداً أمام الطوير. فيأخذه بمنقاره ويضعه في العلبة ثم يعود وفي منقاره الرقعة المكتوب عليها الجواب. وحدث لي شخصياً أن استلمت رقعة شؤم لم أعرها أي اهتمام، غير أن ما حدث لي كان أسوأ مما كان مكتوباً فيها[49].

---

(49) لعله يشير إلى أسره من طرف القراصنة المسيحيين.

ويشاهد أيضاً في ساحة الأزبكية ضاربون بالسيف والعصا، ومصارعون. . . إلخ، وأشخاص آخرون يتغنون بالوقائع بين العرب والمصريين أثناء فتح مصر. فما يقال ويعمل هناك من حماقات وفكاهات وكلام بذيء، كل ذلك لا يدخل تحت عدٍّ ويسلّي الناس، لكنه يتعذر ذكر كل ذلك في مؤلَّف كهذا.

الرَّبَض المعروف بِبُولاَق

بولاق ربض كبير جداً بعيد بنحو ميلين عن المدينة المسورة، لكن توجد على طول الطريق المؤدية إليه بيوت وطاحونات تديرها الدواب. وهذا الربض القديم جداً مشيد على ضفة النيل، وفيه نحو أربعة آلاف كانون. يضم عدداً كثيراً من الصناع والتجار خصوصاً منهم بائعي الحبوب والزيت والسكر.

وفي هذا الربض أيضاً بنايات حسنة من مساجد ومنازل ومدارس للطلبة. والدور المبنية على ضفة النيل بالأخص جميلة جداً، ويتمتع الناظر من نوافذها برؤية السفن الآتية عن طريق النيل إلى مرسى القاهرة الواقع في هذا الربض، وترسو فيه أحياناً قرابة ألف زورق، لا سيما في إبان الحصاد. وهناك يقيم المكاسون الذين يراقبون السلع الواردة من الإسكندرية أو دمياط. إلاّ أن الضرائب التي تؤدى عن هذه السلع خفيفة، إذ سبق أن أدى عليها أصحابها رسوم المكس لدى إرسائها في الشاطىء. ولا تؤدى الضريبة بأتمها إلاّ عن البضائع الوافدة من مصر لا غير.

رَبَضُ الْقَرَافَة

القرافة[50] ربض بشكل مدينة صغيرة، على مسافة رمية حجر من الجبل ونحو ميلين من أسوار المدينة، وفيه نحو ألفي كانون. كان قديماً

---

(50) القرافة اسم قبيلة عربية خيمت في سفح جبل المقطم ابان فتح مصر. وقد أطلق على مقبرة القاهرة.

عامراً أكثر مما هو عليه في الوقت الحاضر، إذ يكاد يكون خرباً. وفيه عدة أضرحة لأشخاص يعتقد العامة لحماقتهم أنهم أولياء. وهي أبنية شاهقة ذات قباب بهية، مزخرفة من داخل بنحوت متنوعة وألوان مختلفة، أرضها مفروشة بأرفع الزرابي، وجدرانها مكسوة بالسجف. يأتي كثير من أهل القاهرة وضواحيها صباح كل يوم جمعة لزيارة هذه الأضرحة تبركاً، ويتصدقون فيها كثيراً.

المدينة القديمة المعروفة بمصر العتيقة

هي أول مدينة بنيت بمصر في عصر المسلمين[51] أسسها عمرو (بن العاص) قائد عمر ثاني الخلفاء الراشدين، وبناها على ضفة النيل. وليست مسورة، لكنها على شكل ربض كبير يمتد على طول النيل. وفيها عدة قصور جميلة عالية، لا سيما القصور الواقعة على ضفة النهر؛ وجامع عجيب هو جامع عمرو المدهش بجماله وكبره واتقانه. وفيها كذلك ما يكفي من الصناع من مختلف الحرف.

وهناك يوجد ضريح السيدة الصالحة نفيسة[52] التي يجلها المسلمون كثيراً. وهي ابنة زين العابدين بن علي ابن عم محمد (صلعم). ولما رأت هذه السيدة أن أهلها الأقربين حرموا أسرتها من الخلافة استولى عليها اليأس وغادرت الكوفة ببلاد العرب وجاءت لتسكن هذه المدينة. ويعتبرها الشعب المصري من الصالحات لانتسابها إلى بيت محمد (صلعم)، ولتقواها ونسكها. ولذلك شيد عليها في عهد الخلفاء الشيعيين أقربائها ضريح

---

(51) كانت بابليون موجودة قبل الإسلام بثمانية قرون أو تسعة، وربما كان مؤسسوها هم قوم جاؤ وا من بابليون التي على شاطىء الفرات. وقد فتح عمرو بن العاص حصن بابليون عام 20 هـ ثم بنى مدينة الفسطاط بجواره في نفس السنة، فعمرت الفسطاط وخلا حصن بابليون ومدينة منف حاضرة مصر القديمة.

(52) يوجد ضريح السيدة نفيسة بأحد أبواب القرافة.

حافل مزدان اليوم بزرابي الحرير ومصابيح الفضة. . . إلخ. وبلغ من بعد صيت السيدة نفيسة أن كل مسلم، تاجراً كان أو غيره، وفد على القاهرة براً أو بحراً إلّا زار قبرها. ويقدم كل واحد منهم الهدايا، كذلك يفعل جميع سكان الضواحي، حتى أصبحت الصدقات السنوية تصل إلى مائة ألف (دينار) أشرفي، توزع بين فقراء آل محمد (صلعم) ومن يتولى خدمة الضريح وصيانته. ويحاول هؤلاء، اعتماداً على الكرامات المزعومة المنسوبة إلى هذه السيدة، أن يشحذوا حماسة البسطاء ليحملوهم على مزيد من الاعتقاد والسخاء لفائدتهم. ولما دخل عظيم الترك سليم إلى القاهرة نهب الانكشارية الضريح ووجدوا فيه خمسمائة ألف (دينار) أشرفي نقداً، فضلاً عن المصابيح والسلاسل الفضية والزرابي. حقاً إن سليمًا أمر بإعادة قسط كبير من هذه الذخائر إلى الضريح. ولم يتعرض مؤلفو كتب تراجم الأولياء المسلمين إلى ذكر السيدة نفيسة إلّا قليلاً، قائلين إنها كانت امرأة شريفة عفيفة من آل علي. لكن الجمهور لسذاجته يعتقد عدة كرامات، وهذه الكرامات هي سبب ثروة هذا الضريح[53].

وفي عالية هذا الربض على النيل يوجد المكس الخاص بالسلع الواردة من الصعيد.

* * *

وفي خارج الحاضرة المسورة أضرحة السلاطين. وهي جميلة فخمة، متقنة الصنع شامخة البنيان، ذات قباب كبيرة. وقد فتح أحد السلاطين في عهد قريب محجة بين جدارين عاليين، تبتدىء عند أحد أبواب المدينة وتسير حتى مكان الأضرحة. وفي طرف هذين الجدارين برجان عاليان يقيم فيهما الحرس الذي يرقب ورود السلع الآتية من جبل سيناء[54].

---

(53) وصف هذا الضريح ـ في الترجمة الفرنسية المنقول عنها ـ بلعين أو كريه، وهو بلا شك تحريف أو اقحام من طرف نقلة متعصبين، لأن سياق المؤلف يأباه.

(54) تلك الأضرحة هي التي تسمى اليوم خطأ أضرحة الخلفاء، ويبدو وأنها كانت في الموقع الذي شيد فيه خان الخليلي. وقد اضمحلت. وكذلك المحجة المذكورة. ومن =

وعلى بعد نحو ميل من هذه الأضرحة توجد الأراضي الزراعية المعروفة بالمطريَّة، حيث يوجد بستان الشجرة الوحيدة التي تنتج البلسم، إذ لا يوجد في العالم كله شجرة سواها. وهي مغروسة في وسط عين ماء تشبه بئراً، وليست كبيرة جداً، وتشبه أوراقها أوراق الكرم إلا أنها أصغر منها. وحسب ما سمعته فإنه إذا نقص ماء العين مثلاً جف النبات حالاً، ويكون الأمر أسوأ لو سقي بماء آخر. وهذه من عجائب الطبيعة. والبستان الذي تقع فيه هذه الشجرة مسور تماماً بأسوار متينة، ولا يمكن الدخول إليه إلا بمراعاة فائقة أو ببعض هدايا تعطى للحارس[55].

وفي وسط النيل تجاه المدينة القديمة جزيرة تسمى المقياس، لأن فيها الآلة التي تقيس فيضان النيل[56]. فالخصب أو المحل اللذان سيسود أحدهما مصر منوطان بالفيضان. وهي تجربة لا تخطىء توصل إليها قدماء المصريين.

هذه الجزيرة عامرة جداً بالسكان، تضم نحو ألف وخمسمائة كانون. وفي طرفها قصر كبير شيده سلطان عاش في أيامنا هذه، وجامع فسيح رائق المنظر لموقعه على ضفة النهر. وبجانب هذا الجامع بناء صغير منعزل ومغلق، أقيمت في وسطه تحت غطاء حفرة مربعة عمقها ثمانية عشر ذراعاً[57]. وعلى جانب هذه الحفرة تفتح قناة تحت الأرض تطابق مجرى النيل. وفي وسط الحفرة عمود مدرج ومرقم حسب عدد أذرع عمق الحفرة، أي ثمانية عشر ذراعاً. وعندما يبدأ فيضان النيل يدخل الماء في

= المحتمل أن أحد البرجين هو برج الظفر الباقية أطلاله ومرسى سيناء هو القلزم الذي قضى عليه مرسى السويس.

(55) هذا البستان أصبح الآن بستاناً خاملاً يزوره السواح، بعد أن كان من أقدس أماكن العالم.

(56) تسمى هذه الجزيرة في الحقيقة الروضة، وفي طرفها مقياس النيل.

(57) في الحقيقة 17 ذراعاً.

القناة ويصل إلى الحفرة فيرتفع يوماً بقدر أصبعين، ويوماً بثلاثة، ويوماً آخر بنصف ذراع، ويأتي كل يوم أشخاص مختصون لهذه الخدمة لمراقبة ارتفاع الفيضان على هذا العمود. ويطلعون على ذلك أطفالاً معممين بمنديل أصفر ليعرفوا، وهؤلاء الأطفال مكلفون بإعلان ارتفاع فيضان النيل في القاهرة كلها وفي الأرباض، ويتوصلون من أجل ذلك بهدايا من جميع الصناع والتجار والنساء إلى نهاية الفيضان. وتثبت التجربة أن السنة ستكون حسنة إذا بلغ الفيضان خمسة عشر ذراعاً على العمود، وهزيلة إذا لم يبلغ غير اثني عشر إلى خمسة عشر ذراعاً. وإذا كان الارتفاع ما بين عشرة واثني عشر ذراعاً فإن سعر القمح سيكون عشرة مثاقيل لكيل (مود جيو). لكن إذا بلغ الارتفاع ثمانية عشر ذراعاً فإن جميع الدكاكين المسكونة ستتعرض لخطر غمر المياه، وعلى المكلفين بالمقياس أن يشعروا السكان بذلك. وينطلق الأطفال في الأزقة صارخين: «أيها الناس، اتقوا الله من جبل إلى جبل!». ومعناه أن الماء يأتي من جبل إحدى ضفتي النيل إلى جبل الضفة الأخرى. فيفرغ السكان ويشرعون في إقامة الصلوات وإيتاء الصدقات.

وهكذا يستمر ارتفاع النيل أربعين يوماً، وتناقصه في نفس المدة. وطوال هذه الفترة لحركة المياه يلاحظ نقص في الأقوات، فيكون لكل واحد الحق في أن يبيع الخبز بالثمن الذي يريده، إلا أن ذلك يتم بشيء من التستر. وبعد ثمانين يوماً يسعر المحتسب ثمن المواد الغذائية لا سيما الخبز. ويقع هذا التسعير مرة واحدة في السنة، لأن الموظفين يعرفون حسب فيضان النيل المناطق التي ستسقى جيداً والتي ستسقى بإفراط والتي ستسقى سقياً ناقصاً حسب مستوى الأراضي الزراعية. وبحدّد سعر القمح بناء على هذه المعطيات. وتقام بالقاهرة حفلة كبرى في الأيام الأولى لفيضان النيل، يرتفع أثناءها ضجيج الصراخ والموسيقى حتى لكأن المدينة تنقلب رأساً عن عقب. تأخذ كل أسرة زورقاً تزينه بأرفع القماش وأزهى الزرابي

وتتزود بكمية وافرة من المؤن والحلويات ومشاعل من الشمع جميلة جداً. ويكون جميع السكان في الزوارق يتسلون حسب إمكاناتهم. ويشارك السلطان نفسه في الاحتفال مع أمرائه الكبار وضباطه. فيذهب إلى قناة مسوّرة تدعى القناة الكبرى[58]، وهناك يتناول شاقوراً ويشرع في هدم الجدار، ويفعل كبار الشخصيات فعله حتى يتهدم جزء الجدار الذي كان يمنع وصول الماء. فيتدفق النيل حالاً في القناة بقوة كبيرة وينتشر من هناك في باقي القنوات بالضواحي والمدينة المسورة، بحيث إن القاهرة تكون ذلك اليوم شبيهة بالبندقية، فيمكن الذهاب بالزوارق إلى جميع الأماكن المسكونة وكل أطراف مصر. ويستمر الاحتفال سبعة أيام وسبع ليال، بحيث إن التاجر أو الصانع ينفق كل ما ربحه أثناء السنة في هذا الاسبوع على الطعام والحلويات والمشاعل والعطور والمغنين. وهذا الحفل من بقايا حفلات قدماء المصريين[59].

وفي خارج القاهرة قرب ربض باب زويلة توجد قلعة السلطان المشيدة على رأس جبل المقطم. أسوارها شاهقة متينة. وتكتنفها قصور بديعة يعجز القول عن وصفها، وهي مفروشة بقطع من المرمر مختلفة الألوان منسقة بكيفية عجيبة، وسقوفها كلها مكسوة بالذهب وأحسن الألوان، ونوافذها مزدانة بالزجاج الملون مثل ما يشاهد في بعض أماكن أوربا. وأبوابها الخشبية منقوشة بفن رائع مزدانة بالألوان مموهة بالذهب. وكانت هذه القصور مخصصة إما لأسرة السلطان نفسها، أو لنسائه أو لحظاياه، أو لبعض خصيانه أو حرسه. ومنها ما كان السلطان يقيم فيها ولائمه الرسمية أو يقتبل فيهاالسفراء، وتجري فيها المراسم الكبرى. وكانت قصور أخرى مخصصة للموظفين المكلفين بتدبير شؤون البلاط. لكن ذلك كله اختفى اليوم، وقد أمر السلطان سليم بحذفه.

---

(58) فم الخليج.

(59) كان فرعون نفسه فعلاً يذهب لكسر السد. وما زال حفل الوفاء باقياً لكنه مجرد رمز، حيث إن فيضان النيل لم يعد مسألة حياة أو موت بالنسبة للشعب المصري.

عادات سكان القاهرة وأرباضها ولباسهم وممارساتهم

سكان القاهرة أناس على جانب كبير من الظرف والمرح، حديثهم ممتع، لكن عملهم قليل كما هي العادة في جميع كبريات مدن العالم. يزاولون التجارة والصناعة، إلا أنهم لا يغادرون بلادهم. ويقبل الكثير منهم على دراسة القانون والقليل منهم يدرس الآداب. وعلى الرغم من أن المدارس غاصة دائمًا بالطلبة فلا يستفيد منهم إلا النزر القليل.

يرتدي سكان القاهرة لباساً حسناً يكون في الشتاء عبارة عن أقمشة صوفية وأخرى محشوة بالقطن، ويلبسون في الصيف قمصاناً كبيرة من القماش الرقيق يضعون فوقها ملابس من القماش المنسوج بالحرير المخطط بالألوان أو بعض الأردية، ويضعون على رؤوسهم عمائم كبيرة من قماش الكريب المستورد من الهند.

ولباس السيدات فاخر، يخرجن متبرجات بالحلي، يحملن أكاليل على جباههن وعقوداً في أعناقهن، ويضعن على رؤوسهن غطاء ثميناً ضيقاً عالياً بقدر شبر على شكل أنبوب. ويتكون لباسهن من فستان من الجوخ ضيق الأكمام. ويختلف نوع الثوب، لكن الفستان مصنوع بعناية ومزدان بطرز جميل. ويتدثرن بغطاء من نسيج القطن بالغ الدقة والنعومة مستورد من الهند. ويضعن على وجوههن غلالة سوداء رقيقة جداً لكنها خشنة بعض الشيء وكأنها مصنوعة من الشعر. يستطعن هكذا رؤية الرجال دون أن يعرفوهن. وينتعلن أخفافاً أو أحذية جميلة على الطراز التركي. وهؤلاء النساء متصنعات يعرن للقيل والقال أهمية كبرى، إلى حد أن أية واحدة منهن لا ترضى أن تقوم بالغزل أو الخياطة أو الطهي، فيضطر الزوج إلى شراء الطعام جاهزاً من الطباخين خارج البيت. ويطبخ القليل من الناس طعامهم في منازلهم، ما عدا الأسر الكثيرة الأفراد. وتتمتع هؤلاء السيدات بحرية كبيرة واستقلال كثير. فإذا ذهب الزوج إلى دكانه ارتدت زوجته

لباسها وتعطرت، ثم ركبت حماراً وخرجت للتنزه في المدينة وزيارة أهلها وأصحابها.

وإليكم بعض التفاصيل عن الحمير التي يركبها الرجال والنساء: يوجد في القاهرة أناس يعيشون من كراء الحمير يتخذون لذلك دواب كبيرة مدربة على أن تمشي هَوْناً، مزدانة بأغطية جميلة. فيكرونها مع غلام يسوقها وخادمين يسيران في ركاب المكتري. وفي القاهرة عدد كثير ممن لا يقطعون مسافة ربع ميل راجلين، وفيها كما في كثير من المدن الأخرى عدد لا يحصى ممن يتجولون طيلة النهار وهم يبيعون أشياء متنوعة كالفواكه والجبن واللحم النيء والمطبوخ، إلى غير ذلك من المواد الغذائية. وهناك أيضاً عدد كبير من الأشخاص الذين يحملون على الإبل كميات من القرب الضخمة المملوءة ماء، لأن المدينة ـ كما قلت ـ بعيدة عن النيل بميلين كاملين. ويحمل آخرون على أعناقهم قرباً مزخرفة في أفواهها أنابيب من نحاس، وبأيديهم طاسات دمشقية منقوشة نقشاً فنياً، يسيرون وهم ينادون على الماء. ويؤدي الزبون نصف فلس «كواطرينو» من النقد المحلي.

ويتجول في المدينة كثير من بائعي الفراريج يبيعونها بالكيل لا بالواحد، حسب عادة البلاد. ويستعملون أسلوباً مدهشاً لتوليدها: يتناولون ألف بيضة وأكثر يضعونها كلها في شبه أفران متعددة الطوابق وفي الطابق الأعلى ثقب. ثم يوقدون ناراً خفيفة تحتها. وبعد سبعة أيام تبدأ الفراخ تتولد بكثرة. ثم يجمعونها في أوعية كبيرة ويبيعونها مستعملين آلة كيل، بدون قعر توضع في سلة المشتري وتملأ بالفراريج ثم ترفع عند ملئها. ويؤدي المختصون بتوليد الفراريج إتاوة هامة للسلطان.

تبقى المطاعم مفتوحة حتى منتصف الليل، ويغلق ماعداها من الدكاكين قبل الساعة الثالثة والعشرين، ويذهب أصحابها من ربض إلى آخر يتنزهون في المدينة ويمرحون.

*

لا يراعي سكان القاهرة في أحاديثهم جانب الحشمة والحياء. ولنضرب صفحاً عن معظم هذه الوقاحات، لكن نذكر من ذلك أنه غالباً ما يحدث أن تشتكي امرأة إلى القاضي عدم قيام زوجها بواجبه الزوجي كل ليلة. وهذا من جملة الأسباب الكثيرة في الطلاق والزواج المتجدد، كما سنشرح ذلك بعد في هذا المؤلف الصغير عندما نتعرض للشريعة الإسلامية.

ويؤكد كاتب هذه السطور أنه شاهد بالقاهرة أموراً يخجل من ذكرها لشدة خستها.

*

وإذا اتفق أن أحد الصناع أنجز في حرفته عملاً جيداً مبتكراً لم يسبق أن شوهد له مثيل، ألبسوه سترة من ديباج وطافوا به من دكان إلى دكان مصحوباً بالموسيقيين في شبه جولة المنتصرين، وأعطاه كل واحد شيئاً من المال. ورأيت بالقاهرة رجلاً خصص له شرف الانتصار هذا لأنه صنع سلسلة لبرغوثة كان يمسكها مقيدة بها على ورقة، وكان أحد أصحابه يظهرها للناس ويجمع النقود. وشاهدت أيضاً انتصاراً باهراً حققه أحد سقائي الماء الذين يتجولون بِقِرَب معلقة في أعناقهم. فقد راهن السقاء شخصاً على أنه سيحمل قربة من جلد عجل مملوءة ماء مربوطة بسلسلة من حديد أياماً عديدة، وحمل فعلاً هذه القربة المعلقة بسلسلة على كتفه العاري طوال سبعة أيام متوالية من الصباح إلى المساء، فربح رهانه ونال تكريم الانتصار الباهر في موكب ضمّ مختلف المغنين وجميع السقائين بالقاهرة، ويقدر عددهم بثلاثة آلاف. وفيما عدا ذلك ليس لسكان القاهرة كبير شجاعة، ولا سلاح عندهم، بل لا يوجد في بيوتهم سكين لقطع الجبن إلا بمقشة. يتشاجرون أحياناً ويتبادلون اللكمات، فيسرع إذ ذاك المئات من النظارة ولا ينصرفون حتى يتم الصلح بين المتخاصمين.

* * *

أكثر الطعام انتشاراً هو لحم الجاموس مع كمية وافرة من الخضر، وعند الأكل يبسط سماط قصير مستدير إذا كان عدد أفراد الأسرة غير كثير، ويبسط سماط مستطيل كالذي يستعمل في البلاط إذا كان عدد أفراد الأسرة كثيراً.

وعند المسلمين مذهب يبيح لأتباعه أكل لحم الحصان. فإذا عطب فرس اشتراه الجزارون الذين يتمذهبون بهذا المذهب وسمنوه وذبحوه، ويتهافت الناس على شراء لحمه. ويسمى هذا المذهب بالمذهب الحنفي، ويتبعه الأتراك والمماليك ومعظم مسلمي آسيا. إلا أن الأتراك لم يتعودوا أكل لحم الفرس ولو أنه حلّ لهم.

وفي القاهرة ومصر كلها أربعة مذاهب دينية تختلف بينها في إقامة العبادات وتطبيق الشريعة المدنية والقانونية، لكنها كلها معتمدة على القرآن. ويجب أن تعلم أن أربعة أئمة كبار في القديم أوجدوا بفضل اجتهادهم طريقة إدماج النوازل الخاصة في عموم ما جاء به محمد (صلعم). وقد أول كل واحد منهم هذا الكتاب حسب رأيه مستنتجاً منه ما رآه صالحاً، ولذلك اختلفت آراؤهم كثيراً، ونال هؤلاء الأئمة الأربعة ثقة عظيمة بفضل الاعتبار الكبير لقواعدهم، وهم الذين أسسوا هذه المذاهب الأربعة واعتُبروا رؤساءها. وتتبع جميع الشعوب الإسلامية أحد هذه المذاهب، ولا يمكن لمن اتبع مذهباً أن يتركه ليتبع مذهباً آخر، اللهم إلا لمجتهد يعرف العلل ويدركها. وفي القاهرة أربعة أشخاص يدعون قضاة القضاة، يفصلون في القضايا الهامة ويرأسون عدداً لا يحصى من القضاة، بحيث يوجد منهم اثنان أو ثلاثة في كل حي للبت في أتفه المسائل. فإذا كان المتقاضي يتبع مذهباً وخصمه يتبع مذهباً آخر دعاه المدعي أمام قاضي مذهبه هو، غير أن المدعى عليه يمكنه أن يستأنف أمام قاضٍ معين من قبل الأربعة كقاض أعلى، وهو تابع للمذهب الشافعي.

وإذا ارتكب شخص عملاً محظوراً في مذهبه عاقبه قاضي هذا المذهب بشدة.

ويختلف أيضاً أئمة هذه المذاهب في إقامة الصلوات وفي عدد من المناسك أخرى، إلا أنه رغم هذه الفوارق لا كراهة ولا عداوة بين الناس، خصوصاً منهم العامة. لكن المتعلمين منهم كثيراً ما يتناظرون ويختصمون في حالات خاصة مدافعين عن آرائهم، محاولين إظهار صحة مذهبهم. ومهما يكن من أمر فإنهم لا يقدرون على أن يتكلموا بسوء في حق أحد من الأئمة الأربعة، وإلا عوقبوا عقاباً جسدياً شديداً. وفيما يخص الاعتقاد فكلهم في الحقيقة سواء، لأنهم يتمذهبون بمذهب الأشعري إمام كافة المتكلمين. والعقيدة الأشعرية هي السائدة في جميع افريقيا وآسيا، ما عدا البلدان الخاضعة للصوفي(60) التي لا يتبع أهلها لا الأشعري ولا أي مذهب من المذاهب الأربعة، وسموا لذلك مبتدعة شيعة. وسيطول الكلام ويكون مملاً لو أردنا أن نشرح هنا الأسباب التي دعت إلى اختلاف آراء الأئمة. وقد بسطتها في كتيّب ألفته في العقيدة والشريعة الإسلامية على مذهب مالك، وهو رجل على قدر عظيم من الذكاء والمعرفة السامية. ولد بالمدينة التي دفن فيها محمد (صلعم). ومذهبه منتشر في افريقيا كلها، وكذلك في مصر والشام والجزيرة العربية. وعلى من يرغب في المزيد من المعرفة أن يقرأ هذا الكتاب فيجد فيه بغيته.

* * *

والعقوبات المفروضة على الجناة شديدة قاسية، خصوصاً ما يصدر منها في بلاط الملك. فيشنق السارق، ومن قتل أحد غدراً تعرض إلى

---

(60) الصوفي هو لقب للشاه اسماعيل بن حيدر أول ملوك الدولة الصفوية بإيران، الذي حكم من عام 905 إلى 930 هـ/1499-1523 م. وكان الشاه اسماعيل ــ كسائر أفراد أسرته ــ صوفياً، فرأى أن يدخل مذهب الشيعة الاثني عشرية الجعفرية إلى ايران ويجعله المذهب الرسمي فيها، واستجاب الإيرانيون لذلك لميلهم إلى تكريم عليّ بن أبي طالب. ومن ثم صارت ايران مقر الشيعة حتى اليوم.

القصاص الآتي: يمسكه أحد أعوان الجلاد من رجليه وآخر من رأسه، ويتناول الجلاد سيفاً ذا قبضتين، يقطع به الجسد شطرين، ويوضع الشطر الأعلى على كومة جير حام، وقد يستمر حياً هكذا عشرين دقيقة وهو يتكلم. وهذا شيء رهيب يفجع الناظر والسامع. أما القتلة والثوار فتسلخ جلودهم وهم أحياء، ثم تحشى بالنخالة وتخاط بحيث تشبه الناس في المظهر ويضعونها على بعير يطوفون به في المدينة كلها وهم يعلنون عن الجريمة التي ارتكبها الممثل به. وهذا أقسى عقاب قضائي رأيته في العالم، لأن المحكوم عليه يقاسي كثيراً من الآلام، ويظل حياً إلى أن تصل سكين السالخ إلى الصرة فيموت حيناً. ولا يقع هذا إلَّا بأمر خاص من السلطة العليا.

وأما المسجونون من أجل الدَّين إذا عجزوا عن الأداء، فإن قائد السجن يؤدي ما وجب لدائنيهم عوضاً عنهم، ويحتفظ بهؤلاء الأشقياء في السجن، يرسلهم كل يوم إلى المدينة والأغلال في أعناقهم تحت قيادة حراسهم يسألون الناس، ثم يأخذ الصدقات ولا يترك للمعتقلين إلا ما يسدون به رمقهم.

*

وتتجول أيضاً في المدينة بعض العجائز وهن صائحات بكلام لا أفهمه، وحرفتهن خفاض البنات، وهي عملية أوصى بها محمد (صلعم) لكن لا يعمل بها إلا في مصر والشام.

السلطان

أهم موظفيه وضباطه حسب مراتبهم

جرد عظيم الترك سليم، سنة 1517 من ميلاد المسيح[61]، سلطان مصر من شرفه وسلطته، فتغيرت بذلك جميع النظم التي كان عليها سلاطين مصر. ولما اتفق وجودي بمصر في عهد قريب من عهد هؤلاء السلاطين وأمكنني مشاهدة ودراسة نمط الحياة في هذه البلاد أثناء الرحلات الثلاث التي قمت بها ــ كما سبق أن قلته في هذا الكتيِّب ــ، بدا لي من المفيد أن أقدم المعلومات التالية عن بلاط السلطان ومراتب حاشيته.

السلطان

كان أشرف المماليك هو الذي يرشح عادة إلى هذه الدرجة وهذا المنصب. وكان المماليك مسيحيين اختطفهم التتار صغاراً من إقليم الجراكسة على البحر الأسود، فكانوا يباعون في المدينة المسماة الكافة[62]،

---

(61) لقد سُلِّم آخر سلطان المماليك طومان باي، بعد محاولة مقاومة فاشلة، إلى السلطان سليم، فأمر بشنقه في 12 ربيع الأول 12/923 أبريل 1517، وبذلك انقرضت دولة المماليك الجراكسة.

(62) تدعى مدينة الكافة بالاغريقية : ثييودوزيا، وتسمى اليوم فودوزيا في شبه جزيرة القرم.

ومنها يساقون إلى القاهرة على يد نخاسين، فيشتريهم السلطان ويبدل أسماءهم النصرانية حيناً، ثم يسلمهم إلى معلمي اللغة العربية والتركية والتدريب العسكري. ومن هناك كان هؤلاء المماليك يرتقون درجات في المراتب والمناصب ليصلوا أحياناً إلى السلطة العليا.

لكن هذه العادة التي تقضي بأن يكون السلطان مملوكاً وعبداً لن يُعمل بها إلا منذ مائتين وخمسين سنة، أي منذ انقراض دولة البطل صلاح الدين المعروف مجده لدى الجميع[63].

وفي الوقت الذي أراد آخر ملوك بيت القدس أن يحتل القاهرة التي كادت أن تصبح تابعة له من جراء تهاون وجبن الخليفة الذي كان الحاكم بأمره آنئذ، استنجد الفقهاء والقضاة بأمير من آسيا من شعب يدعى الكرد، وهم يعيشون تحت الخيام كالأعراب. وكان هذا الأمير يسمى أسد الدين، وله ولد اسمه صلاح الدين.

فعين أسد الدين صلاح الدين قائداً عاماً على الجيش المعد لمحاربة ملك بيت القدس، وجاء إلى مصر بخمسين ألف فارس. واعترف لصلاح الدين بشجاعة كبيرة رغم صغر سنه فعين قائداً لجباية كل موارد مصر والتصرف فيها. ثم زحف صلاح الدين ضِدَّ المسيحيين بعد أن نظم الجيوش وأحرز انتصاراً سريعاً وطردهم من بيت القدس وسائر بلاد الشام. ولما عاد إلى القاهرة صمم على أن يصبح عاهلاً لها، فقتل رئيسي حرسي الخليفة، وكانا من جنسيتين مختلفتين، إذ كان أحدهما مؤلفاً من

---

(63) يبدو أن تاريخ تأسيس لفيف المماليك هذا يرجع إلى عهد الخليفة العباسي المعتصم (833-842). وكان أول سلطان المماليك هو المعز أيبك الذي ولي في 29 ربيع الثاني 31/648 يوليوز 1250؛ وآخرهم طومان باي. فدام ملكهم في مصر 275 سنة هجرية. وقد استمر وجودهم حتى 7 ربيع الثاني عام 1226هـ/ فاتح ماي 1811 حيث أمر محمد عليّ بالقضاء عليهم. وكانوا قبل ذلك حاربوا القائد الفرنسي بونابارت واستشهد منهم 7000 في وقعة الأهرام.

زنوج إثيوبيا، والآخر من الصقالبة وكان رئيساهما يسيطران على الدولة كلها. ولما وجد الخليفة نفسه بدون حرس همَّ باعتقال صلاح الدين، لكنه فطن للأمر فأمر بقتله وبعث في الحين ببيعته إلى خليفة بغداد الحقيقي، لأن خليفة القاهرة كان شيعياً(64).

وقد حكم خلفاء القاهرة مائتين وثلاثين سنة. ولما مات آخرهم لم يبق إلا خليفة بغداد الذي هو الخليفة الحقيقي الشرعي(65).

وبعد اضمحلال الخلافة الشيعية نشأ خلاف بين خليفة بغداد وصلاح الدين المستولي على سلطنة القاهرة، لأن سلطان بغداد كان يدَّعي أن القاهرة راجعة إليه لانتمائه إلى شعب آسيوي، ولكونه كان قبل ملكاً على الإقليمين الواقعين على نهر الغنج، وهما مزندران وخوارزم. وأراد أن يشهر الحرب ضد صلاح الدين لكن عاقه عن ذلك دخول التتار إلى

(64) تختلط الحقائق التاريخية في رواية الحسن الوزان بكثير من الأوهام الناشئة عن ضعف ذاكرته وطول عهده بكتب التاريخ، والواقع أن صلاح الدين يوسف بن أيوب الكردي كان ـ كأبيه أيوب وعمه سيركوه ـ من قواد السلطان نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام، في حين كانت الدولة الفاطمية بمصر قد ذهبت سطوتها وتحكم الوزراء فيها. وقد استنجد قواد مصر بنور الدين محمود فأنجدهم بسيركوه وابن أخيه صلاح الدين، ومات سيركوه بعد أن استوزر في مصر، ثم مات الخليفة العاضد الفاطمي يوم 11 محرم 14/567 شتنبر 1171 فآلت السلطة في مصر إلى صلاح الدين. ثم كانت له الوقائع العظيمة التي هزم فيها الإفرنج وطردهم من القدس وبلاد الشام، وتوارث أبناؤه ملك مصر والشام باسم الدولة الأيوبية إلى عام 1250/648 حيث انتقلت السلطة إلى المماليك الجراكسية.

انظر تفاصيل ذلك عند رزق الله منقربوس الصدفي، **تاريخ دولة الإسلام**، 222:2 وما بعدها.

(65) لم تدم الخلافة الفاطمية بمصر أكثر من 209 سنة، لأن القائد جوهر الكاتب دعا للخليفة المعز الفاطمي بمصر لأول مرة في خطبة يوم الجمعة 20 شعبان عام 9/358 يوليوز 969، وانتهت خلافة الفاطميين بموت العاضد أوائل محرم 567 كما سبق. وإذا اعتبرنا قيام الدولة الفاطمية في المغرب الأدنى عام 287هـ كانت مدتها 270 عاماً.

خراسان وفتكهم فيه فتكاً دريعاً[66]. وكان صلاح الدين من جهته يخشى مجيء المسيحيين إلى الشام لأخذ الثأر من إهانته لهم. ثم إن من جنوده من قتلوا في الحروب، ومنهم من جرفهم الطاعون، ومنهم أخيراً من استخدموا في الإدارة وتدبير المملكة.

ذلك هو السبب الذي جعله يشتري العبيد الجراكسة الذين اعتاد ملوك أرمينيا أن يختطفوهم ويبعثوا بهم ليباعوا في القاهرة. فحملهم صلاح الدين على نبذ الديانة النصرانية، وعلمهم استعمال السلاح واللغة التركية التي كانت لغته الخاصة[67]. وزاد عدد هؤلاء العبيد وارتقت درجاتهم، حتى أصبح منهم جنود صالحون وضباط محنكون وموظفون ممتازون للمملكة بأسرها.

وبقي الحكم بعد موت صلاح الدين بأيدي ذويه طوال مائة وخمسين عاماً[68]: واحتفظ خلفاؤه كذلك بعادة شراء العبيد.

ولما سقطت دولة آل صلاح الدين (الأيوبية) اختار هؤلاء العبيد ملكاً عظيم الشأن يدعى بيبرس ليكون أميراً لهم وسلطاناً[69].

---

(66) يبدو أن الكاتب خدعته ذاكرته أو مبيضاته. فالواقع أن خليفة بغداد العباسي أيد صلاح الدين في مصر، وأن صلاح الدين كان وفياً لسلطان حلب الزنجي نور الدين محمود الذي كان يطمح في حكم مصر. لكنه استخلص من خلفه عند وفاته.

(67) كان صلاح الدين في الحقيقة أديباً عربياً من أصل كردي لا تركي.

(68) لم تدم الدولة الأيوبية بمصر والشام أكثر من 82 سنة، إذ بدأت باستيلاء صلاح الدين على السلطة بعد موت الخليفة الفاطمي العاضد عام 1171/567، وانتهت بمقتل توران شاه عام 1250/648 على يد مماليك أبيه، وفي مقدمتهم ركن الدين بيبرس الذي سيصير سلطاناً فيما بعد. وقد اختلط أمر توافق التاريخين الهجري والميلادي على المعلقين في الترجمة الفرنسية المنقول عنها، فجعلوا مقابل سنة 1193 م. العام الهجرس 486 بدلاً من 589، واستنتجوا ــ خطأ ــ أن مدة حكم الدولة الأيوبية 162 سنة.

(69) بل كان ركن الدين بيبرس على رأس المماليك الذين قتلوا توران شاه كما سبق، لكنه لم يتول الحكم بعده، بل تولى الأمر شجرة الدر على أن يكون المملوك المعز أيبك =

ودامت هذه العادة منذ ذلك العهد، بحيث إن ابن السلطان لا يستطيع أن يصل إلى هذا المنصب ما لم يكن مملوكاً سبق أن كان مسيحياً ثم اعتنق الإسلام، وما لم يكن يعرف اللغة الجركسية واللغة التركية. وقد أرسل كثير من السلاطين أبناءهم صغاراً إلى بلاد الجركس لتعلم اللغة التركية والتعود على العادات الخشنة حتى يؤهلوا لأن يكونوا سلاطين، لكن حيلتهم ظلت بدون نتيجة لأن المماليك لم يقبلوها قطّ.

ذلكم كان تاريخ دولة المماليك وتاريخ أمرائها المعروفين بالسلاطين إلى العصر الحاضر.

الدَّوَادَار

الدوادار(70) كانت مرتبة ثانية المراتب بعد مرتبة السلطان. وكان السلطان يفوض له سلطة لا تكاد تقل عن سلطته للحكم والجواب عن الرسائل والتعيين في المناصب والعزل عنها، وتدبير جميع الشؤون. وكان للدوادار مجلس لا يختلف كثيراً عن مجلس السلطان.

الأمير الكبير

كان هذا ثالث المراتب، وكان صاحب هذه المرتبة شبه قائد عام، ينظم الجيوش ويرسلها ضد الأعراب والأعداء، ويعين أمراء الحصون وولاة المدن، ويتصرف في بيت المال لكل ما يراه ضرورياً.

= أتابك العساكر، ثم أقام المصريون أيبك ملكاً عليهم ولقبوه بالملك المعز، ودام حكمه من عام 648-1250/655-1257. ثم ولي الأمر بعده ولده نور الدين علي بن أيبك، فالمملوك المظفر سيف الدين قطز. وقد شارك بيبرس في اغتيال المظفر وولي الحكم بعده من عام 658 إلى 1260/676-1277.

(70) الدوادار: لقب مركب من كلمتين، إحداهما عربية، وهي الدواة، والثانية فارسية وهي دار، ومعناه: ممسك الدواة. واللقب يطلق على من يحمل دواة السلطان، وينضاف إليه الأمور اللازمة لهذا المعنى من حكم وتنفيذ أمور وغير ذلك بحسب ما يقتضيه الحال. انظر القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج 5: ص 462، **ملحق التيسير والاعتبار** لمحمد الأسدي تحقيق الدكتور عبد القادر أحمد طليمات، ص 192.

نائب الشام

كان هذا رابع شخصية في الدولة، مقيمًا بالشام كنائب ملك، يدبر شؤونها ويستخلص مواردها ويصرفها كيفما شاء. إلا أن القصور والحصون كانت بأيدي قواد يعينهم السلطان. وكان هذا الوزير ملزماً بدفع بضعة آلاف (دينار) أشرفي سنوياً إلى السلطان.

الأُسْتَادَار

الأستادار[71] خامس شخصية في الدولة، كان سيد القصر يزود السلطان وأسرته بالمؤن والحلي وكل الأشياء الضرورية. وكان السلاطين يسندون عادة هذا المنصب إلى أحد الشيوخ الذي يحترمه أهله لأنه رباهم منذ صغرهم، ويكون معروفاً بالفضل.

أمير آخُور

كانت مرتبة أمير آخور[72] سادس المراتب. وكان مكلفاً بتزويد البلاط بالخيل والإبل تجهيزاً وعلفاً، وتوزيعها بين أسر البلاط حسب قيمة كل واحد ورتبته.

---

(71) الأستادار: لقب مركب من كلمتن فارسيتين، إحداهما «أستا» ومعناها الأخذ، والثانية «دار» ومعناها الممسك. والمعنى: المتولي الأخذ، سمي بذلك لأنه يتولى قبض المال.

انظر القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج 5: ص 457؛ **ملحق التيسير والاعتبار**، ص 182.

(72) أمير آخور: لقب يتركب أيضاً من كلمتين، إحداهما عربية وهي أمير، والثانية فارسية وهي «آخور» ومعناه معلف. والمعنى: أمير العلف لأنه المتولي لأمر الدواب (اصطبل السلطان).

انظر القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج 4: ص 19 وج 5: ص 461؛ **ملحق التيسير والاعتبار**، ص 185.

أمير أَلْف

كانت مرتبة أمير ألف[73] سابع المراتب، وكان يشغلها بعض كبار المماليك الذين كانت رتبتهم تعادل رتبة كولونيل في أوربا. وكان كل واحد منهم رئيساً على ألف مملوك. وهم متعددون، لهم الصلاحية في شن الغارة وتدبير جيوش الملك.

أمير مائة

كان يشغل هذا المنصب الثامن[74] بعض الشخصيات، يرأس كل واحد منهم مائة مملوك. وكانوا يحيطون دائمًا بالملك عندما كان يمتطي فرسه، وكذلك في العروض العسكرية.

خَازَنْدَار

كان خازندار[75] الشخصية التاسعة، وهو الأمين الذي كان يحصي

---

(73) أمراء **الألوف الخاصكية**: هم الأمراء الذين يحضرون على الملك في أوقات خلواته وفراغه، وينالون من ذلك ما لا يناله أكابر المقدمين، ويوجههم السلطان في مهماته. ومن مهمتهم أنهم يسوقون المحمل الشريف، ويتميزون عن غيرهم من الأمراء في الخدمة بحملهم سيوفهم، ولباسهم المطرّز والمزركش.

انظر: **التيسير والاعتبار**، ص 184.

وذكر في هامش الترجمة الفرنسية المنقول عنها أن لقب أمير ألف من أقدم الألقاب في العالم، يوجد في الألواح البابلية وأنشودة رولان، الأمر الذي يدل على أن هذا اللقب دخل إلى لغة الرومان.

(74) الذي في **صبح الأعشى** (ج 4، ص 14) **والتيسير والاعتبار** (ص 185-186) أمير مائة (مقدم ألف) وفيه أن عدة الأمير مائة فارس. وربما زاد العشرة والعشرين، وله المقدمة على ألف فارس ممن دونه من الأمراء. وطبقة أمراء المئين مقدمي الألوف أعلى مراتب الأمراء على تقارب درجاتهم، ومنهم يكون أكابر أرباب الوظائف والنواب.

(75) خازندار: لقب مركّب من مقطعين، أحدهما عربي وهو خزانة، والثاني فارسي وهو «دار» بمعنى ممسك، والمعنى: ممسك الخزانة أي المتولي لأمورها، وكان هذا اللقب يطلق على الذي يشرف على خزائن الأموال السلطانية من نقد وقماش وغير ذلك.

انظر: **صبح الأعشى**، 463:5؛ ملحق **التيسير والاعتبار**، ص 191.

موارد المملكة، يستلمها ويودعها بيت المال، ويسلم إلى الأمناء المبالغ الضرورية للنفقات، ويحتفظ بالباقي في القلعة.

أمير سلاح

كان صاحب هذا المنصب العاشر مكلفاً بسلاح السلطان، يحرسه ويخزنه في قاعة كبيرة حيث يصقل ويعوض إذا اقتضى الحال. وكان تحت تصرفه عدة مماليك لصيانة هذه الأسلحة.

تَخْتْخَانَة

كان صاحب هذا المنصب الحادي عشر(76) مكلفاً بملابس السلطان التي كان يسلمها اياه سيد القصر، فيوزعها وفق أوامر السلطان، إذ كان من عادة الملك أن يخلع على كل من عينه في منصب خلعة، وكانت هذه الملابس من المخمل أو الديباج أو الطلس. وكان هذا الموظف يسير في الطريق محاطاً دائمًا بعدد من المسلحين.

وكانت في البلاط مناصب أخرى كمنصب شَرَابْدَار(77) الذي كان يعتني بمشروبات السلطان محتفظاً بمياه حلوة لذيذة وأخرى مركبة.

---

(76) ورد في **صبح الأعشى** (6:4) وملحق **التيسير والاعتبار** (ص188) أن التخت: سرير الملك، وهو من الأمور العامة للملوك. وكان معاوية بن أبي سفيان أول من اتخذ في الإسلام مرتبة للجلوس عليها، ثم تنافس الملوك من بعده في ذلك حتى اتخذوا الأسرة. ولم يذكروا في جملة البيوت السلطانية تختخانة.

(77) ورد في **صبح الأعشى** (10:4) وملحق **التيسير والاعتبار** (ص196)، **الشراب خانة** ــ لا شرابدار ــ من جملة البيوت السلطانية، ومعناه بيت الشراب، ويشتمل على أنواع الأشربة المرصدة لخاص السلطان، والمشروب الخاص من السكر وغير ذلك، وبه الأواني النفيسة من الصيني الفاخر من اللازوردي وغيره مما تساوي السكلاجة (إناء السكر) الواحدة منها ألف درهم أو نحوه.

وكان يعهد إلى الفراشين[78] أي مختلف خدم الحجرات بتزيين حجرات السلطان بالبسط من الطلس وبالزرابي، ويهتمون كذلك بالمصابيح ومشاعل الشمع التي كانت تمزج بالعنبر، بحيث إنها كانت تضيء الحجرات وتعطرها.

وكان أيضاً الشّبابطية، أي السيافون.

وكان هناك آخرون يدعون طبرشانية، أي حاملي الرماح الذين كانوا يقفون بجانب الملك عندما يمتطي فرسه أو يستقبل الناس.

والعدَّاوية كانوا يسبقون موكب السلطان إذا كان محارباً أو مسافراً. ومن بينهم كان يختار الجلاد عندما يفرغ منصبه. وكلما قام الجلاد بعمله ضد أحد المجرمين أعانه أحد العداوية للتدْريب على المهنة وبالأخص عند سلخ المحكوم عليهم أحياء أو تعذيبهم قصد الحصول على الاعترافات.

وكان السعاة الذين يحملون رسائل السلطان إلى بلاد الشام ويقطعون مشياً على الأقدام ستين ميلاً في اليوم، إذ لا جبل ولا مستنقع بين مصر والشام. غير أن حاملي الرسائل الهامة جداً كانوا يمتطون الإبل.

جنود السلطان

كان جنود السلطان منقسمين إلى أربع طوائف. أولاها الخصاكية أي الفرسان، وكانوا يمثلون نخبة في خدمة السلاح، يختار السلطان من بينهم قواده وعماله في المدن. وكان بعضهم يتقاضى أجراً نقداً من بيت المال، وبعضهم يتقاضى موارد القرى والقصور.

---

(78) الفراشون: جماعة من الغلمان مرصدون للخدمة في «الفراش خاناه» أحد البيوت السلطانية، ويشتمل على أنواع الفرش من البسط والخيام، ولها «مهتار» أي كبير الغلمان الذين يخدمون في الفراش خاناه في الحضر والسفر.
انظر: **صبح الأعشى** (11:4 و470:5) وملحق التيسير والاعتبار ص 198.

وكان جنود الطائفة الثانية يدعون السيفية. وهم راجلون لا سلاح لهم غير السيف. وكانت أجورهم تؤخذ أيضاً من بيت المال.

وكان جنود الطائفة الثالثة يطلق عليهم اسم الكرانسة (الطرخانية)[79]، أي الذين ينتظرون. وكانوا فوق العدد المأجور، يعفون من جميع المصاريف لا غير. وإذا مات مملوك مأجور عوضه أحدهم.

وأخيراً كان الجنود المعروفون بالجلب. وهم المماليك المجندون حديثاً، لا يعرفون اللغة التركية ولا اللغة العربية، ولم يكونوا قد قدموا أي برهان على قيمتهم.

موظفون ملحقون بالادارة العامة

الناظر الخاص: كان شبه مدير خزينة البابا، مهمته أن يكري مكوس الدولة وإتاواتها ويسلم مواردها إلى أمين بيت المال. وكان يتولى بنفسه في القاهرة منصب مدير المكوس الذي كان يدر عليه مئات آلاف (الدنانير) الأشرفية. ولم يكن في الحقيقة بامكان أحد أن يمارس هذه الوظيفة ما لم يدفع مسبقاً للسلطان مائة ألف (دينار) أشرفي. وكان يسترجعها في ظرف ستة أشهر.

كاتب السر: كان هذا هو الكاتب الذي يضبط حساباً خاصاً باحصاء جميع الأراضي المزروعة بمصر، بالاضافة إلى وظيفته العادية، وهي املاء الرسائل والتوقيعات والاجابة باسم السلطان. وكان يجمع شخصياً موارد عدد من هذه الأراضي التي أقطع اياها.

---

(79) في **صبح الأعشى** (13:48-52) وملحق **التيسير والاعتبار** (ص196) الطرخانية: أن يصير الشخص مسموحاً له بالخدم السلطانية، يقيم حيث شاء، ويرتحل متى شاء، تارة بمعلوم يتناوله مجاناً، وتارة بغير معلوم. والطرخانية تكتب للأمراء تارة وللأجناد أخرى، وأكثر ما تكتب لمن كبرت سنه وضعفت قدرته وعجز عن الخدمة السلطانية.

المُوقِّع: كان هذا ثاني الكتاب، أقل رتبة من السابق، لكنه أكثر صلة بالسلطان. يتلقى التوقيعات من الكاتب الأول لينظر هل هي مطابقة لتعليمات الملك، ثم يثبت في البياض الذي يتركه الكاتب لهذا الغرض اسم السلطان. غير أن الكاتب الأول كان لديه عدد من المختصرين المتعودين على تحرير هذه الوثائق بحيث إن الموقع قلما كان يجد ما يشطب عليه لشدة تمرس هؤلاء في عملهم.

المحتسب: كان هذا الموظف شبه حاكم أو قائد السوق، ان صح التعبير. يراقب سعر بيع القمح وسائر المواد الغذائية. كان هذا السعر يرتفع أو ينخفض حسب عدد السفن الآتية من الصعيد والريف، وكذلك حسب فيضان النيل. وكان يفرض على المخالفين العقوبات المقررة من قبل السلطان. سمعت أثناء اقامتي بالقاهرة أن هذا الوظيف كان يجلب لصاحبه نحو ألف (دينار) أشرفي في اليوم ليس من القاهرة فحسب، بل من جميع المدن والأماكن التي وضع فيها هذا الموظف نواباً يمثلونه ملزمين بتقديم الحسابات إليه.

أمير الحج: كان لهذا المنصب رتبة عالية ومهمة ثقيلة، يسنده السلطان إلى أكثر مماليكه كفاية وثروة. فكان هذا الشخص قائد القافلة الذاهبة من القاهرة إلى مكة، مرة كل سنة، فلا يستطيع القيام بهذه المهمة دون نفقات طائلة إذا أراد أن تكون الرحلة محاطة بالأبهة والرفاهية. وكان يصحب معه عدداً من المماليك الآخرين لحراسة القافلة، وتدوم الرحلة ثلاثة أشهر ذهاباً وإياباً. ولا يمكن ذكر الصعوبات والنفقات التي كان يتحملها هذا القائد، دون أن يتقاضى أي أجر لا من السلطان ولا من رجال القافلة.

وهناك مناصب أخرى أقل أهمية لا فائدة في ذكرها.

الـجِيزَة

مدينة على ضفة النيل تجاه المدينة القديمة مفصولة عنها بالجزيرة[80]. وهي عامرة بسكان متحضرين، تضم قصوراً جميلة بناها مماليك كبار لراحتهم بعيداً عن عامة القاهرة. وفيها أيضاً عدد كبير من الصناع والتجار، لا سيما باعة المواشي التي يأتي بها الأعراب من جبال برقة. وحيث إنه يصعب عليهم حمل هذه الماشية في الزوارق لاجتياز النهر فإن التجار يحضرون ليشتروها منهم ويبيعوها إلى قصابي القاهرة الذين يأتون بدورهم لأخذها منهم. وعلى ضفة النيل جامع المدينة وأبنية أخرى جميلة أنيقة. وتحيط بالجيزة حدائق ومغارس نخيل، ويفد عليها مختلف الصناع من القاهرة ليشتغلوا فيها ويعودوا مساء إلى منازلهم.

وتمرّ بهذه المدينة طريق الأهرام، وهي مقابر ملوك مصر القدماء. وكان موقعها في القديم يسمى منفيس[81]. وبين الجيزة الأهرام مفازة رملية لا غير، فبها عدة مستنقعات مكونة من فيضان النيل. ومع ذلك يمكن الذهاب إليها بدون كبير عناء مع رائد خبير يعرف البلاد جيداً.

المُعَلَّقَة

مدينة صغيرة على بعد ثلاثة أميال من المدينة القديمة، شيّدت على ضفة النيل في عهد المصريين القدماء، وفيها دور حسنة وبنايات جميلة، لا سيما الجامع القائم على ضفة النيل ذاتها. وتحيط بالمدينة حدائق النخيل ومغارس شجر الجميز. وللسكان نفس عادات سكان القاهرة[82].

---

(80) يعني الروضة: جزيرة مقياس النيل.

(81) كانت منفيس في الحقيقة أبعد في جهة الجنوب، بين أهرام سكرة (سقارة ـــ المشرف) والنيل.

(82) المعلّقة هي القاهرة القديمة أو مدينة الفسطاط التي خلفت بابليون، وربما اختلط الأمر على المؤلف، فالمعلقة كناية عن كنيسة قبطية في القاهرةالقديمة، لأنها مبنية على سطح السور القديم لفوساطون المسماة أطلالها اليوم قصر الشمع أو كنيسة الست مريم.

الخَانْقَاه

الخانقاه مدينة كبيرة مشيدة على طرف الصحراء الواقعة على الطريق المؤدية إلى سيناء، على بعد نحو ستة أميال من القاهرة[83]. فيها دور حسنة ومساجد جميلة ومدارس. وعلى طول مسافة الأميال الستة الفاصلة بين هذه المدينة والقاهرة كثير من البساتين وحوائط النخيل، لكن لا يوجد من هناك إلى مرسى سيناء أي مكان مسكون على مسافة 140 ميلاً.

وسكان الخانقاه أغنياء جداً، لأنها ملتقى المسافرين الذين يريدون السير في القافلة إلى الشام فيشترون مختلف الأشياء الواردة من القاهرة، إذ لا ينبت في الخانقاه شيء باستثناء النخيل. وينطلق منها طريقان رئيسيان يذهب أحدهما إلى الجزيرة العربية، والآخر إلى الشام. وليس لها من موارد الماء غير ما يصل إليها بواسطة القنوات. وتتحطم حواجز هذه القنوات عند فيضان النيل، فتتدفق المياه في السهل حيث تكون بحيرات صغيرة، ومن هناك يجرّ الماء إلى المدينة عبر سواق ويدخل في الخزانات.

المُعَيْصِرة

مدينة صغيرة على ضفة النيل بعيدة عن القاهرة بنحو ثلاثين ميلاً[84]، تنبت هناك كمية وافرة من الجلجلان. وفي المدينة عدة طاحونات تستخرج الزيت من حب الجلجلان. وجميع السكان فلاحون باستثناء البعض الذين لهم دكاكين.

بني سْوِيف

مدينة صغيرة مشيدة على الضفة الافريقية للنيل، بعيدة عن القاهرة بنحو مائة وعشرين ميلاً[85]. ويحيط بها أراضٍ واسعة صالحة

---

(83) 14 ميلاً.

(84) بل بعيدة بنحو 12 ميلاً فقط.

(85) بل بنحو 71 ميلاً فقط.

لزراعة الكتان والقنب. والكتان فيها من الدرجة الأولى بحيث إنه يصدر حتى إلى تونس ببلاد البربر، ويصنع منه نسيج عجيب في الرقة والمتانة، تتزود منه مصر كلها. إلا أن النيل في الحقيقة يقرض باستمرار هذه الأرض، وتجرف التربة أحياناً أثناء الفيضان فتتقلص المساحة الصالحة للزراعة. وعندما كنت في هذه المدينة ذهب النيل بأكثر من نصف النخيل. ويستخدم جميع السكان في الأعمال التي يستلزمها الكتان بعد الحصاد.

وفيما وراء هذه المدينة توجد التماسيح التي تفترس الناس، كما سنذكر ذلك في القسم المخصص للحيوانات من هذا الكتاب.

المُنْيَة

مدينة جميلة جداً شيّدها أيام المسلمين أحد نواب (الملك) في مصر اسمه الخصيب الذي كان والياً لأحد خلفاء بغداد[86]. تقع في مكان مرتفع على الضفة الافريقية للنيل، ويحيط بها عدد من الحدائق والكروم التي تنتج فواكه جيدة تحمل منها كمية كبيرة إلى القاهرة، لكن لا تصل إليها طرية لبعدها عنها بنحو مائة وثمانين ميلاً. وللمنية أبنية حسنة جداً وقصور ومساجد، فضلاً عن آثار مبان يرجع تاريخها إلى عهد المصريين الأقدمين.

والسكان أغنياء لأنهم يذهبون إلى مملكة ڭاوڭاو ببلاد السودان للاتجار فيها.

الْفَيُّوم

مدينة أزلية شيّدها أحد الفراعنة في الوقت الذي خرج فيه العبريون من مصر. وكان هذا الفرعون يستخدمهم في صنع الآجر وغيره من

(86) سماها ياقوت في **معجم البلدان**(ج 8، ص 188) منية أبي الخصيب، وقال: «إنها مدينة كبيرة حسنة كثيرة الأهل والسكن على شاطىء النيل في الصعيد الأدنى، قد أنشأ فيها أبو اللمطي أحد الرؤساء بتلك النواحي جامعاً حسناً، وفي قبلتها مقام ابراهيم، عليه السلام». وكان الخصيب بن عبد الحميد جابي خراج مصر من قِبل الخليفة هارون الرشيد.

الأعمال. وبنى المدينة على فرع صغير للنيل[87] في مكان مرتفع تكثر فيه الأشجار المثمرة وشجر الزيتون، لكن الزيتون لا يصلح إلا للأكل ولا يصنع منه الزيت. وفي هذه المدينة دفن يوسف بن اسرائيل، وحمل موسى جثته عندما هرب العبرانيون من مصر. والمدينة متحضرة عامرة جداً تضم كثيراً من الصناع، لا سيما النساجين[88].

مَنْفَلُوط

مدينة كبيرة جداً وعريقة في القدم، بناها المصريون وخرّبها الرومان. وبدأ السكان يعمّرونها من جديد في عهد الإسلام، لكنها لا تكاد تعتبر مسكونة بالنسبة لماضيها. وما زالت بها أعمدة ضخمة عالية وأبواب مكتوب عليها أبيات شعرية باللغة المصرية. وبالقرب من النيل طلل كبير لبناء عظيم يبدو أنه كان معبداً. ويعثر السكان أحياناً على مسكوكات من الذهب والفضة والرصاص، على أحد وجهيها حروف مصرية وفي الآخر صور الملوك الأقدمين. والتربة خصبة، لكن الحرارة شديدة. وتفتك التماسيح بالسكان فتكاً ذريعاً، الأمر الذي أدى بالرومان ـ على ما يظن ـ إلى مغادرة المدينة[89]، إلا أن سكان منفلوط يعيشون في رخاء لأنهم يتجرون مع بلاد السودان.

أَسْيُوط

هي كذلك مدينة عتيقة شيّدها المصريون على ضفة النيل، بعيدة عن القاهرة بنحو مائتين وخمسين ميلاً. وهي مدهشة بكبرها ومبانيها القديمة

---

(87) هو أحد فروع بحر يوسف.

(88) اعتبر المؤلف أن بتُوم التوراة هي مدينة الفيوم، ويبدو أنه خلط بين متاهة هيرودوت وضريح يوسف. وقد قال آنفاً إنه لن يتعرّض للفيوم التي يعتبرها لسبب مجهول خارجة عن افريقيا.

(89) يقع قرب منفلوط كهف التماسيح الشهير.

وكتاباتها العديدة، لكن الكل في حالة خراب وتلف، ومع ذلك يمكن التعرّف على الكتابة المصرية. وقد سكنها عدد كبير من الفرسان الأشراف في العصر الإسلامي، واحتفظت حتى الآن بالنبل والثراء. وفيها نحو مائة من دور المسيحيين وثلاث أو أربع كنائس. وفي خارج المدينة دير مسيحي يعيش فيه أكثر من مائة راهب لا يأكلون لحمًا ولا سمكاً، وإنما يتغذّون بالخبز والخضر والزيتون. ويصنعون مأكولات لذيذة لا يدخل فيها أي شحم. وهذا الدير غني، من عادته أن يطعم كل غريب عابر سبيل، يضيفه ثلاثة أيام. ويربي لهذا الغرض كثيراً من الحمام والدجاج.

إِخْمِيمْ

أقدم حاضرة بمصر أسسها إخميم بن مصرائيم بن كوش بن حام، على الضفة الآسيوية للنيل، بعيدة عن القاهرة شرقاً بنحو ثلاثمائة ميل؛ لكنها دمّرت عند مجيء المسلمين إلى مصر لأسباب يذكرها التأريخ، حتى لم يبق من المدينة غير أسسها، لأن الأعمدة وغيرها من الحجر حملت إلى الضفة المقابلة لبناء المدينة الآتية.

المُنْشِيَة

بنيت إذن هذه المدينة بأنقاض المدينة السابقة على يد أحد نواب الخليفة. وليس لها أناقة ولا جمال. وأزقّتها ضيقة لا يمكن المرور بها صيفاً لكثرة الغبار. ويكثر فيها القمح والماشية[90].

---

(90) ذكر ياقوت في **معجم البلدان** (ج 8، ص 176) أربع قرى مصرية تسمى كل منها مُنْشِية، إحداها من كورة الجيزة، والثانية من عمل قوس، والثالثة من عمل إخميم ـــ هي هذه التي يتحدث عنها الحسن الوزان ـــ ويقال لها منشية الصلعاء، والصلعاء قرية إلى جانبها، أما الرابعة فهي الكبْرى من كورة الدنجاوية.

وكانت المدينة وإقليمها إقطاعاً لأمير افريقي من شعب بربري يسمى هوارة، ورث الإمارة عن أجداده أمراء هوارة الذين أتوا لنجدة جوهر الصقلبي مؤسس القاهرة. ولما جاء بعد ذلك الخليفة القائم من القيروان إلى القاهرة أقطع إقليم اخميم هذا إلى أمير هوارة مكافأة له. ولم يرغب هذا الأمير في إعادة بناء اخميم لأن الأعراب كانوا يسببون له متاعب. فبنى المنشية على الضفة الأخرى للنيل[91] لاجتناب الأعراب. ودامت الإمارة في هذه الأسرة إلى أيامنا هذه. وهي تؤدي الإتاوات دائمًا إلى السلطان، لكنها جردت من إمارتها في عهد سليمان تاسع ملوك الأتراك، وصودر الكل لفائدة خزينة عظيم الترك.

جَرْجَا

كانت جرجا ديراً مسيحياً في غاية السعة والغنى يسمى سان جورج، على بعد نحو ستة أميال من المنشية[92]. وكانت تحيط به أراض زراعية فسيحة ومروج، ويضم أكثر من مائتي راهب كانوا بدورهم يطعمون الغرباء ويبعثون بما يدخرونه من الموارد إلى بطريق القاهرة ليوزعه على المسيحيين الفقراء. إلا أنه منذ مائة سنة أصيبت مصر بوباء الطاعون الذي ذهب بجميع رهبان هذا الدير، وبقي المكان خالياً مدة ثلاث سنوات لم يسكنه أحد، حتى إن أمير المنشية أخذ في تسويره وبناء دور للتجار والصناع من مختلف الحرف. وجاء ليسكنه بنفسه بعد أن استلفت نظره ما فيه من حدائق جميلة على التلال المجاورة. لكن بطريق اليعاقبة شكا ذلك إلى السلطان، فاضطر إلى بناء دير آخر مكان المدينة القديمة ومنحه مورداً كافياً يعيش به ثلاثون راهباً عيشة راضية.

(91) على الضفة اليسرى، على بعد ثلاثمائة وواحد وثلاثين ميلًا من القاهرة.

(92) بل ثلاثة عشر ميلًا جنوباً.

الخِيَام

الخيام[93] مدينة صغيرة شيّدت على النيل في العصر الإسلامي، لا يسكنها إلا نصارى يعاقبة، كلهم فلاحون يربون الدجاج والأوز. ولهم أيضاً عدد لا يحصى من الحمام، بحيث لو أعطيتهم قطعة نقدية تساوي نحو «بايوتشيين» لباعوك بها عشرة طيور. وهناك بعض الأديرة المسيحية التي تقدّم الطعام للغرباء كذلك. ولا وجود لمسلم في هذه المدينة باستثناء الوالي وأسرته.

بَرْبَنْدَة

بربندة[94] مدينة بناها المصريون الأقدمون على ضفة النيل، بعيدة عن القاهرة بنحو أبعمائة ميل، خربها الرومان، ولا يشاهد بها الآن سوى أطلال ضخمة. حملت أجود موادها إلى إسْنَا التي سنذكرها فيما يلي. ويعثر في هذه الأطلال على عدة مسكوكات من الذهب والفضة، وكذلك على قطع كثيرة من الزمرد.

قِنَا

قِنا[95] مدينة عتيقة مشيّدة على النيل تجاه بربندة، محاطة بسور من الآجر النيء. وسكانها فلاحون بسطاء فقراء، لكن المدينة غاصة بالقمح، لأنها مستودع السلع المحمولة من القاهرة إلى مكة على النيل.

---

(93) قرية في الضفة اليمنى، على بعد ثلاثمائة وتسعة وخمسون ميلاً من القاهرة.

(94) هي أنقاض معبد دندرة، على بعد أربعمائة وسبعة عشر ميلاً من القاهرة على طريق النهر.

(95) ذكرها ياقوت في معجم البلدان (ج 7، ص 162) وقال: إنها مدينة بالصعيد لطيفة بينها وبين قوص يوم واحد. وربما كتب بعضهم إقْنَا.

وتقع قنا فعلاً على بعد نحو مائة وعشرين ميلاً من البحر الأحمر عن طريق الفلاة. ولا وجود للماء في هذه الفلاة حتى الساحل حيث المرسى المسمى بالقصير، فيه عدة أكواخ لوضع السلع، وجميع بيوته قائمة بالحصر. ويصطاد السمك بكثرة في القصير.

ويقع تجاه هذا المرسى على الساحل الآسيوي للبحر الأحمر مرسى يدعى يَنْبُع، ينزل فيه الحجاج في طريقهم إلى المدينة حيث قبر محمد (صلعم). ويزود ينبع المدينة ومكة بالقمح لاحتياجهما الكبير إليه.

إسْنَا

كانت تسمى سِيَانَة في القديم، لكن العرب سمّوها إسنا، لأن لفظ سيانة يشبه كلمة عربية معناها قبيحة، بينما إسنا يعني حسناء(؟).

ومدينة إسنا فعلاً في غاية الحسن، مبنية على الضفة الافريقية للنيل[96]. وقد أعيد بناؤها بكيفية حسنة في الإسلام بعد أن خربها الرومان تقريباً. لكنها تبدو خالية بالنسبة للعصور الغابرة، إذ ما زالت تشاهد إلى يومنا هذا أسس أسوارها على دائرة واسعة. وسكانها أغنياء بما لهم من حبوب وماشية ونقود، لأنهم يتجرون مع النوبة عن طريقي القفر والنيل.

وتوجد داخل سور المدينة أنقاض بنايات عظيمة وأضرحة عجيبة وشواهد قبور عليها نقوش مصرية ولاتينية[97].

---

(96) على بعد أربعمائة وستة وتسعين ميلاً من القاهرة عن طريق النهر.

(97) هي أنقاض معبد خموم الذي جدد على يد عدد من أباطرة الرومان.

أَسْوَان

مدينة كبيرة عتيقة، بناها المصريون على ضفة النيل، بعيدة عن إسنا بنحو ثمانين ميلاً[98]. وتحيط بها أراض صالحة لزراعة الحبوب. وهذه المدينة آهلة جداً بالسكان، وتجارتها مهمة لموقعها في تخوم مملكة نوبية، ولأن ركوب النيل مستحيل فيما وراءها، إذ ينتشر النهر في عاليتها مخترقاً السهول فلا يبقى للماء العمق الكافي لاستخدامه[99].

وتتاخم المدينة أيضاً الصحراء التي يقطعها المسافرون للوصول إلى السواكن على البحر الأحمر في بداية إثيوبيا.

والحرارة بأسوان في الصيف مفرطة، ولذلك يكاد يكون جميع السكان سمراً. ولأنهم كذلك مختلطون بالنوبيين والإثيوبيين. ويشاهد فيها أيضاً في عدة أماكن بنايات لقدماء المصريين وبعض الأبراج الشاهقة التي تدعى «بَرْبَا» بلغة البلاد[100].

* * *

ولا يوجد وراء أسوان مدينة ولا مكان مأهول يستحق الذكر، وإنما هناك قوى يسكنها قوم من الجنس الأسمر يتكلمون لهجة تختلط فيها العربية والمصرية والإثيوبية. ويخضعون لقوم يسمون الْبُجَة، يعيشون في البوادي على شاكلة الأعراب. وليس للسلطان أيُّ نفوذ في هذه النواحي التي تنتهي فيها دولته.

* * *

(98) في الواقع على بعد ثمانية وتسعين ميلاً ونصف ميل من إسنا، وخمسمائة وأربعة وتسعين ميلاً ونصف ميل من القاهرة.

(99) بل تقطع الشلالات ركوب النهر.

(100) هي أعمدة معابد جزيرة فيلا التي يسميها العرب جزيرة البربا.

تلك هي أشهر المدن على ذراع النيل الكبير. وقد شاهدها كاتب هذه السطور ودخل بعضها ومرَّ قرب البعض الآخر، لكنه تلقى عنها أتمّ المعلومات من سكانها أو من التجار الذين صحبوه من القاهرة إلى أسوان والذين رجع معهم إلى قِنا.

وتابع سيره من هناك في القفر حتى البحر الأحمر الذي قطعه ليصل إلى شاطىء البلاد العربية الصحراوية في مينائي يَنْبُع وجَدّة الواقعين في آسيا. ولا حاجة إلى الحديث عنهما لعدم وجودهما في افريقيا.

إلا أن المؤلف بعون الله تعالى موطد العزم على أن يصف في كُتَيِّب الجزءَ الذي رآه من آسيا، وسيتعرّض لذكر البلاد العربية الصحراورية، والبلاد العربية السعيدة، والبلاد العربية الصخرية، وللقسم المصري الواقع في آسيا. كما سيتحدّث عن بابل، وجزء من بلاد فارس وأرمينيا وبلاد التتر التي تجول فيها وهو ما يزال يافعاً؛ كما سيصف عدداً من الجزر التي شاهدها أثناء رحلته الأخيرة من فاس إلى القسطنطينية ومنها إلى مصر على طريق البحر، ثم لدى عودته من مصر إلى شاطىء ايطاليا.

وللمؤلف بعد ذلك العزم القاطع على أن ينظّم كتابه عندما يعود سالماً بفضل الله من سفره إلى اوروبا. وسيبدأ بوصف اوروبا التي تستحق أكثر من غيرها أن يبدأ بها لشرفها، ثم يتابع بكامل الاتقان والعناية وصف آسيا، يعني القسم الذي زاره منها، وسيجعل في الأخير هذا الكتيب جزءاً ثالثاً.

القسم التاسع

الأنهار والحيوانات والنباتات بإفريقيا

توطئة

يُعنى هذا القسم بجميع الأنهار والحيوانات والنباتات التي تستحق الذكر أكثر من غيرها في إفريقيا. وسنتحدث أولاً عن المياه الجارية المشهورة في بلاد البربر، مبتدئين من جهة الغرب.

نهر تَنْسِيفَتْ

تنسيفت نهر كبير ينبع من الأطلس قرب مدينة تدعى أَمْمَايْ شرق مراكش[1]، ويجري نحو الشمال[2] مخترقاً سهولاً حتى يصب في المحيط بإقليم آسفي من ناحية دكالة. ويتلقّى قبل وصوله إلى البحر عدة أنهار أشهرها اثنان معروفان جداً، أحدهما أَسِيفْ اَلْمَال الذي ينبع من جبل هنتانة قرب مراكش، ثم ينحدر في السهل حتى يلتحق بالنهر؛ والآخر نْفِيسْ الذي ينبع أيضاً من الأطلس في ضواحي مراكش ويسيل في السهل المحيط بمراكش ثم يصب في النهر.

تنسيفت كثير العمق لكنه يمكن أن يقطع في بعض الأماكن ولو أن الماء يغمر ركابي الفارس، وعلى الراجل أن يتجرد من ثيابه لقطعه. وبالقرب من مراكش جسر بناه الملك المنصور[3] من خمسة عشر عقداً

---

(1) تبعد عين تنسيفت ــ راس الماء ــ ببضعة كلم شمال غرب أمماي الذي يسمى اليوم سيدي رحال الواقع على الردم أحد روافد تنسيفت.

(2) بل نحو الغرب.

(3) في **الروض المعطار** أن علي بن يوسف بن تاشفين المرابطي بنى قنطرة تانسيفت فهدمها السيل بعد ذلك. ثم أمر يوسف بن عبد المؤمن الموحدي ببناء قنطرة تنسيفت، فشرع في بنائها يوم الأحد ثالث صفر 17/566 أكتوبر 1170. ولعل ولده يعقوب هو الذي أتم بناءها، لأن المؤرخين ذكروا في جملة منشآته العمرانية بناء قناطر. ويرى هنري طيلس =

(قوساً). وهو من أجمل بنايات افريقيا كلها. وقد حطم ثلاثة من هذه العقد أبو دبوس آخِرُ ملك وخليفة (موحدي) بمراكش ليمنع مرور يعقوب (بن عبد الحق) أول ملوك بني مرين، لكن ذلك لم يغن عنه شيئاً.

تِسَاوِينْ

تِساوين نهران ينبعان من جبل غُجْدامة، وتفصل بينهما مسافة ثلاثة أميال، ويحمل كِلاهما نفس الاسم تَسَاوَتْ، جمعه تِسَاوِينْ، أي الحواشي (أو البطون) باللغة الإفريقية [(4)].

واد العبيد

ينبع هذا النهر من الأطلس بين جبال عالية باردة، ويمر من شعاب وعرة على تخوم هسكورة وإقليم تادلا، وينحدر في السهل متوجهاً شطر الشمال حتى يصب في نهر أم الربيع. وهو مهمّ جداً، لا سيما في شهر مايه عندما تذوب الثلوج في الجبل.

= أن القسم الأوسط من العقود السبعة والعشرين الموجودة حالياً في قنطرة تنسيفت هي موحدية، ويبقى إثبات ذلك للبحث الاركيولوجي.

انظر: أحمد الناصري، **الاستقصا**، ج 2، ص 133، وهامش 1، مع ص 177 منه. وكتاب مراكش لدوفيردان، ج 1، ص 201.

(4) هذان النهران هما الآن واد الأخضر شمالاً وتَسَّاوت جنوباً ثم غرباً. وقد سبق للمؤلف في القسم الثاني (ج 1، ص175) أن أطلق تِسَاوِين على المرتفع الذي ينبع فيه هذان النهران، وهما جبلان أحدهما بجوار الآخر، وذلك في مرتفع فطواكة، لا غجدامة الواقع إلى الغرب من تَسَّاوت.

أمّ الرَّبيع

نهر كبير جداً ينبع من الأطلس بين جبال عالية في حدود تادلا وناحية فاس، ويجري عبر سهول أَدَخْسَان[5]، ثم يخترق شعاباً ضيقة بها جسر جميل بناه أبو الحسن رابع ملوك بني مرين[6]. ويجتاز النهر فيما وراء هذا الجسر شطر الجنوب سهولاً بين ناحية دكالة وناحية تامسنا إلى أن يصب في المحيط قرب سور مدينة أزمور. ولا يمكن قطعه خوضاً في الشتاء والربيع، غير أن سكان القرى الواقعة على ضفتيه يجيزون الناس والأمتعة على شبه مراكب كبيرة مثبتة على قرب منفوخة. وتصب بعض الروافد الصغيرة في هذا النهر.

ومنذ الفصل الذي يبدأ فيه نزول الأمطار في افريقيا إلى شهر مايه، تصطاد من أم الربيع كمية وافرة من السمك المعروف في أيطاليا (لاتشية)[7] يتغذى به جميع سكان آزمور، وتذهب إلى مملكة البرتغال عدة سفن محملة بهذا السمك المملح، كما ذكرنا ذلك عند الكلام على مدينة آزمور.

أبو رَقْرَاق

ينبع هذا النهر من أحد الجبال المتفرعة عن الأطلس، ويمر عبر شعاب وغابات كثيرة، ثم يخرج بين تلال في سهل ليذهب إلى المحيط. وهناك مدينتا سلا والرباط اللتان تبتدىء بهما مملكة فاس. ولا ميناء لهما

---

(5) هو اليوم سهل خنيفرة.

(6) أبو الحسن سادس ملوك بني مرين، ولعل الإشارة إلى الجسر المتهدم عند دشرة الواد الذي ربما كان هو المعبر عنه في كتب التاريخ بمشرع بوعقبة الذي جرت فيه معارك عديدة بين السعديين والوطاسيين في منتصف القرن العاشر الهجري/ 16 م.
انظر كتابنا **الحركة الفكرية**، ج 1، ص 45، وهامش 7.

(7) هو الشابل.

سوى مصب النهر الذي يعسر على السفن دخوله، بحيث إنه لا بد للسفينة من دليل محنك وإلّا جنحت على الرمل. ولولا صعوبة هذا المدخل لما احتفظت المدينتان بحريتهما، ولاستحال الدفاع عنهما ضد أصغر أسطول لأي ملك مسيحي.

بَهْتْ

ينبع نهر بهت أيضاً من الأطلس، ويسيل نحو الشمال بين جبال وغابات، ثم يخرج وسط تلال لينتشر في أحد سهول إقليم أَزَغَار، بحيث يتحول إلى مستنقعات وبحيرات يصطاد فيها عدد لا يحصى من السمك كالبيوض والأنقاليس (النون) والشابل المدهشة بحجمها وشحمها. ويقيم حول هذه المستنقعات والبحيرات رعاة من الأعراب يعيشون من ماشيتهم وصيدهم، ويأكلون كثيراً من السمك واللبن والسمن، حتى إن عدداً كبيراً منهم يصابون بالداء المعروف بالبرص. ويمكن عبرُ هذا النهر خوضاً كل وقت في أماكن معينة، ما عدا أيام الأمطار الغزيرة أو عند ذوبان الثلوج. ويتلقى بهت بعض الروافد الصغيرة النابعة من الأطلس أيضاً.

سبُو

نهر ينبع في جبل يسمى سليلگو في الحوز بإقليم مملكة فاس. وأصله عين كبيرة في غابة مخيفة، ثم ينحدر من هناك في شعب بين جبال وتلال، ويجري في سهل ماراً على بعد نحو ستة أميال من فاس. وبعد ذلك يقطع سهلاً فاصلاً بين الهبط وأزغار، ويتابع سيره إلى أن يصب في المحيط قرب بلدة اسمها المعمورة تبعد عن سلا بـ. . . [8] وتنصب بعض الأنهار في سبو، منها ما ينحدر من جبال غمارة كَوَرْغَة وأَوْضُور[9]. ومنها ما ينحدر من

(8) هنا بياض، وقد ذكر المؤلف في القسم الثالث أن هذه المسافة اثنا عشر ميلاً، بينما هي اثنان وعشرون ميلاً.

(9) هناك أربعة أنهر تنبع من جبال غمارة ــ أَوْضُور أحدها ــ وتصب في ورغة. انظر كتابنا الحركة الفكرية، ج 2، ص 475.

جبال في إقليم تازا. ومجرى هذا النهر طويل ومياهه غزيرة، غير أن به عدة أماكن يمكن عبوره منها، ولا يمكن ذلك في الشتاء ولا في الربيع، بل يعبر حينئذ بواسطة الفلك. وينصب كذلك في سبو النهر الذي يخترق مدينة فاس المسمى بواد الجواهر بلغة البلاد. وتوجد فيه كمية وافرة من السمك وخصوصاً في وقت الشابل، كما ذكرنا ذلك عند تعرضنا لوسائل العيش بفاس، حتى إن هذا السمك يباع فيها بثمن بخس.

وعندما يصب سبو في البحر يكون مصبه في غاية العرض والعمق بحيث يمكن للسفن العظيمة أن تدخله، كما فعله البرتغاليون والاسبانيون مراراً. وهذا النهر صالح للملاحة تماماً، لكن نظراً لجهل أهل البلاد لا يوجد فيه قارب مسطح ولا زورق واحد لحمل أي شيء كان. ولو استعمل أهل فاس نهر سبو للملاحة لنتج عن ذلك بالتأكيد انخفاض في سعر القمح الحالي إلى النصف. فقد لاحظت أن نقل القمح من أزغار إلى فاس تكلف نفقة الحِمْلِ المنقول ما تكلفه نفقة شرائه، ومع ذلك فإن القمح يباع في فاس بثلث مثقال رغم تكاليف هذا النوع من النقل. ولو نقل القمح عن طريق الماء لما بلغ ثمن الحمل حينئذ حتى ربع مثقال للحمل الواحد.

لُكُوسْ

نهر ينبع من جبال غمارة ويجري نحو الغرب عبر سهول الهبط وأزغار ماراً بالقرب من مدينة القصر الكبير، ثم يتابع سيره إلى أن يصب في المحيط قرب مدينة العرائش بإقليم أزغار على تخوم الهبط. ويقع مرسى المدينة عند مصب النهر، لكن الدخول إليه عسير جداً، لا سيما بالنسبة لمن لا خبرة له.

مَلّولو

ملّولو نهر نابع من الأطلس في تخوم مدينتي تازا ودبدو، لكنه إلى دبدو أقرب. ويسيل في سهول تيرست[10] وتَفْراطة الوعرة اليابسة، ثم يصب بعد ذلك في ملوية.

مَلْوِيَــة

ملوية نهر كبير ينبع من الأطلس في ناحية الحوز، على بعد نحو خمسة وعشرين ميلاً من مدينة كَرسلوين[11]، فيجتاز أولاً بعض السهول الوعرة اليابسة ليصل إلى سهل أكثر وعورة ويبساً بين مفازات أَنْكَاد وكَرْط، ويمر في سفح جبل بني يزناسن ويدخل في البحر المتوسط غير بعيد عن مدينة غِسَاسَة. ويُقطع هذا النهر في الصيف خوضاً على طول مجراه كله، ويوجد فيه قرب البحر سمك جيد.

زَا

زا نهـر ينبع من الأطلس ويسيل بسهل قفر أَنْكَاد في الحد الفاصل بين مملكتي فاس وتلمسان. ولم أر قط مجرى هذا النهر عـامراً، لكنـه منخفض جداً، وفيه سمك كثير. إلاّ أن أهل البلاد، وهم جهـال، لا يستطيعون صيده لسببين: الأول عدم امتلاكهم آلات الصيد، والثاني شدة صفاء الماء، وذلك غير صالح للصيد.

التّافْنَــة

التافنة نهر يميل إلى الصغر، وينبع من جبال تقع في تخوم نوميديا، ثم يسيل نحو الشمال عبر قفر أنكاد إلى أن يصب في البحر المتوسط، ماراً على

---

(10) تِيرْسْتْ بالبربرية ــ عبارة عن أرض بيضاء كالصلصال، وهي غير التِّيْرسْ التي تعْني الأرض الخصبة السوداء المعروفة.

(11) يقع في الحقيقة نبع ملوية على بعد أكثر من 100 كلم غرباً، ويمر هذا النهر على بعد نحو 80 كلم شمال غرسلوين على واد زيز.

بعد نحو خمسة عشر ميلاً من تلمسان[12]، ولا يوجد فيه إلّا سمك صغير جداً لا قيمة له.

مِينَا

مينا نهر لا بأس به من حيث الكبر، ينحدر من الجبال المجاورة لتَقْدْمَت، ويمر عبر سهل مدينة البطحاء، ثم يتوجه شمالاً إلى أن يصب في البحر المتوسط[13].

الشّلَفْ

الشلف نهر كبير ينبع في جبال ونشريس وينحدر عبر سهول قفرة في تخوم مملكتي تلمسان وتَنَس، ليتابع سيره إلى أن يصب في البحر المتوسط فاصلاً بين قرية تدعى مْزَغْران ومدينة مسْتْغَانَم[14]، ويصطاد في مصب هذا النهر كمية وافرة من السمك الجيد، منه كبير وصغير.

الشّفَـــة

نهر ليس بالطويل، ينبع من الأطلس ويسيل في سهل يدعى المتيجة مجاور لمدينة الجزائر، ثم يصب في البحر المتوسط قرب مدينة عتيقة تدعى تمندفوست[15].

---

(12) بل على بعد تسعة عشر ميلاً من تلمسان.

(13) هذا غلط لأن مينا أحد روافد الشلف.

(14) لا يمر الشلف في الحقيقة بين مزغران ومستغانم، لكنه يصب في البحر شمال هذه المدينة.

(15) ذكر أحمد توفيق المدني في كتاب الجزائر (ص 171) أن وادي الشفة ينزل من جبال موزايا، ويخترق مضيقاً من أبدع ما تراه العيون، ويتصل بوادي سيدي الكبير، ثم ينصب في وادي الجر قرب القليعة. ويتكون من ذلك وغيره وادي مازافران الذي ينصب في البحر شرقي القليعة ــ غرب مدينة الجزائر ــ. أما النهر الذي لا يبعد مصبه عن أطلال المستعمرة الرومانية المعروفة عند البربر بتمندفوست فهو وادي حمير ــ في خليج الجزائر في رأس ماتيفو ــ.

النهّر المدعوّ الواد الكبير

ينبع هذا النهر من جبال متاخمة لإقليم الزاب، وينحدر بين جبال شاهقة إلى أن يصب في البحر المتوسط، على بعد نحو ثلاثة أميال من بجاية. ولا يفيض إلاّ أيام الشتاء والثلج وليس من عادة صيادي بجاية أن يصطادوا فيه لقربهم المباشر من البحر.

السُّمَار

ينبع نهر السمار[16] من جبال متاخمة لجبل الأوراس، وينحدر عبر بادية جافة ليخرج في إقليم قسنطينة، وهناك يدخل تحت الأرض ويتصل بنهر آخر صغير. ثم يتوجه نحو الشمال، تارة بين تلال وأخرى بين جبال إلى أن يصب في البحر المتوسط، بعد أن يفصل إقليم مدينة الْقَالَة عن إقليم قصر جِيجَل.

يَدُوغ

يدوغ[17] نهر ليس بالكبير جداً، ينبع من بعض الجبال المجاورة لمدينة قسنطينة ويسيل بين جبال نحو الشرق إلى أن ينصب في البحر المتوسط قرب عَنَّابة.

---

(16) وادي السُّمَار ــ كما في كتاب **الجزائر**، ص 171 ــ من فروع وادي الحراش المتكون في جبال البليدة، المخترق سهول المتيجة، المنصب على بعد 8 كيلومترات من مدينة الجزائر. وهذا غير ما ذكره الوزان هنا، لذلك أول معلق الترجمة الفرنسية المنقول عنها اسم النهر فجعله وادي الرمل أو الرميل، وهو أقرب إلى الموضوع وأبعد عن التسمية.

(17) ينطبق الوصف المذكور في هذه الترجمة على نهر السيبوز الذي يجمع أودية شرف وبوحمدان ووادي الزناتي قبل أن يصب قرب عنابة.
انظر أحمد توفيق المدني، **كتاب الجزائر**، ص 170.

واد البَرْبَر

ينبع هذا النهر من بعض الجبال المتاخمة لإقليم مـدينة أوربس، ولا يزال يسيل بين تلال وجبـال. ومجراه كثـير الانعراجـات حتى أن المسافرين من تونس إلى عنابة يضطرون إلى اجتيازه حوالي خمس وعشرين مرة مع انعدام أي جسر أو زورق. وينصب أخيراً في البحر المتوسط قرب مرسى خال يسمى طَبْرقة، على بعد نحو خمسة عشر ميلاً من بَاجَة[18].

المْجَرْدَة

المجردة نهر كبير جداً ينبع من الجبال المتاخمة لإقليم الزاب، قرب مدينة تبسَّة[19]، متجهاً نحو الشمال إلى أن يصب في البحر المتوسط في المكان المسمى غار الملح، على بعد نحو أربعين ميلاً من تونس. ويَفيض كثيراً أيام الشتاء حتى يضطر التجار المسافرون إلى الإقامة يومين وثلاثة أيام في انتظار انخفاض المياه لعدم وجود أي زورق هناك. ويبعد هذا الممر عن تونس بنحو ستة أميال، وبهذا يمكن تقدير قلة كفاية الأفارقة وخمول ذهنهم وقلة إقدامهم على العمل.

واد قَابِسْ

هو جدول ماء نابع في صحراء إلى جهة الجنوب، ينحدر عبر سهول رملية إلى أن يقتحم البحر المتوسط قرب مدينة قـابس. ولمائـه طعم الكبريت. وهو حار جداً، لا بد من تركه ساعة يبرد ليمكن شربه.

* * *

---

(18) النهر الصغير الساحلي الذي يقع مصبه عند طبرقة، هو المسمى اليوم الواد الكبير. لكن النهر الذي ينبع من منطقة الأوربص هو تيسة الرافد الأيمن للمجردة، والنهر الذي يجب قطعه 25 مرة في طريق تونس ـ عنابة لا يمكن أن يكون غير المجردة في مجراه الأعلى.

(19) واد ملاك هو الذي ينبع قرب تبسَّة ويصب بعد ذلك في المجردة.

تلك هي مجاري المياه التي تستحق الذكر في بلاد البربر. وهناك أخرى كثيرة وهامة لا نتعرض لها في هذا الكتيب حتى لا يطول بنا الحديث عن أشياء غير معروفة. ونتابع الآن كلامنـا عن أنهار نوميديا.

سُوس

نهر كبير نابع من جبال الأطلس، أي الفاصلة بين ناحية حاحة وناحية سوس. ينحدر نحو الجنوب بين هذه الجبال وينفذ إلى حقول ناحية سوس، ثم يسير غرباً إلى أن يلج المحيط قرب بلدة يقال لها كرطكَسيمة (أكَادير). ويفيض كثيراً في الشتاء حتى إنه يحمل كمية كبيرة من التربة الصالحة للفلاحة، لكنه يتناقص في الصيف حتى يمكن عبوره خوضاً بسهولة في بعض الأماكن.

دَرْعَـة

نهر ينبع من الأطلس عند حدود هسكورة، وينحدر إلى جهة الجنوب عبر إقليم درعة، ثم يمر في القفر منتشراً في بادية تنبت الكثير من العشب في فصل الربيع ويأتي إليها الأعراب المجاورون لرعي إبلهم، لكنهم غالباً ما يتحاربون من أجل هذه المراعي ويقتتلون.

ويعود هذا النهر جافاً في الصيف حتى يمكن قطعه مع الاحتفاظ بالأحذية، لكنه يفيض في الشتاء حتى لا يمكن قطعه بحال من الأحوال ولو كان هناك زوارق. ويكون ماؤه مالحاً عند القيظ.

زِيزْ

ينبع زيز من الأطلس في جبال تقطنها صنهاجة، ويسيل نحو الجنوب بين عدة جبال ماراً بالقرب من مدينة تدعى غرسلوين. ويستمر فيما وراء ذلك مخترقاً أقاليم الَخنْك ومْضَغْرة والـرّتَبْ، فيدخـل في بلاد مـدينة

سجلماسة ماراً بين أراضيها الزراعية ويخرج إلى القفر حيث يسيل قرب قصر سغيلة. ثم يكوّن بحيرة وسط الرمال[20]، حيث لا يوجد أي سكن، غير أن الصيادين من الأعراب يختلفون إلى ضواحيها لأنهم يجدون فيها صيداً حسناً جداً.

كِيْر

نهر نابع هو الآخر من الأطلس،يسيل نحو الجنوب عبر مفازات، ويمر بمنطقة آهلة بالسكان تدعى بني كُومي[21]، ويتوغل وراءها في القفر ليتحول أخيراً كذلك إلى بحيرة في وسط الصحراء[22].

* * *

لقد سبق أن حدثتكم عن النهر الذي سماه بطليموس النيجر في القسم الأول من هذا الكتاب الصغير، عندما تعرضت لأقسام افريقيا.

* * *

نهر النيل العظيم

إن الأشياء المتعلقة بالنيل ومجراه لعجيبة جداً، وكذلك الحيوانات التي تعيش فيه كالخيل والبقر البحرية والتماسيح التي لا يحصى عددها ولا تحد شراستها، كما سبق أن ذكرنا ذلك في القسم الخاص بالنيجر، وكما سنبيّنه في القسم الخاص بالحيوانات الغريبة في إفريقيا.

لم تكن التماسيح أيام المصريين والرومان تحدث من الأضرار مثل

---

(20) لم يبق ذكر لهذه البحيرة في الناحية.

(21) إن بني كومي في الواقع متاخمون لزُزفانة قبل أن يُصبّ في كير بايكلي حيث يجتمعان ويحملان اسم وادي الساورة.

(22) لقد اضمحلت هذه البحيرة منذ قديم بعد أن غمرتها الرمال.

ما تحدثه اليوم، وقد ازداد خطرها منذ دخل المسلمون إلى مصر. يروي المسعودي في كتابه[23] عن الاكتشافات العجيبة في العصور الحديثة أنه عندما كان أحمد بن طولون والياً على مصر من قبل جعفر المتوكل خليفة بغداد عام 270 للهجرة، عثر على تمثال تمساح من رصاص في حجم أحد هذه الحيوانات وعليه حروف مصرية. وقد وقع اكتشاف هذا التمثال في أسس معبد وثني، فأمر الوالي بتحطيمه وبدأت التماسيح منذ تلك السنة تلحق أضراراً كبيرة بالسكان. فاعتقد الناس أن هذا التمثال صُنع تحت أرصاد فلكية لاتقاء شر هذه الوحوش، لكن الذي يبدو غريباً هو أن التماسيح التي تعيش في النيل بين القاهرة والبحر لا تؤذي أبداً، بينما التي توجد على عالية القاهرة تفتك بالناس وتحدث أضراراً كثيرة.

يدوم فيضان النيل في مصر أربعين يوماً ابتداء من سابع عشر يونيو. ويدوم تناقصه أربعين يوماً كذلك. وقبل أن يصل الفيضان إلى مصر، يبقى طيلة شهر ماي وجزء من شهر يونيو وهو ينحدر في مجرى النهر[24]. وتختلف الآراء حول أصل النيل. فمنهم من يقول إنه ينبع من جبل يسمى جبل القمر، ومنهم من يزعم أنه ينبع في سهول مهجورة بسفح هذا الجبل من عدة عيون متباعدة جداً بعضها عن بعض. ويؤكد أنصار الرأي الأول أن النهر ينحط من الجبل بتدفق شديد إلى حد أنه يدخل تحت الأرض ثم يخرج من مختلف هذه العيون. لكن هذين الرأيين ليسا إلاّ مجرد افتراضات، إذ لم يشاهد قط شيء من ذلك، ولا يزال غير ممكن رؤية شيء منه.

---

(23) مروج الذهب ومعدن الجوهر، مطبوع أكثر من مرة.

(24) يعلن النيل الأزرق الآتي من أثيوبيا فيضانه بالخرطوم في 26 أبريل، ويضاف إليه هناك النيل الأبيض الآتي من البحيرات الاستوائية الكبرى في 19 ماي. ويلحق الفيضان بدنقلة في 17 ماي، وبأسوان في 29 ماي. ويقضي الفيضان 52 يوماً لقطع مسافة 2.759 كلم الفاصلة بين الخرطوم والقاهرة.

غير أن تجار إثيوبيا الذين يذهبون إلى دنقلة يقولون إن النيل يتسع في الجنوب شيئاً فشيئاً ويصير كأنه بحيرة، بحيث يتعذر التعرف على رسم مجراه. وينقسم في الجنوب كذلك إلى عدة فروع تسيل في هذه المغاور ممتدة شرقاً وغرباً ومانعة الناس من العبور للالتفاف حول تعرجات النهر.

ويؤكد عدد كبير من الإثيوبيين الذين يتنقلون في هذه النواحي على غرار الأعراب، أن بعض من فقدوا منهم إبلاً في وقت النزو ذهبوا لنشدانها نحو الجنوب على مسافة نحو ألف ميل، فلم يروا من النيل سوى بحيرات صغيرة وفروع كبيرة متتالية، وأنهم وجدوا جبالاً كبيرة جافة خالية. ويذكر نفس المؤرخ المسعودي وجود قوم متوحشين في هذه الجبال يجرون كالوعول ويأكلون العشب ويعيشون في الفلوات مثل الوحوش المفترسة. ولعل هذا من الأكاذيب الشائعة التي أضعفت الثقة والاعتماد على مؤلفات هذا المؤرخ. ويذكر أيضاً أنه يوجد في هذه الجبال كثير من الزمرد، ومن الممكن أن يكون هذا صحيحاً. ولو ذكرنا كل ما قاله الجغرافيون عن النيل لاستغرب الناس ودهشوا، وربما لم يصدقوا ذلك، فلنضرب عنه صفحاً حتى لا يضيع الوقت فيما لا ثقة فيه.

الحيوانات

ولننتقل الآن إلى الحيوانات، وليس من غرضي أن أتحدث عن كل ما يوجد منها بافريقيا، فذلك شيء يكاد يكون مستحيلاً، ولكن أذكر فقط ما لا يوجد منها في أوربا، أو يختلف عما هو فيها. وسأتعرض بالتتابع إلى الحيوانات البرية، فالحيوانات المائية والحيوانات الطائرة، ضارباً صفحاً عن أشياء كثيرة كتبها بلين الذي كان عالماً فريداً من نوعه، ورغم ذلك فإنه ارتكب أخطاء في بعض الجزئيات الخاصة بافريقيا، ولم يكن ذلك الخطأ منه، بل من الذين أخبروه والذين كتبوا قبله. وكما يقول المثل العامي العربي: «ماذا ينجس بول الطفل من مياه البحر؟!».

الفيل

الفيل حيوان وحشي لكنه يستطيع أن يتعلم. يوجد بكثرة في غابات بلاد السودان. وعندما يلتقي بإنسان يجتنبه ويخلي له المكان، لكن إذا أثاره الإنسان أمسكه بخرطومه الطويل ورفعه إلى السماء ثم رمى به إلى الأرض وداسه بأقدامه إلى أن يتركه كالميت. ورغم أن الفيل دابة عظيمة شرسة فإن صيادي إثيوبيا يقنصون الكثير منه بالكيفية التالية:

يذهبون إلى الغابات الكثيفة حيث يعرفون أن هذه الحيوانات تستريح في الليل، فينصبون هناك بين الأشجار عارضات من الأغصان القوية تكوّن سياجاً سميكاً، ويتركون به مكاناً صغيراً فارغاً. ثم يربطون به باباً يتركونه مبسوطاً على الأرض على شكل باب محرب يمكن رفعه بحبل لإغلاق الممر بسرعة. فإذا دخل الفيل في السياج بعد أن نام (واستيقظ) جذبوا الحبل بقوة ووقع في السجن. فينزل إذ ذاك الصيادون من الأشجار ويقتلون الفيل بالنبال ثم يأخذون أنيابه ليبيعوها. لكن إذا خرج الفيل من السياج قتل كل من وجد من الناس.

وفي الهند واثيوبيا العليا طريقة أخرى لصيد الفيل لا أذكرها.

الزَّرَافَة

الزرافة حيوان وحشي لا يكاد يُرى، لأنه يختفي في غابات وصحارى ليس بها حيوانات أخرى. يفرّ إذا رأى الناس لكنه بطيء في عدوه. رأسه رأس البعير، وأذناه أذنا الثور، وحوافره حوافر... [25] ولا يقنص الصيادون الزرافات الكبيرة أبداً، وإنما يذهبون إلى الغابات للبحث عن الصغار في مأواها.

---

(25) هنا بياض، وقد ترجم طمبورال هكذا: «... أذنا الثور وحوافر الثور...».

البعير

البعير حيوان أهلي هادىء جداً، توجد منه كمية عظيمة في افريقيا، خصوصاً في صحارى نوميديا وليبيا وحتى في بلاد البربر. وتكوّن الإبل ثروة الأعراب وأرزاقهم، وعندما يراد ذكر ثروة أمير أوشريف من الأعراب يقال: «فلان له مقدار كذا من آلاف الإبل»، ولا يقال: «له مقدار كذا من الدنانير أو الممتلكات».

وجميع الأعراب الذين يملكون الإبل أمراء يعيشون أحراراً، إذ بها يستطيعون الإقامة في الصحارى التي لا يقدر ملك ولا أمير أن يذهب إليها لجفافها.

توجد هذه الحيوانات في كل أنحاء العالم، في آسيا وافريقيا وحتى في اوربا. ويملكها في آسيا التتر والأكراد والديلم والتركمان، كما يستعملها في اوربا الأمراء الأتراك في قوافلهم، وكذلك في افريقيا بالنسبة للأعراب وسكان صحارى ليبيا. ويقتنيها أيضاً جميع الملوك لحمل مؤنهم وأمتعتهم، إلا أن إبل افريقيا أفضل من إبل آسيا لأنها تحمل الأثقال مدة أربعين أو خمسين يوماً دون أن تستلزم علفاً في المساء، وإنما تنزل عنها الأحمال وتترك ترعى في البرية قليلاً من العشب والشوك وأغصان الشجر، وذلك ما لا يمكن عمله مع إبل آسيا.

ويجب عند السفر أن يكون الجمل كثير السمن مملوء البطن. فقد أظهرت التجربة أن الجمل عندما يسافر خمسة أيام وهو يحمل الثقل دون أن يأكل، يذهب أولاً شحم سنامه، ثم بعد خمسة أيام أخرى يذهب شحم بطنه، ثم شحم ساقيه بعد خمسة أيام كذلك. وإذا فقد شحمه كله لا يستطيع حمل مائة رطل، لذلك فإن التجار الذين يستعملون الإبل بآسيا يعلفونها كل مساء، الأمر الذي يضطرهم إلى أن يأخذوا مع كل جمل يحمل ثقلاً جملاً آخر يحمل علفاً. وهكذا فإن الجمال في قوافل آسيا تسير وهي محمّلة دائماً، سواء في الذهاب والإياب، وتبقى مع ذلك سمينة

ولو ضاعفت الأسفار. لكن التجار الأفارقة الذين يذهبون إلى إثيوبيا لا يهتمون بالرجوع، لأن دوابهم تعود فارغة، إذ ما يأتون به من إثيوبيا قليل الوزن بالنسبة لما يحملون إليها، ولذلك فإن جمالهم تكون هزيلة وتصبح ظهورها مصد ألم لها عندما تصل إلى إثيوبيا. فتباع حينذاك بدراهم معدودة إلى أهل الصحراء الذين يعملون على إصلاح حالها.

ولا يحتاج التجار لعودتهم إلى نوميديا أو إلى بلاد البربر إلا لعدد قليل من الدواب لحملهم ونقل المؤ ن والذهب وبعض الأشياء الخفيفة.

والإبل ثلاثة أصناف ــ أو إن شئتم ثلاثة أنواع ــ يدعى الصنف الأول منها هُجْنا، وهي ضخمة طويلة وحاملات ممتازة، لكنها لا تستطيع أن تحمل ثقلاً قبل أن تبلغ السنة الرابعة، وحينئذ يصبح أضعفها قادراً على حمل ألف رطل ايطالي. ولوضع الأحمال عليها تلمس بقضيب في ركبتيها وعنقها فتبرك حيناً في الأرض بالغريزة. وبمجرد ما يحس البعير بما يكفيه من الوزن الموضوع عليه يقف. ومن عادة الأفارقة الذين يرغبون في احتفاظ إبلهم بمزاياها كحاملات أن يُخصوها غير محتفظين إلا بذكر واحد لعشر من الإناث.

ويدعى البعير من الصنف الثاني بُخْتاً، وله سنامان، كلاهما صالح لحمل الثقل أو الركاب، لكنه لا يوجد إلا في آسيا.

ويطلق اسم رواحل على إبل النوع الثالث، وهي نحيلة الجسم رقيقة الأعضاء لا تصلح لغير الركوب، لكنها سريعة جداً، أغلبها قادر على قطع مائة ميل أو أكثر في اليوم، مع الاحتفاظ بالعَدْوِ مدة ثمانية أيام أو عشرة في الفلاة بأقل زاد. ويستعملها جميع الأشراف من أعراب نوميديا وأفارقة ليبيا مطايا لهم. وإذا أراد ملك تمبكتو إبلاغ أمر هام إلى تجار نوميديا، أرسله بواسطة ساع راكب أحد هذه الجمال التي تقطع مسافة تسعمائة ميل بين تمبكتو ودرعة أو سجلماسة في ظرف سبعة أيام

أو ثمانية. إلا أنه من الضروري أن يكون للمكلفين بمثل هذه المهام خبرة كبيرة بالصحراء، ويطلبون للسفر ذهاباً وإياباً أجرة قدرها خمسمائة مثقال.

ويكون نزو الإبل في أوائل الشتاء، فلا تتصارع حينئذ بينها فحسب، لكنها تهاجم الذين آذوها حتى تقتلهم، لأنها تتذكر كل لحظة تلقت فيها الضربات من صاحبها. وإذا أمسكت أحداً بين أسنانها تركته يسقط ثم داسته بقوة بأخفافها الأمامية. ولا يدوم نزوها إلا أربعين يوماً ثم تعود هادئة. وتصبر على العطش صبرها على الجوع. ففي استطاعتها أن تبقى خمسة عشر يوماً دون أن تشرب ولا أن تتآذى بذلك. وإذا أورد أحد إبله كل ثلاثة أيام أضرّها ذلك لاعتيادها الورود كل خمسة أيام فقط أو كل تسعة أيام، بل وكل خمسة عشر يوماً إن اقتضى الحال. وللجمال إحساسات عاطفية طبيعية وبعض العواطف الإنسانية. وهكذا فقد يتفق أن الذين يسوقونها في الطريق بين إثيوبيا وبلاد البربر يضطرون إلى قطع مرحلة أطول من المعتاد. فإذا لاحظوا أن جمالهم تأبى أن تسير أبعد من ذلك، لم يرغموها على المسير بالضرب وإنما يغنون لها ألحاناً خاصة تطرب لها وتتابع سيرها بأسرع مما تفعله الخيل المدفوعة بالسوط والمهماز، حتى إن حُداتها يشق عليهم اتباعها.

وشاهدت بالقاهرة جملاً يرقص على إيقاع طبلة، فأخبرني صاحبه بالطريقة التي درَّبه عليها. وإليكم ما فعل: اختار جملاً صغيراً وأخذ يحبسه مدة نصف ساعة في حجرة مبنية على شكل حمام أرضها مسخّنة بموقد، ويكون الرجل في هذه الأثناء خارج الحجرة يعزف بالطبلة. فكان الجمل يرفع رجلاً تارة ورجلاً أخرى تارة كأنه يرقص، لا من أجل هذا العزف ولكن من أجل الحرارة التي كانت تؤلمه. وبعد عشرة أشهر أو سنة من هذا التدريب جاء المربي بالحيوان إلى ساحة عمومية، وبمجرد ما سمع الطبلة ظن أنه على نفس الأرض متذكراً فقط حرارة النار فرفع أرجله بنفس الطريقة،

حتى إن الناظر إليه يظنُّ أنه يرقص. وبما أن العادة طبيعة ثانية فإن الجمل لم يفقد بعد ذلك هذه العادة قط.

وفي إمكاني أن أقول أشياء أخرى كثيرة عن الجمل، إلا أنني أضرب عنها صفحاً حتى لا أكون مملاً.

فرس المغرب

تسمى هذه الخيول في ايطاليا «بربري» وكذلك في اوربا كلها[26] لأنها تأتي من بلاد البربر. وهي من نوع يولد في هذه البلاد. وقد يخطىء من يظن أنها من جنس خاص، لأن الخيل العادية في بلاد البربر مثل التي في غيرها من البلاد.

إلا أن الخيل الأكثر خفة وسرعة سواء في الشام أو مصر أو الجزيرة العربية الصحراوية أو السعيدة (اليمن) أو في آسيا، تسمى الخيول العربية. ويعتقد المؤرخون أن هذا النوع من الخيل نتج عن الأفراس الوحشية التي كانت تتيه في فلوات الجزيرة العربية، وأن العرب جعلوا يدجنونها منذ عهد إسماعيل، فتكاثر عددها وانتشرت في افريقيا كلها. وهذا الرأي عندي صحيح إذ ما زال حتى الآن يشاهد بعض هذه الأفراس الوحشية في قفار الجزيرة العربية وبعض الصحارى الافريقية. وقد رأيت بنفسي في صحراء نوميديا أثناء رحلتي الثانية إليها مهراً ابن سنة ونصف كان أبيض اللون منتصب العرف وحشي الوجه، ولم يكن بعيداً عني بأكثر من رميتي حجر.

وأهم اختبار لسرعة هذه الخيل هو العَدْوُ وراء حيوان يدعى اللمت أو خلف نعامة. فإذا أدرك أحد هذين الحيوانين قُدّر ثمنه بألف مثقال أو مائة بعير.

---

(26) غلب عليها في فرنسا اسم «بارب».

ولا يوجد إلا القليل من الخيول العربية في بلاد البربر، إلا أن أعراب الصحراء وأهل ليبيا يربّون الكثير منها ولا يستعملونها للسفر ولا للحرب بل للصيد فقط. ولا يطعمونها غير لبن النياق مرتين في النهار والليل، وكذلك يحافظون على نشاطها وخفتها ولو أنها تبدو ضامرة، ويتركونها ترعى العشب في فصل الربيع لكنهم لا يركبونها في ذلك الوقت.

وليس للخيل التي يملكها ملوك بلاد البربر مثل هذه السرعة في السباق، لكنها أكثر حسناً وامتلاء، لأنها تعلف الحبوب. وبفضل هذه الخيل ينجون بأنفسهم إذا ما اضطروا إلى الهروب من وجه أعدائهم.

الفرس الوحشيّ

يعتبر الفرس الوحشي كصيد ولا يُرى منه إلا النادر. وإذا اصْطاد أعراب القفر واحداً أكلوه، ويقولون إن لحمه لذيذ لا سيما إذا كان جذعاً. إلا أنه من النادر أن يصطاد فرس وحشي بالخيل والكلاب، بل تصنع حبال توضع عند الماء الذي يرده هذا الحيوان وتغطس بالرمل، وبمجرد ما يضع قوائمه في هذا الفخ يتعرقل بحيث يرغم على البقاء هناك، وهكذا يمكن القبض عليه.

اللَّمْت

هو حيوان يشبه الثور في شكله لكنه أصغر منه، وحوافره وقرونه أدق. يميل لون جلده إلى البياض، إلا أن أظلافه شديدة السواد. وهو سريع جداً بحيث لا يسبقه حيوان آخر في الجري ما عدا بعض الخيول المغربية كما سبق أن قلناه. ويصطاد بسهولة في الصيف لأنه يفقد بسبب حرارة الرمل أظلافه وسرعة عدوه، حتى يمنعه الألم من العدو. وتصطاد الغزلان والوعول لنفس السبب. وتصنع من جلد اللمت تروس صلبة جداً بحيث لا يخترقها شيء باستثناء القذائف النارية، لكن هذه التروس تباع بأثمان باهظة.

الثَّور الوحشيّ

يشبه هذا الحيوان الثور، لكنه أصغر منه أيضاً. ويكاد لون البقر الوحشي كله يكون رمادياً أسمر. وهو أيضاً كثير السرعة ولا يوجد إلا في الصحارى أو تخومها. ولحمه ممتاز.

الحمار الوحشيّ

يوجد الكثير من هذه الحمر في القفر، ولونها رمادي أسمر، وهي شديدة السرعة لا تسبقها إلا الخيول المغربية. وعندما تبصر إنساناً تأخذ في النهيق والرفس، وتمكث في مكانها إلى أن يقترب منها الإنسان حتى يوشك أن يمسها بيده فتفر حينئذ. يقنصها أعراب الصحراء بأشراك وآلات أخرى. وتجتمع حمر الوحش في قطيع عند رعيها وورودها الماء. ولحمها جيد إلا أن رائحته كريهة عندما يكون ساخناً تفوح منه رائحة الوحش، لكنه يصير ممتازاً ولذيذاً إذا ترك يبرد مدة ساعتين بعد طهيه.

بقر جبال افريقيا

إن جميع البقر الداجن الذي يولد في جبال افريقيا صغير القامة إلى حد أنه يشبه العجول التي بلغ سنها عامين من عجول البقر العادي. غير أن الجبليين يستخدمونها للحرث ويدعون أنها قوية جداً صبورة على التعب.

الدَّمَّانْ

هذا الحيوان داجن، شكله شكل الخروف، إلا أن قامته قامة حمار قصير وأذناه طويلتان متدليتان. يملك أهل ليبيا قطعان أغنام من هذا النوع، يستخرجون منها كيمة من اللبن يصنعون منه الزبد والجبن، وصوفها جيد لكنه قصير. وللإناث وحدها قرون بخلاف الذكور. والدمان

هادىء جداً، أردت مرة أثناء طفولتي الجامحة أن أختبر قوة هذا الحيوان، فركبت كبشاً حملني مسافة ربع ميل. ولا يوجد الدمان بكثرة إلا في صحارى ليبيا، ويُرى القليل منه مع ذلك في بلاد نوميديا، لكنه يُعتبر هناك كأشياء غير عادية.

الغنم

لا تختلف هذه الغنم عن غيرها إلا بذيلها العظيم. وكلما كان الذيل ضخمًا كان الحيوان سميناً. ومنها ما يزن ذيله خمسة عشر إلى عشرين رطلاً، ويحدث ذلك عندما تتغذى بنفسها. لكن الكثير من الناس في مصر يتعاطون إلى تسمينها، ويطعمونها النخالة والحبوب، فيتضخم ذيلها لدرجة أن الذين يعلفونها يربطونه في عربة صغيرة لتتمكن من السير. وشاهدت بأسيوط، وهي مدينة مصرية على النيل بعيدة بمائة وخمسين ميلاً[27] من القاهرة، أحد هذه الخرفان يزن ذيلها ثمانين رطلاً. ويؤكد الكثير من الناس أنهم رأوا منها ما يزن مائة وخمسين رطلاً. وشحم هذا الحيوان كله في ذيله. ولا يوجد إلا في تونس ومصر.

الأسد

هذه الحيوانات وحشية وخطيرة على سائر الحيوانات. وهي أقوى منها وأكثر شجاعة وشراسة، لا تفترس الأسود الحيوانات فقط بل الناس أيضاً، ومنها ما تتجرأ في بعض الأماكن على مهاجمة مائتي فارس، يرتمي كل أسد على القطيع بدون تردد مختطفاً منه فريسة يحملها إلى الغابة أو العرين الذي يحتضن أشباله. أما الفرسان فيقتل منهم ــ كما قلت آنفاً ــ خمسة أو ستة. والأسود التي تعيش في الجبال الباردة أقل جرأة وشراسة وإذاية،

(27) سبق قلم، بل مائتين وخمسون ميلا، وهو الرقم الصحيح الذي قدّمه المؤلف عندما وصف أسيوط في القسم السابق.

لا سيما بالنسبة للإنسان. وبعكس ذلك، كلما اشتد الحر زادت شراستها وجرأتها. ذلك شأن الأسود التي توجد بين تامسنا ومملكة فاس، وفي صحراء أنكَاد بالقرب من تلمسان، وبين عنابة وتونس. وهي أشهر أسود افريقيا كلها وأكثرها شراسة. تتقاتل بينها قتالاً دامياً في الشتاء عند النـزو، ويا تعس من تصادفه! ويشاهد أحياناً عشرة أسود أو اثنا عشر تتبع نفس اللبؤة.

وقد سمعت من رجال ونساء كثيرين أن ما على المرأة إذا وجدت نفسها أمام أسد في مكان منفرد إلا أن تكشف له عن عورتها، فيزأر إذ ذاك الأسد زئيراً قوياً ويغض الطرف ثم ينصرف. وليعتقد كل أحد ما شاء!

وأخيراً فإن الأسد يحمل في فمه كل ما اصطاده ولو كان جملاً، وقد كدت مرتين أن أكون فريسة الأسود، ونجوت فيهما من الخطر بلطف الله.

النُّمور

تعيش هذه الحيوانات في غابات بلاد البربر، وهي قوية شرسة لكنها لا تؤذي الإنسان إلا في حالات نادرة حين تصادف أحداً في بعض الطرق الضيقة التي لا تساعد على الفرار. وتهاجم أيضاً كل من صرخ أو تحداها، فيقفز الوحش عندئذ على ظهر الإنسان، ممزقاً وجهه بأظفاره ومقتلعاً كل ما أمكنه من لحمه. ويكسر أحياناً رأسه ويقتله. لا يهاجم النمر أبداً قطعان الماشية، لكنه عدوٌّ لدود للكلاب فيقتلها ويفترسها. ومن عادة سكان جبال ناحية قسنطينة أن يصطادوا النمر على الخيل. يسدون أمامه جميع المنافذ، وعندما يحاول الفرار يجد على المنفذ عدداً من الفرسان، فيسرع إلى الآخر فيجد فرساناً آخرين. ويُقتل في الأخير بعد أن يجري عبثاً في كل الجهات. ويفرض على كل من تركه يخلص من المكان الذي يحرسه أن يقيم وليمة لسائر الصيادين ولو بلغ عددهم ثلاثمائة صياد.

الضَّبُع

الضبع حيوان في حجم الذئب وشكله تقريباً، وتشبه رجلاه ويداه أعضاء الإنسان السفلى، ويسميه العـرب ضبعاً والأفـارقة إفِيس[28]. لا يؤذي هذا الحيوان غيره من الحيوانات، لكنه ينبش عن القبور ويأكل جثث الأموات. وهو كريه بليد، إذا اكتشف الصيادون المغارة التي يأوي إليها قصدوها وهم يضربون على الطبلة ويغنون. فيطرب الحيوان إلى هذا الغناء حتى إنه لا ينتبه إلى الرجل الذي يربط أرجله بحبل متين، فإذا شد وثاقه أخرج من جحره وقتله الصيادون الآخرون[29].

قطُّ الزَّبَاد

هذه القطط وحشية بطبيعتها، موجودة في غابات إثيوبيا، يصطادها التجار وهي صغيرة، فيربونها في القفص ويغذونها باللبن وحساء النخالة، بالإضافة إلى اللحم. ويستخرجون منها الزباد مرتين أو ثلاث مرات في اليوم، وما هو إلا عرق الحيوان. فيضرب القطّ بقضيب صغير ليتحرك في قفصه حتى يعرق، ثم يجمع العرق تحت إبطيه وفخذيه وذنبه، وذلك ما يكوّن الزباد.

القِرَدَة

القردة أجناس مختلفة، منها المذنَّبة التي تدعى «مونِّي» بالايطالية، ومنها غير المذنَّبة وتسمى «بابويني». توجد كمية وافرة من القردة في جبال موريطانيا وجبال قسنطينة. وهي شبيهة جداً بالإنسان ـ كما هو معروف ـ

---

(28) كتب في الأصل أسيف.

(29) إن ميل الضبع للموسيقى مشبوه فيه كثيراً، لكن أمثلة عديدة تبرهن على أن هذا الحيوان يصاب بنوع من الكبت عندما يفاجأ في مغارته.

لا في أرجلها وأيديها فحسب، ولكن أيضاً في وجوهها. وقد حبتها الطبيعة بدهاء وذكاء عجيبين، تتغذى بالأعشاب والحبوب. وإذا أرادت أن تختلس السنابل جاء منها عشرون أو ثلاثون مجتمعين، وبقي واحد خارج الحقل ليعس، وبمجرد ما يرى صاحب الحقل قادماً يطلق صرخات حادة، فتسرع الأخرى بالهرب وهي تقفز على الأشجار قفزات عظيمة من شجرة إلى أخرى. وتحمل الإناث صغارها على أكتافها وتقفز بها وهي متعلقة بها. وتقوم القردة المدربة بأشياء عجيبة. وهي حيوانات غضوبة شريرة، لكنها تهدأ بسهولة.

الأرانب

توجد الأرانب الوحشية بكمية كثيرة في جبال غمارة وموريطانيا، وتصاد فيها كما تصاد الأرانب البرية.

يقول الكثير من جغرافيي البلاد إن هذه الحيوانات لم تكن وحشية في قديم الزمان، إلا أنه بعد أن استولى الرومان والقوط على دول افريقيا أصبح عدد كثير من المدن والقصور مهجوراً، فتوحشت الأرانب التي كانت فيها والتجأت إلى الغابات. ولا يجزم بصحة هذا القول أو بعدم صحته، لكنه يمكن أن يصدق، لأن لحم هذه الأرانب الوحشية له نفس لون وطعم لحم الأرانب الداجنة.

الأسماك

سمك الْعَنْبَرة

لنتكلم الآن على الأسماك: العنبرة سمك مرعب فظيع في شكله وحجمه، ولا يُرى أبداً إلا ميتاً، لأن البحر يقذف به على الشاطىء. ورأسه صلب جداً كأنه من حجر. ومنه ما يبلغ طوله خمسة وعشرين ذراعاً أو أكثر. ويقول سكان ساحل المحيط إن هذا السمك هو الذي يفرز العنبر، ولكنهم يختلفون فيما إذا كان يحصل من برازه أو من منيه. ومهما يكن من أمر فإنه حريّ بأن يدعى حوتاً بسبب شكله.

فرسُ الماء

يوجد هذا الحيوان في النيجر وكذلك في النيل، له شكل فرس لكن بدون شعر، جلده صلب جداً وقامته قامة حمار. يعيش في الماء والبر على السواء، لكنه لا يخرج من الماء إلا ليلاً. وهو شرير خطير على الزوارق الصغيرة التي تنحدر في النيجر وهي محملة، فإذا اصطدمت بظهره قلبها وأغرقها. ويا ويل لمن لا يحسن السباحة!

ثَوْرُ الماء

هو حيوان يشبه الثور في جميع أطرافه، لكنه أصغر منه بكثير، وقامته قريبة من قامة عجل ابن ستة أشهر. يوجد في النيجر وكذلك في النيل، ويأخذ الصيادون ما يعيش من ثيران الماء طويلاً في البر. وجلودها شديدة

الصلابة. ورأيت واحداً منها في القاهرة يسوقه رجل بسلسلة في عنقه، قال لي إنه اصطاده في النيل قرب إسنا، وهي مدينة على بعد نحو أربعمائة ميل جنوب القاهرة[30].

السُّلَحْفَاةُ العِمْلاقة

كان الواجب أن يُعدّ هذا الحيوان من جملة الحيوانات البرية لأنه يعيش في الصحارى، ويوجد في صحراء ليبيا كثير من هذه السلاحف التي يبلغ حجمها بوطة[31]. وذكر الجغرافي البكري في كتابه عن ممالك افريقيا ومسالكها أن رجلاً فاضلاً كان ليلة في أحد قفار ليبيا هذه وقد تعب من سفره، فأبصر بقربه صخرة عالية رأى أن ينام عليها ليتقي أذى بعض الدواب السامة، ففعل، ووجد نفسه في صباح الغد على مسافة ثلاثة أميال من المكان الذي توقف فيه. فذهل ولاحظ إذاك أن ما توهمه صخرة كان سلحفاة عملاقة، تظل واقفة بالنهار وتسير ليلاً لترعى لكن ببطء شديد بحيث لا تثير الانتباه[32]. ولم أرَ قط سلاحف بهذا الحجم، إلا أنني رأيت بعضها في حجم برميل كبير[33]. ويزعم سكان الصحراء أن كل من أصيب بالبرص منذ أقل من سبع سنوات وأكل من لحمها طيلة سبعة أيام شُفي منه. وهم يعرفون عدة وصفات سرية مبنية على خصائص هذا الحيوان. إلا أنني لن أتكلم عنها لأن هذا الكتيب ليس تأليفاً في الطب.

---

(30) تقع إسنا، على بعد أربعمائة وستة وتسعين ميلاً، جنوب القاهرة على طريق النهر.

(31) البوطة: مكيال للخمر سعته نحو 933 ليتر.

(32) ذكر البكري فعلاً السلاحف العملاقة المائية منها والبرية، لكن القصة التي يرويها المؤلف ليست نفس القصة، فالأمر يتعلق بمسافر وضع أمتعته على ما توهمه حجرة ضخمة لوقايتها من الأرضة ولم يجد شيئاً في الصباح. فتتبع أثر السلاحفاة ووجدها بعيدة من هناك بعدة أميال والأمتعة لم تزل على ظهرها.

(33) البرميل أو البريلي: هو جزء من ستة عشر جزءاً من البوطة (نحو 58 ليتراً).

التّمساح

يُوجد كثير من التماسيح في النيجر والنيل، وهو حيوان خبيث يؤذي كثيراً، ويبلغ طوله اثني عشر ذراعاً، وطول ذنبه بقدر طول سائر جسده، إلا أنه من النادر العثور على ماله هذه الأبعاد. له أربعة أرجل وشكله تماماً شكل الوزغ، ولا يتعدى علوه ذراعاً ونصفاً. يبدو ذنبه وكأنه مؤلف من سلسلة حلقات، وجلده صلب لدرجة أنه لا يمكن أن تخترقه قذيفة قوية. ولا تأكل بعض التماسيح غير السمك، ويأكل بعضها الحيوانات البرية والإنسان، فتختبىء بدهاء عظيم قرب ضفاف النهر التي يختلف إليها الناس وكثير من الدواب، فإذا أبصرت أحداً رمت بذنبها فجأة خارج الماء، وأحاطت بالرجل أو الحيوان ثم سحبته إلى الماء وافترسته.

وإذا أكل التمساح تحرّك فكه الأعلى وحده، لأن فكه الأسفل ملتحم مع عظام الصدر. وليست جميع التماسيح من هذا النوع، وإلا لما استطاع أحد أن يسكن على ضفاف النيجر أو النيل.

كنت مبحراً مرة في سفينة ذاهبة من القاهرة إلى قنا، وهي مدينة في مصر العليا على بعد أربعمائة ميل من القاهرة، وبلغنا منتصف الرحلة في ليلة احتجب فيها القمر قليلاً بالسحب، وكانت الرياح تسرع بنا، والبحّارة والمسافرون كلهم نيام. أما أنا فدخلت قمريتي حيث كنت اشتغل تحت ضوء شمعة، وإذا بشيخ فاضل يناديني، وكان ساهراً يصلي. فقال لي: «يا هذا، نبِّه أحد أصحابنا ليعينني على التقاط قطعة كبيرة من الخشب تنفعنا كثيراً غداً لطهي الطعام!» فأجبته: «أتريد أن آتي أنا؟ ذلك خير من إيقاظ أحد في هذه الساعة». وكان الوقت منتصف الليل تقريباً. فقال لي الشيخ: «سأريك أنني قادر على إمساكها وحدي!». ولما قدّر أن السفينة صارت قريبة من قطعة الخشب أدلى يديه ليوثقها بربقة، وفي الوقت ذاته برز من الماء ذنب طويل استدار على وسط الشيخ وأسقطه حيناً في النهر، فجعلت أصيح، وقفز جميع من كانوا في السفينة على أرجلهم، ثم أنزل

الشراع وتوقفت السفينة، فارتمى عدد كثير من الناس في الماء وبقينا ساعة كاملة والسفينة مربوطة في حافة النهر لكن بدون جدوى. ولم يعثر للشيخ على أثر، وتيقّن الجمع أن التمساح افترسه.

وبينما كنا نتابع طريقنا في النهر أبصرنا منها جماعات تتركب من عشرة إلى اثني عشر تمساحاً على جُزَيرات النيل، وكانت فاتحة أفواهها في الشمس، بينما كانت طيور صغيرة بيضاء في حجم السمنة تدخلها وتمكث فيها هنيهة ثم تخرج وتطير إلى جهة أخرى. فاستفسرت عن الأمر فقيل لي إن التماسيح تأكل كثيراً من السمك وغيره من الحيوانات، فيبقى دائماً على لثّاتها وبين أسنانها فتات اللحم فيتعفن ويتولد عنه دود صغير يزعجها، فتبصر الطيور في تحليقها هذا الدود وتدخل في فم التمساح لتأكله. وفي إمكان التمساح أن يطبق فمه ليزدرد الطائر لكن لهذا الطائر في قمة رأسه شوكة صلبة وحادة تخز حنك التمساح وترغمه على فتح فيه ثانياً فيتمكن الطائر من النجاة. ولا شك أنني لو حصلت على أحد هذه الطيور لرويت هذه القصة بكيفية أكثر وثوقاً.

تبيض التماسيح في الأرض ثم تغطي بيضها بالرمل، وبمجرد ما تتولد الصغار تدخل النهر، وهناك أيضاً بعض التماسيح التي تقيم بالصحراء وتتحاشى الماء، وهي سامة بخلاف التي تعيش في النهر.

ويأكل كثير من الناس في مصر التمساح ويؤكدون أنه لذيذ جداً، ويباع شحمه في القاهرة بثمن مرتفع، يقال إنه نافع لشفاء الجروح المزمنة والأكالية.

وتصطاد التماسيح بالكيفية الآتية: يأخذ الصيادون حبلاً غليظاً طوله مائة ذراع أو أكثر، يثبتون أحد طرفيه بقوة في شجرة ضخمة أو عمود مغروز لهذا الغرض على حافة النيل، ويثبتون في الطرف الآخر كلّاباً من حديد طوله ذراع في غلظ أصبع الإنسان يربطون فيه شاة أو عنزة حية. وعندما يصيح الحيوان يخرج التمساح من الماء متوجهاً إلى الضفة ويبتلع

الحيوان بسرعة مع كُلاب الحديد الذي ينفذ إلى أمعائه ويثبت بحيث يستحيل إخراجه. وعندئذ يأخذ الصيادون في إرخاء الحبل تارة وجرِّه إليهم أخرى، فيتخبّط التمساح ضارباً بذيله يميناً وشمالاً إلى أن يقهر ويخرّ صريعاً كالميت. فيقتله الصيادون حينئذ بالحراب ويشقون فمه وباطن أرجله والمكان الذي يرق فيه الجلد من بطنه، بينما يكون جلد ظهره غليظاً صلباً لدرجة أن ضربة من قاذفة أو مدفع صغير لا تكاد تكفي لاختراقه.

ورأيت على أسوار مدينة قنا أكثر من ثلاثمائة رأس تمساح معلقة فاغرة أفواهها، وهي أفواه في غاية السعة والكبر تستطيع بقرة كاملة أن تدخل في واحد منها، وكانت أسنانها حادة طويلة. وجميع الصيادين المصريين عندما يصطادون تمساحاً يقطعون رأسه ويعلقونه على السور، كما يفعل الصيادون برؤوس الحيوانات المفترسة.

التنّين

توجد في بعض مغارات الأطلس تنانين عظيمة، وهي دواب (حيات) ثقيلة تتحرك بصعوبة، لأن جزءاً من جسمها وهو الأعلى غليظ جداً، والباقي دقيق جداً، سواء من جهة الذيل أو الرأس. وهي سامة جداً، فإذا اتفق أن أحداً لسعته، تفتت لحمه حيناً، وصار ليناً كالصابون ولا يستطيع النجاة.

الهِيْدْرَة

الهيدرة أفعى قصيرة دقيقة الرأس والذنب، توجد بكثرة في صحراء ليبيا، وسمّها مؤثّر جداً. يقال إن من لسعته هذه الأفعى لا دواء له سوى بتر العضو الملسوع قبل سريان السم إلى سائر الأعضاء.

الضَّبُّ

يعيش هذا الحيوان في القفار ويشبه الوزغ في شكله، لكنه أضخم منه. طوله ذراع رجل وعرضه أربعة أصابيع، لا يشرب أبداً، وإذا ما أرغم على الشرب بوضع الماء في فيه مات لحينه. وبيضه كبيض السلحفاة. ولا سمّ فيه. رأيت أعراباً يأخذون منه في الصحراء فأخذت منه بدوري وذبحته، غير أنه لا يسيل منه دم كثير، ولا يسلخ جلده إلا عند أكله بعد أن يشوى. ولحمه لذيذ كلحم الضفدع، وله نفس الطعم. وهو سريع كالوزغ. وإذا اختفى في غار وبقي ذيله خارجاً فلا تستطيع أية قوة إخراجه منه، فالصيادون يوسعون الغار بمعول صغير ويمسكونه. وإذا قرب من النار بعد ثلاثة أيام من ذبحه تحرّك كما لو كان قد ذبح في تلك الساعة.

الْوَرَل

الورل[34] حيوان يشبه الضب إلا أنه أكبر منه، وسمّه في رأسه وذنبه. ورأيت أعراباً يقطعون هذين الطرفين ويأكلونهما. لونه قبيح وشكله كريه، بحيث إنني لم أقدم قط على أكله.

الحِرْبَاء

الحرباء حيوان في حجم الوزغ، لكنه قبيح أحدب هزيل ذو ذنب طويل كذنب الفأر. يسير ببطء ويتغذى بالهواء وأشعة الشمس[35]، فبمجرد ما يظهر شعاع يدور نحوه فاتحاً فاه ويدور معه أينما دار. ويتغير لونه حسب تغير الأماكن التي يوجد فيها، فإذا كان فوق سواد

---

(34) حُرّف هذا الاسم العربي في الفرنسية إلى فرن، وليس ساماً كما ذكر المؤلف.

(35) لقد اعتُقد هذا طويلاً، إذ أن سرعتها المفرطة التي تصيد بها الذباب بلسانها اللزج كانت تخفى على الملاحظ السطحي كيفية اقتيات هذا الحيوان.

صار أسود، أو خضرة صار أخضر، وهكذا دواليك بالنسبة لسائر الألوان. وقد قمت بنفسي بالتجربة. والحرباء عدوّةلدود للحيات السامـة، فإذا أبصرت إحداها نائمة تحت شجرة تسلقت الشجرة حيناً واختارت مكاناً يكون فيه عمودياً تماماً بالنسبة لرأس الأفعى. ثم نفثت خيطاً من لعاب كلعاب الضفدع تتكوّن في طرفه قطرة كجوهرة صغيرة، وإذا رأت أن الخيط لا ينزل عمودياً على رأس الأفعى انتقلت حتى تسقط القطرة على رأسها. ومن خاصيات هذه القطرة أن تنفذ إلى رأس الحية وتقتلها بمجرد ما تلمسه. وقد روى كتابنا الأفارقة عدة أشياء عن خاصيات الحرباء وفوائدها لم أعد أتذكرها الآن.

الطيـــور

النّعـــامة

لنتكلم قليلاً عن الطيور أيضاً.

النعامة طائر وحشي طويل القامة، يشبه شكله قليلاً شكل الأوزة، لكن قوائم النعامة وعنقها طويلة جداً، منها ما يبلغ طول عنقها ذراعين، وكذلك الساقان. وجسم النعامة ضخم، وجناحاها مكسوّان بريش كبير لا يساعدها على الطيران. لكنها عندما تعدو تستعين بخفق الجناحين والذنب. وريشها أسود وأبيض كريش اللقلاق. وتعيش عادة في القفار اليابسة حيث لا يوجد ماء. وتضع بيضها في الرمل ما بين عشرة إلى اثنتي عشرة بيضة، وكل بيضة ضخمة بحجم قذيفة مدفع من زنة خمسة عشر إلى ستة عشر رطلاً. لكن النعامات الصغيرة تضع بيضاً أصغر. وما إن تبيض النعامة حتى تنسى المكان الذي وضعت فيه بيضها لضعف ذاكرتها، ويؤدّي ذلك إلى أن الأنثى التي تجد بيضاً سواء كان لها أو لغيرها تحتضنه وتدفئه، وبمجرد ما تتولّد الفراخ تسرح في البادية باحثة عن قوتها. وتكون سريعة جداً في السباق قبل أن ينبت ريشها حتى لا يمكن اللحاق بها. والنعامة غبية لا تحس بأي شيء من أذنيها لأنها صمّاء، وتأكل كل ما تجده حتى الحديد. ولحمها لزج يثير القيء لاسيما لحم الفخذين، ومع ذلك تؤكل كمية وافرة منها في أقاليم نوميديا، حيث تصطاد وهي صغيرة فتُعلف

وتسمّن، كما أسلفنا القول[36]. وتسير هذه الطيور في الصحراء متتابعة الواحدة وراء الأخرى، ومن شاهدها من بعيد ظنّها فـرسانـاً. وكثيراً ما أحدثت للقوافل قلقاً وفزعاً شديدين. وقد أكلتُ بدوري لحم النعامة عندما كنت في نوميديا فلم أجده رديئاً جداً.

النُّســـور

توجد عدة أنواع متميّزة من هذه الطيور حسب خاصياتها وقامتها ولونها. ويسمّى نوعها الأساسي نسراً باللغة العربية.

النَّســـر

النسر أكبر طيور افريقيا، وهو أضخم من الكركي لكن رجليه وعنقه ومنقاره أقلّ طولاً. ويرتفع في الجو عندما يحلّق حتى يختفي عن النظر، وإذا أبصر جيفة انقضّ عليها فوراً. وعندما يطير يكون دائمًا مع نسور أخرى سِرباً. ويعمّر طويلاً بحيث يشاهد كثير من النسور وهي صلعاء لا ريشة على رؤوسها كما لو حلقت. وتعيش هذه الطيور سنوات عديدة ــ كما قلنا ــ فتسقط مع مرور الزمان قوادمها وخوافيها وسائر ريشها، وتمكث في النهاية في عشّها كأنها حديثة عهد بالولادة تأتي إليها الصغار بقوتها. وسمعت أن هذا الطائر يحمل اسم (فولطوري) بالإيطالية فلم أتمكّن من تحقيق ذلك. ويعشّش عادة في صخور قمم الجبال الشاهقة الخالية ولاسيما في الأطلس، ومع ذلك فإن من يختلفون إلى هذه الأماكن يأخذون بعض هذه الطيور.

البَـــازي

يسمّى البازي (أسطوري) باللغة الإيطالية. وتوجد هذه الطيور بكثرة كاثرة في افريقيا، بعضها أبيض يُصطاد في جبال قفار نوميديا.

---

(36) في القسم السادس عند وصف درعة ــ ص 118 ــ.

وهو أغلاها ثمناً وأجودها، وبه تصطاد الكراكي، وتوجد منه أنواع مختلفة: منها ما يصلح لصيد السمَّاني والحجل، ومنها ما يصلح لصيد الأرانب.

وتُدرّب النسور في افريقيا على قنص الثعالب والذئاب، وعلى المصارعة فيما بينها. لكن النسور المتدربة على المصارعة تمسك هذه الوحوش من ظهرها بمخالبها، ومن رأسها بمنقارها حتى لا تتمكّن من عضّها، فتنقلب على ظهرها، إلا أن النسور لا تطلقها حتى تقتلها أو تفقأ أعينها.

الخُفَّاش

توجد هذه الطيور الكريهة المعادية للنور في العالم بأسره، إلا أن في مغارات الأطلس كثيراً منها. وهي في حجم الحمام بل أكبر، لاسيما فيما يتعلّق بطول أجنحتها. إنني لم أرها شخصياً قط، ولكن حدّثني عنها كثير ممن يحفرون الأرض بحثاً عن الكنوز.

البَبَّغَاء

توجد هذه الطيور بكثرة في غابات إثيوبيا. ريشها مختلف متعدد الألوان، وأفضلها الخضراء التي تتعلم أحسن من غيرها كيف تقلّد صوت الإنسان.

ويشاهد كثير منها في حجم الحمام مختلف الألوان: من أسود وأحمر ورمادي أسمر، وليست قادرة تماماً على تقليد كلام الإنسان، لكن غناءها عذب شجي.

الجَراد

يشاهد أحياناً بافريقيا كمية وافرة من هذه الحيوانات، حتى إنها لتحجب ضوء الشمس عندما تطير مثلما يفعل السحاب. تأكل من الأشجار

الفواكه والأوراق. وتترك عند ذهابها بيضاً يتولّد منه جراد آخر لا يطير، لكنه أسوأ من أمهاته، يلتهم حتى لحاء الأشجار. وحيثما مرّ الجراد ترك مجاعة كبيرة، لاسيما في موريطانيا.

ورغم ذلك فإن سكان الجزيرة العربية الصحراوية وسكان ليبيا يعتبرون هجوم الجراد من أسعد الحوادث. فالبعض منهم يأكلونه مطبوخاً والبعض الآخر يجُفّفونه في الشمس ثم يسحقونه، فيحصلون من ذلك على نوع من الدقيق يستهلكونه.

تلك هي تقريباً جميع مميّزات هذه الطيور والحيوانات التي لا توجد بأوربا أو التي تختلف عن مثيلاتها الأوربية في بعض النقط. وسنقدّم الآن نبذة يسيرة عن المعادن التي توجد في افريقيا، وبعض الفواكه والأشجار المغروسة والبرية، ثم نختتم هذا المؤلَّف.

المعـــادن

المــلح

لا يوجد في معظم أجزاء افريقيا ملح غير الذي يُستخرج من المناجم بحفر سراديب كما يفعل بالرخام والجبس. ومنه الرمادي والأبيض والأحمر. ويكثر جداً في بلاد البربر. ويقلّ في نوميديا لكنه كاف. ولا وجود له في بلاد السودان خصوصاً في إثيوبيا السفلى، حيث يساوي ثمن الرطل منه نصف مثقال. لذلك لم يتعوّد أهل هذه البلاد وضع مملحات على الخوان، لكنهم عندما يأكلون الخبز يمسكون بقطعة ملح في يدهم فيلحسونها مع كل مضغة حتى لا يستهلكوه بكثرة.

ويجمد الملح في الصيف في بعض البحيرات الصغيرة والغدران ببلاد البربر، مكوّناً طبقة بيضاء مستقيمة كما يشاهد ذلك مثلاً في ضواحي فاس.

الكُحْـــل

ينشأ هذا المعدن في بعض أماكن افريقيا في مناجم الرصاص، ويقوم العمال المدرّبون بفصله عن الرصاص بواسطة الكبريت. ويوجد بكثرة كبيرة في سفح الأطلس بجهة الجنوب، لاسيما في التخوم بين نوميديا ومملكة فاس، كما يوجد الكبريت أيضاً بكثرة في مواضع أخرى.

الفَرْبيُــون

الفربيون صمغ أحد النباتات التي تنمو على شكل قدم الخرشف البري، وتكبر بين فروع هذا النبات ثمارٌ في حجم الخيار. تكون خضراء مكسوّة بحبيبات كالخيار، إلا أنها أطول منه، يبلغ طول بعضها ذراعاً فأكثر. لا تنبت هذه الثمار على فروع النبات لكنها تبرز من الأرض كجذع أو ساق. ويتولّد من قدم فربيون واحد وعشرون أو خمسة وعشرون أو ثلاثون ثمرة. وعندما تنضج يشقّها الفلاحون بسكين فيخرج منها عصير كالحليب يصير لزجاً؛ ثم يعزل العصير بسكين ويجُعل في قِرب حيث يجفّ. ونذكر أن هذا النبات مغطّى بالشوك.

القَطِــران

القطران نوعان: نوع طبيعي يلقط من فوق أحجار توجد في قلب بعض العيون التي ينشر ماؤها رائحة كريهة جداً وله نفس الطعم[37]، ونوع اصطناعي يُستخرج من العرعر أو الصنوبر، وقد رأيت كيف يُصنع في الأطلس: يتّخذون فرناً مستديراً عميقاً في طرفه الأسفل ثقب متّصل بتجويف على شكل صحن. ثم يأخذون فروعاً خضراء من العرعر أو الصنوبر فيكسرونها قطعاً صغيرة ويضعونها في الفرن الذي يغلق بابه ويُسخّن بنار معتدلة. فيقطر الخشب عند تسخينه وتسيل المادة في التجويف من الثقب المتّخذ لهذا الغرض في قعر الفرن. وهكذا يجمع القطران ويوضع في القِرَب.

المَــوز

هذه الفاكهة جميلة حلوة جداً، وهي كبيرة في حجم خيار صغير، تنبت على شجيرة لها أوراق كبيرة عريضة طولها ذراع. ويقول فقهاء المسلمين إن هذه هي الثمرة التي حرّم الله على حواء وآدم. وفعلاً لما أكلاها

---

(37) هو البيتوم أو البترول.

وأرادا ستر عورتهما أخذا يخصفان عليهما من ورق الموز، وهو أنسب من غيره لهذا الغرض. وينبت الموز بكثرة في سلا إحدى مدن مملكة فاس، لكن معظمه ينبت في مصر لاسيما في دمياط.

سَنْط العنبر

إن الأشجار التي تنتج العنبر ضخمة جداً، أوراقها شبيهة تقريباً بأوراق شجر التوت، وأزهارها كبيرة شديدة البياض. وتثمر كثيراً إلى درجة أنه ينقص الكثير من ثمارها قبل نضجها للتخفيف على الفروع حتى لا تتكسّر تحت الثقل. ولا تنبت إلا في مصر.

التّرْفَــاس

يمكن القول إن الترفاس جذر نباتي أكثر مما هو ثمر. ويشبه الكمأة لكنه أضخم منها وذو قشرة بيضاء. ينبت في الرمل في الأماكن الحارة. ويُعرف وجوده بحدبات في الأرض مشقّقة شيئاً ما. بعضه في حجم الجوز والبعض الآخر في حجم البرتقال. وهو ثمر منعش في نظر الأطباء الذين يدعونه كمئاً. ينبت بكثرة في صحراء نوميديا. ويتلذّذ الأعراب بأكله كما لو كان سكراً. والواقع أنه غذاء لطيف جداً إذا كان مشوياً على الجمر ثم قُشّر وطبخ في مرق دسم. يأكله الأعراب مطبوخاً في الماء أو اللبن. ويوجد أيضاً بكثرة في الرمل بضواحي مدينة سلا[38].

النَّخْــل

لا نقول الآن شيئاً عن النخل الذي تكلمنا عنه عند وصفنا لسجلماسة، إحدى مدن نوميديا.

---

(38) كل ما ذكره المؤلف عن الترفاس صحيح، وما زال حتى اليوم كثيراً في غابة معمورة بضواحي سلا.

تين مصر المعروف عندهم بالجُمَّيز

إن خشب هذه الشجرة وأوراقها كخشب وأوراق غيرها من شجر التين، لكنها في غاية الضخامة والارتفاع. ولا تنبت ثمارها بين الأوراق على الأغصان في أطراف الأفنان، بل على جذع الشجرة نفسه، حيث لا توجد الأوراق. ولها نفس مذاق التين العادي، لكن قشرها غليظ جداً ولونها بنفسجي.

شجرة الطَّلْح

شجرة الطلح كبيرة شائكة لها أوراق كالعرعر، وتنتج صمغاً شبيهاً بالمصطكى يستعمله عقاقيريُّو افريقيا لتقليد المصطكى، إذ له نفس اللون والرائحة تقريباً. ويوجد الطلح في قفار نوميديا وليبيا، وكذلك في بلاد السودان. إلا أن ما يوجد منه في نوميديا يكون داخله أبيض عندما يشقّ كغيره من الشجر، بينما يكون داخله أسود تماماً في بلاد السودان. وخشب هذه الأشجار هو الذي يسمّى (سانكُو) في إيطاليا، وتصنع منه بعض الأشياءالجميلة الأنيقة. ويستعمل الآن أطباء افريقيا الخشب البنفسجي في علاج الداء الافرنجي، وتسمّيه العامة لذلك خشب الداء الافرنجي.

تَسَــرْغِينَتْ

تسرغينت[39] جذر عطريّ يوجد في ساحل المحيط إلى جهة الغرب، يحمله تجار موريطانيا إلى بلاد السودان حيث يُستعمل كعطر رفيع. ولا حاجة إلى حرقه أو تسخينه، لأنه إذا حُفظ في حجرة نشر فيها نفس الرائحة، على أية حال. يساوي حمل بعير من تسرغينت في موريطانيا مثقالاً ونصفاً، وثمن نفس الحمل في بلاد السودان ثمانون مثقالاً أو مائة مثقال، وأحياناً أكثر من ذلك.

---

(39) صيغة تأنيث بربرية، والاسم العربي سرغينة.

الـــدَّادْ

الداد نبات جذره سامّ إلى درجة أن زنة درهم(40) من الماء المقطّر منه كاف لقتل رجل في ساعة واحدة. وهذا شيء معروف في افريقيا كلها حتى عند النساء.

السَّـــرْمَق

السرمق أيضاً جذر نبات ينمو في القسم الغربي للأطلس. ومن خصائصه ــ حسب قول الناس ــ أنه يقوّي العضو التناسلي للرجل، ويمكّن من يتناوله في معجون معسول من مضاعفة نكاحه. ويقال أيضاً إن من اتّفق له أن بال على هذا الجذر أنعظ لحينه. ولا أخفي كذلك ما يحكيه جميع سكان الأطلس من أنهم رأوا عدداً كثيراً من الفتيات اللواتي يرعين ماشيتهن في الجبل فقدن بكارتهن مصادفة لكونهن بلن على هذا الجذر. فأجبت ممازحاً من روى لي ذلك أنني أثق فعلاً بما يقولون عن هذا الجذر، وأن هؤلاء الفتيات تسمّمن كثيراً لدرجة أنهن لم يفقدن بكارتهن فحسب، بل انتفخ جسمهن كله!

* * *

والحاصل أن ذلك ما شاهدته ــ أنا يوحنا ليون ــ مما هو جميل وجدير بالذكر في كل افريقيا التي جبتها من جهة إلى أخرى. وقد أثبت بعناية يوماً فيوماً كل ما رأيته يستحق الذكر كما شاهدته. وما لم أشاهده أخبرني به من يوثق به إخباراً صحيحاً كاملاً. ثم رتّبت هذه المذكرات بقدر استطاعتي، وألّفت منها في الأخير كتاباً عندما كنت بروما في العام الميلادي 1526 في العاشر من مارس.

وهنا ينتهي كتاب يوحنا ليون الأندلسي المولد، المغربي النشأة.

(40) زنة الدرهم (الطبي) نحو 3 غرامات ونصف غرام. ونشير إلى أن الداد ما زال حتى اليوم معروفاً عند العشابين بالمغرب، ويوصف في العلاج بخوراً، ولا سيّما لإبطال السحر. ويذكرون أنه سام، لكن ليس بهذه الخطورة التي يذكرها المؤلف.

فهرس موضوعات الجزء الثاني
من كتاب وصف افريقيا

القسم الرابع
مملكة تلمسان

القسم الخامس
مملكة بجاية
ومملكة تونس

القسم السادس
نوميديا

القسم السابع
بلاد السودان

القسم الثامن
مصر

القسم التاسع
الأنهار والحيوانات والنباتات
بإفريقيا

الفهارس العامة

فهـــرس
أعلام الأشخاص والقبائل والأمم والفِرق

فهرس الأماكن

فهرس
الكتب المذكورة في متن وصف افريقيا

مصادر الترجمة والتعاليق

لقد رجعنا في ترجمة وصف افريقيا وكتابة بعض التعاليق ومراجعة ما ترجمناه منها عن الفرنسية ـ زيادة على المصادر الواحد والثلاثين المذكورة في المقدمة ـ إلى عدد كثير من المصادر التاريخية والجغرافية واللغوية وغيرها، وأثبتنا أهمها فيما يلي مرتّبة على أسماء المؤلفين بحسب حروف المعجم:

ـ ابن أبي دينار (محمد) **المؤنس في أخبار افريقيا وتونس**، تحقيق محمد شمام، تونس، 1967.

ـ ابن أبي الضياف (أحمد) **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهدالأمان**، 8 أجزاء، تونس 1963.

ـ ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن علي) **صورة الأرض أو المسالك والممالك**، دار مكتبة الحياة بيروت، بدون تاريخ.

ـ ابن خلدون (عبد الرحمان) **كتاب العبر**، 7 أجزاء، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1956.

ـ ابن العربي (الصديق) **كتاب المغرب**، الرباط، 1956.

ـ ابن عسكر (محمد) **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، دار المغرب الرباط، 1976.

ـ الأسدي (محمد بن محمد بن خليل) **التيسير والاعتبار، والتحرير والاختبار، فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار**، تحقيق د. عبد القادر طليمات، دار الفكر العربي، 1968.

ـ إسماعيل باشا البغدادي، **إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون**، جزآن استنبول، 1945. ـ **هدية العارفين أسماء المؤلفين المصنفين**، جزآن، استنبول، 1951.

ـ الأفراني (محمد) **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، المطبعة الحجرية بفاس، بدون تاريخ.

ـ الجيلالي (عبد الرحمن) **تاريخ الجزائر العام**، جزآن، مكتبة الحياة بيروت، 1965.
ـ حاجي خليفة، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، جزآن، استنبول، 1941.
ـ حجي محمد ـ **الزاوية الدلائية**، المطبعة الوطنية بالرباط، 1964.
ـ د. حسن إبراهيم حسن:
ـ **انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى شرقي القارة الافريقية وغربها**، القاهرة، 1957.
ـ **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، 3 أجزاء، القاهرة 1953.
ـ **تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب**، القاهرة 1958.
ـ حسن حسني عبد الوهاب:
ـ **خلاصة تاريخ تونس**، الدار التونسية للنشر، 1968.
ـ **ورقات عن الحضارة العربية بافريقية**، 3 أجزاء، تونس، 1965.
ـ دوفيردان، مراكش، جزآن، الرباط، 1959.
ـ زبادية (عبد القادر) **مملكة سنغاي في عهد الأسقيين**، الجزائر، 1971.
ـ السراج (محمد) **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، الدار التونسية للنشر 1970.
ـ سركيس (يوسف) **معجم المطبوعات العربية والمعربة**، جزآن، القاهرة، 1928.
ـ السعدي (عبد الرحمن) **تاريخ السودان**، باعتناء وترجمة هوداس، باريز، 1964.
ـ عنان محمد عبد الله، **دولة الإسلام في الأندلس**، القاهرة، 1955.
ـ العياشي أبو سالم، **الرحلة العياشية أو ماء الموائد**، جزآن، المطبعة الحجرية بفاس، 1898.
ـ الفاسي محمد البشير، **قبيلة بني زروال**، الرباط، 1962.
ـ القلقشندي (أحمد) **صبح الأعشى في كتابة الإنشا**، 14 جزءاً، دار الكتب المصرية 1913 - 1920.
ـ كحالة (عمر رضى) **معجم المؤلفين**، 15 جزءاً، دمشق، 1957.
ـ كعتيى (محمد) تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، باريز 1964.
ـ مجهول، تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان، باعتناء وترجمة هوداس، باريز، 1966.
ـ المدني (أحمد توفيق):
ـ **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا**، الجزائر، دون تاريخ.
ـ كتاب الجزائر، المطبعة العربية في الجزائر، 1350هـ.
ـ المقريزي، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، أو خطط المقريزي**، جزآن، دار صادر بيروت.
ـ منقريوس رزق الله، تاريخ دول الإسلام، 3 أجزاء، القاهرة، 1907.

ـ الناصري أحمد، **الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى**، 9 أجزاء، الدار البيضاء، 1954.
ـ الحموي ياقوت، **معجم البلدان**، 10 أجزاء، مطبعة السعادة بمصر، 1906.
ـ اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب المعروف بابن واضح) **تاريخ اليعقوبي**، دار العراق بيروت، 1955.

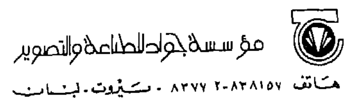
فهرس الخرائط



دار الغرب الإسلامي
بيروت - لبنان
لصاحبها: الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الأسود
تلفون 340131 - 340132 - ص . ب . 5787 - 113 بيروت - لبنان
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI – B.P.:113-5787 - Beyrouth - Liban

الرقم 1983/4/2000/25
سحب جديد 1988/10/2000



مؤسسة جواد للطباعة والتصوير
هاتف ٢-٨٢٨١٥٧ ٨٢٧٧ - بيروت - لبنان

Jean - Léon l'Africain (al - Hasan al - Wazzan)

DESCRIPTION DE L'AFRIQUE

Trad.en Arabe par

Dr.M.Hajji

Dr.M.Lakhdar

